أول أوكسيد

الحب

علي حسن مكيه

أول أوكسيد الحب

مقدمة

اخـترتُ مَدخـلاً قصـيراً للغايـة سـعياً وراء التَّفاصيـل، وسرد الإحسـاس لا القصـة فقـط.. ولهـذا أطلـب منكـم السَّـماح لي بتهميـش ما مـضى مـن عمـر وردٍ وشـغفٍ؛ لأنِّي أردتُ أن نلتقـي فيـما هـو آتٍ بسرعةٍ، خوفاً على قلبي من النِّسيان..

واخـترت أسـماءً وهميـةً لأنتشـل نفـسي وإيَّاكـم والحـب مـن حـرب الأديان والمعتقدات، وأُبقي على احترامي لها مهما كانت وكان رأيها.

ثـمَّ قمـتُ بإحضـار الخيال، ومزجـه بشيءٍ مـن الحقيقـة في البدايات؛ لأخبركـم أنَّ الـولادة السَّريعة لا تعني موتـاً حتمياً للمولـود. وتعمّدت هنـا، أن أكـون طفوليـاً في كلـماتي؛ لأُلقي الضَّـوءَ على بـراءة البدايات في العشـق. ثـمَّ انتقلـتُ إلى الواقـع؛ لأكشـفَ السِّـتارَ عـمَّا يـدور خلـف كواليسنا، وأتكلَّم عني، وعنكم، ممثلين في شخصيَّاتي الرِّوائية..

تركـتُ لكم ورد وشـغف، في بعض الصفحات يكتبـان لكم مباشرةً؛ ليخبراكـم عـن الحقيقـة بـلا تغيـير، ووضعـت لكم بعـض الأفـكار، ممّا

كنّا نفكِّر فيه، في تدخلات الكاتب، وهذه دعوة مني لكم للتَّفكير، وربما للتّمرد..

شَوقٌ.. لَيلٌ.. وَجدٌ.. وجَوى.. كان وجودهم في القصة الحقيقية أكبر؛ وما ذُكر عنهم كان بعض الفواصل المهمة فقط لأسبابٍ شخصيَّةٍ حاولت جداً ألا أتجاوزها، وأعتذر إن كنت قد تجاوزت، فهذه حريَّتي..

أعتذر مُسبقاً عن كمية الحزن في محتوى الصفحات، وأؤكد لكم أنَّني ما خرجت أبداً عمّا كان في الواقع، وما كنت إلا ناقل خبرٍ، ولكن نقلته بطريقتي وإمكاناتي المتواضعة. واضعاً إيَّاه بين أيديكم..

وبلا أي مقدِّمات.. أترككم الآن مع.. أول أوكسيد الحب.

الكاتب

أول أوكسيد الحب

كان شابّاً كثير الوحدة، شديد الكآبة..

في خيالـه آفـاقٌ واسـعةٌ، لـكلّ ما هـو جميـلٌ وحزيـن، كان يختبـئ في خيالـه مـن كلّ شيء حولـه، ففيـه يُغنِّـي ويرقـص، يحبُّ ويهجـر، يكون محـطَّ أبصـارِ مَن حولـه بتميّـزه، ويتركها معلقـةً به ويرحل، يكون سـيداً للكثـير من النِّسـاء الجميـلات، وبلحظةٍ مجنونـةٍ يصبح وحيـداً، حتَّى في خياله، حزيناً في ابتساماته.

هذا الخيال الطفولي كان كل الحياة.

شـعور وحدتـه كالصَّخـرة الصـمّاء، لا يُخـدَش ولا يُكـسَر ولا يَلـين، رغـم أنَّـه كثـير العلاقـات.. وسـيمٌ في عيـون النِّسـاء، في ذاكرته أشـلاء أجسـاد تـكاد لا تُعَـد.. وفي حـاضره؛ أجسـاد أخريـات يتمـدّدن عـلى فراشـه.. عـلى صـدره.. على يديـه.. لأنَّه يعـرف تمامـاً كيف يملـك قلباً يقـف أمامـه، ويجـذب نظراتـه بعـينٍ جميلـةٍ، لا تعـرف الصَّمـت أبـداً، ولغتها وقحة للغاية.

شـابٌ في مقتبـل العمـر، يملـك تاريخـاً نسـائياً يعجـز عنه الشِّـيَّاب، وتعجز أغلب النّساء عن صدّه.

جميـلٌ في أناقتـه، مقنـعٌ في أحاديثـه، فنّـانٌ في انتقـاء كلماتـه، شـاعرٌ في وصفـه، طبيبٌ في لمسـاته، حنونٌ متوحشٌ في فراشـه، يُضاجـع الحياة كلّ يومٍ، فإمَّا أن يهرب وإمَّا أن يموت..

فـإن هـرب يجـول الشـوارع باحثاً عـن مـأوى يضمّـه، مُتَفاديـاً جِماع ليلتـه المقبلـة. وإن مـاتَ تراه باكيـاً نادمـاً، متمنياً الحيـاة، عائـداً بأفكاره وذاكرته نحوها، في ضياعٍ متناقضٍ للغاية.

غـادر منـزل أبيـه، قاصـداً مدينـةً أُخـرى، يحمـل في جعبتـه حلـماً، نجاحـه مؤلم وكذلك فشـله، تحقيقـه يحتاج إلى التَّضحية، وكذلك فشـله، تضحيـة نجاحـه كانـت تتلخَّـص في غُربتـه عـن مدينتـه مسـقط رَأسـه، هجـره لذكرياته، وشـوارع مشـى فيهـا حزينـاً أو ضاحكاً، مُتألِّـماً يجتاحه المـوت، سـعيداً تنتصـب الحيـاة أمامه، فـلا يرى شـيئاً سـواها، تلك هي مدينة الطُّفولة.

تحقيـق حلمـه هذا دفعـه إلى ترك كلّ مـن يحبهم على اختـلاف الصفة، فخـرج مـن شـمال البـلاد، يفكّـر في زيارتـه، والعودة لـه رجلاً يسـتحقّ الاحترام والذّكر.

تضحيـة فشـله، لم تكـن أكثر مـن ذلك سـوءاً، تنصبُّ فقط في نسـيان الحلـم عينـه. تلـك هي سُـلطة الأحـلام هكذا هـو المسـتقبل، نُفكِّـر فيه صغاراً فنحبّه، ثم نواجهه كباراً، فنلعن ساعةَ وُصولنا إلى أبوابه.

لم يكـن يحمـل في حقائبـه، غـير مسـتلزمات أناقتـه، وبعـض أوراقـه الشّـعرية المضحكة، وقسـم من نثـره، هو الشّـاهد الوحيد عـلى وحدته، وكآبته بين أقرانه.

عندمـا احتلّ مقعـده، انطلق في رحلتـه الخرافية تلك. رمـق من نافذة الطَّائـرة مراقبـاً كيفيـة ابتعادهـا عـن أرضـه ورحيلها صـوب العاصمة، التـي كانت بالنّسـبة له سـلاحاً يقتله، يدافـع عنـه في ذات الوقت، يُدمي يديه وقلبه، ويبعد عنه شبح الحياة، ثم تضخه بها..

بدأت مناجاته لمدينته الجديدة، فور وصوله إليها. حينما وضع قدمه في مطارها راح يشكو لها أنين غربته، مدى شوقه الذي وصل لذروته، دون احتياجه للكثير من الوقت كطفلٍ ترك ثدي أمه ثم بكى جائعاً.

يجـول في خاطـره صـورة أبويـه، اللَّذَيـن جعـلاه يقبـل تحـدي مدينةٍ كاملـةٍ لأجلهـما. أراد إرضاءهمـا طامحاً برضى المسـتقبل فيـه، أراد تجميل صورته طامعاً بحسن الذكر لهما.

رغـم اقتناعـه؛ بـأنَّ ذلـك الأب الحكيـم المتسـلّط بصمتـه، صاحـب الفضـل والخـير والقـدوة، الـذي إذا تكلّـم، نـزل كلامـه منـزل كلام الأنبيـاء، وإذا صمـت، يشـدو صمتـه حينـاً ثـم يقتـل دون التَّعبـير عـمَّا يجول في خاطره.

وتلـك الأم الحنـون التـي أتعبهـا خوفها الدَّائـم، ولا ملجأ لها سـوى الـرب وكثـرة الصَّـلاة التـي طالمـا كانـت تسـتغلّها في الدُّعـاء لأبنائهـا وزوجها.

رغـم اقتناعـه؛ بأنَّهم ليسـوا بحاجة لمسـاحيق تُجمّلهم أو كلـماتٍ تعلو بشـأنهم، وصـل فيـه اقتناعـه حـدَّ اليـأس. كان يُفكِّـر بعظمـة وجـودهِ فقـط، لأنَّه انحـدر من أبٍ وأمٍ عظيمـين، وأفكاره هذه كانت تواسـيه في يأسه وتدفعه في همّته، كلٌّ على حِدا.

في ظـلّ نجـاح الآبـاء يصبح نجـاح الأبنـاء أكثر صعوبـة، على عكس ما يُظَنْ.

إنَّ الحيـاة تحمـل القـدر بيُمنَاهـا، والفـراق بيسـارها، ومـن مقلتيهـا يهطـل غيـث الأمـل والرّجـاء. فمن تضربـه بيمينهـا، غالبـاً ما يقع تحت رحمـة قَـدَرِهِ الظَّـالم. ومـن تضربـه بيسـارها، تفارقـه ويفارقهـا مئـات المـرات، حتـى يطلـب فراقـاً أبديـاً لا رجعـة فيـه إليهـا. ومـن يواجـه عينيهـا، فهـو الخاسر الأكبر. فبعد خسـارته الأولى في معـارك حياته يغرُّه أملهـا، ويجيـب رجاءهـا، فيخـرج بـكلّ أسـلحته حامـلاً معـه اطمئنانه لهـا.. وفي الفرصـة الأولى، تضربه مُجـدَّداً ليقـع صَريعاً يناجيها، ويسـمع صـوت ضحكهـا، مبـصراً ابتسـامة الشَّـامتين واشـمئزازهم، كأنَّهـم لن يخوضوا بعد ذلك معترك الحياة وحروبها التي لا تتوقَّف أبداً.

أمَّـا هي، فالحيـاة ضربتها بيمينها، وجـاءت بها لتنتظـر موعد وصوله في تلـك المدينـة؛ التي عرفت قصة عشـقهما، وكانـت حضناً دافئـاً تقيهما برود المشاعر وفوضى الأضلع.

ولطالمـا وقفـت حارسـاً أمينـاً عـلى ابنتهـا الشّـمالية، ذات العينـين الغجريتين المذهلتين في بريقهما.

كنجمتين معلَّقتين على سقف الأرض، بدون بريقهما تعتم الدنيا لتشبه غابات شعرها الحالك في السَّواد المنسدل حول عُنقها، يلاعبه الهواء تارةً، وتذيبه ريح عطرها المنبعث من جسدها المخملي لشدّة بياضه تارةً أخرى.

ما أجمل الملك والعبد، عندما يلتقيان في الذنوب. واللَّيل والنّهار، عندما يجتمعان في الغروب. والقلب والفؤاد، عندما يتَّحدان في الحروب. والأسود والأبيض، عندما يمتزجان في امرأة، لِيصبح وجهها أشبه بقرص القمر المثبت في قلب السماء. ينظر إليه الضعيف فيُقويه، ويُنظَر إليه العاشق فيُباركه. ويَنظر إليه المتألّم فيُشفيه.

في كل امرأةٍ حزمة من المفاتن تحظى بإعجاب جزءٍ من الرِّجال. ولكن، ماذا عن الرجولة لو كانت الفتنة في امرأةٍ واحدةٍ؟ امرأةٌ كل ما تفعله هو اللَّعب بالسّحر المتواري خلف جسدِها المُفعَم بالحيوية والأنوثة.

امرأةٌ كهذه، لم تحتج لأكثر من دقيقتين فقط في لقائهما الأول، لتسيطر على فكره، وتجذب إحساسه بخفّتها.

في بَهْوِ الجامعة الكبير، التقى زميلا الأصل والدِّراسة. قدرٌ مقصودُ الخُطى، قدرٌ أحمقُ الخُطى.

هو كان على أبواب الدّخول، وهي كانت على أبواب الخروج. هو كان ينظر إلى الأمام ومشيئةُ الربْ جعلتها تستدير فجأةً، وتلمع عيناها في عينيه. لم يكن الحب بنظرته الأولى، بل كانت الوحدة والكآبة

المرافقتين له كلٍّ على حِدة. وهو صامدٌ يصارعهُما، اتَّحدوا معاً وبدؤوا حزم أمتعتهما ليرحلوا قبل أن تُهاجِمُهُما عيناها على حين غرَّةٍ.

وقف إلى جانبها، يجول بنظراته الخجولة، يتلهَّفُ لِسماع صوتها، والغوص في حروف اسمها، حتى أنقذته شَوق؛ الصَّديقة من بحر حيرةٍ تتدافع فيه الأسئلة، كالموج الهائج الذي يضرب شواطئ قلبه.

– شوق: ورد، أُقدِّمُ لك صديقتي شغف... شغف، هذا ورد صديق لَيل في الدّفعة الجديدة للجامعة.

لاحت برأسها، ووجَّهت إليه ابتسامة، وبعض الابتسام يكون كالرَّصاص أحياناً، أصابت عقلاً وأوقَفته عن التّفكير وفي قلبه، ترَدّد صدى اسمها الجميل الممتلئ بالحب، مِلْأ قعر البحيرة بالماء.

– أهلاً ورد.

تركه لسانه، وهاجرت الأبجدية جمعاء أنحاء دماغه المُصاب، وبقي قلبه يدقُّ بأضلُعه، فاكتفى بابتسامة الخفر ولوَّح برأسه مُرحِّباً.

عادت ألحانُ صوتها قاطعةً صمته وخَلوته بنفسِهِ.

– معذرةً! عليَّ الذَّهاب الآن.

أراد أن يقول لها: لا، لا تذهبي، أودُّ لقائَكِ ثانيةً.. لكن لسانه كان خارج سيطرة أفعاله، كما كان قلبه، فهزَّ رَأسه بلا كلماتٍ.

بدأت تبتعد عنه وهو يراقب، وبقيت تتحرَّك كما الفراشة حتَّى غابت عن نظراته، وغابَ معها تألُّق المكان.

هكـذا هـي الأمكنـة دائـماً، تحمـلُ عبـقَ مـن فيهـا، وتشـدو بألحانهم وتُذكّرُ بابتساماتهم.

سرح هُنيهةً، وما كان لأحدٍ أن يوقظه إلا صوت شَوق:

- ما بكَ ورد تبالغ بصمتِكَ؟

- لا شيء شَوق، أشعر بالخوف قليلاً.

- وممَّ أنتَ خائفٌ الآن؟

- مـن كلِ شيءٍ؛ أمَّـا الآن فأنـا أخـاف اللِّقـاء الأول هـذا ما يجـول في خاطري.

أعـرف أنَّ حيـاتي أشـبه بقاعات المطـار، هنـا بوابة للقادمـين، وهناك بوابـة للمغادريـن. هنـا أُنـاس يحملـون الـورد، والفرحة تمـلأ وجوههم يسـتعدَون للقـاء أحبَّتهـم بعـد غيـاب. وهنـاك أُنـاس يحملـون الدَّمـع، والحُزن يكاد يلغي ملامحهم يستعدون لرحيل أحبَّتِهم.

أخـاف اللّقـاء الأول يا شَـوق؛ لأنِّي أُدرك أنَّ القـادم الآن سـيَأخذ مكانَ آخرٍ فيرحَل، وغداً سيَأتي غيره يـأخذ مكانَه فيرحَل.

وأنـا الذي أعيـش مخاضاً عسـيراً في كلّ مرّةٍ تـزاح فيهـا أدوار المحبة، مـا أكاد أُضمِّـد جُرحـاً إلا ويفتحُ آخـر وهكذا.. فكيـف تريدين مني ألا أخـاف! وأنـا أعلـم، أنَّ لحظة الفـرح اليوم تنمـو وتكبُر، لتغـدو لحظات من الألم في الغد.

شَـوق انظـري إليّ.. إلى وجهـي المبتسـم هـذا، وجهـي ينـشر الفـرح

والأمـل في كلّ مـكانٍ يتواجد فيه. ينظـر المارُّون إليه ويبتسـمون لأجله، هم سعداء بذلك جداً لكنّهم أغبياء.

– أغبياء! أغبيٌ هو الذي يبتسم ويفرح ورد؟

– نعم شَوق.. أغبياء..

الحقيقـة مُدهشـةٌ ومُختبئـةٌ، لا تراهـا العيون. فإهـداء الفـرح هو بحدّ ذاتـه إهـداءٌ للحـزن. لأنَّ الحُـزن يَسـكنُ الفـرحَ في ثنايـاهْ.. كـما يَسـكُنُ الجنينُ رَحِمَ أمَّهِ. كما يَسكُنُ الشوكُ على غُصنِ وردة.

– لا أعرف ماذا أقول لكَ، لكنّي أظنكَ على حق.

– ظُنـي كـما تشـائين يا صديقتـي، فغـداً تُعَلّـمُ الحيـاة مـن لم يختبرُها. إمّا أن يتعلَّم منها أو تقتله بالحقائق..

– أراكِ لاحقاً شَوق.

مشـى بخطواته الهادئـة يراقب كلّ شيء يـدور حوله يأبـى خَياله ترْكَ لَمَحَاتهـا، هـي التـي أربَكَتهُ بلحظَـةٍ.. وفعلتْ به مـا لم تفعله أكثر النُّسـوة جمالاً في ساعات.

* * *

ركـب طريقـه عائـداً إلى بيـت لَيـل الـذي كان يقطـن عنـده منتظـراً منزلـه الجديـد، أميالٌ كثـيرةٌ لم تتعبه، ظلَّ يمـشي مُترنّحاً بـين الذِّكريات. يذكـر مـن غـادر بحـزن، ثـمَّ يَذكرهـا فيبتسـم. فاجـأه خوفـه بسـؤال، ما كادت تُكتب أولى حروفه حتى شعر بالارتباك:

ماذا تشعر؟ هل هو الحب؟ ما بك ورد، هل أحببتها؟

مـاذا تعـرف عنها لتحبهـا؟ وماذا بوسـعك أن تفعل، لـو كانت حبيبةً لك حقاً؟

مـاذا لـو، مشـت برشـاقةٍ خطواتهـا ثانيـة.. تبتعـد عنـك روحـاً لا جسداً؟

مـاذا لـو، قدَّمـتَ لها كلّ شيء كـما يملي عليـك قلبـك الآن، وأهدتْكَ طبقاً من هُجرانها لا تنسى طعمه أبداً؟

استقبله لَيل على باب المنزل.

- أهلاً ورد.. كيف حالك؟

- أهلاً لَيل.. أشكر الرَّب على كلّ شيء يقدِّمه لنا. وأنت كيف حالك؟

- أشكر الرب.. لكن يبدو أنَّكَ مُتعبٌ جدّاً!

- إنَّه عناء الأفكار.. وتخبَّط الفرح بالخوف.. أحتاج للرَّاحة قليلاً.

- ألن نتناول الغداء؟

- اعذرني أرجوكْ.. لا أظنُّ أنِّي أستطيع فعل شيء الآن.

- ادخل إلى غرفتك، واطلب الرَّاحة لَعَلّي أراكَ ليلاً بحالٍ أفضل.

- شكراً.

تمدَّد على فراشـه يخلـد لراحته ضائعٌ في مسـتقبل أفعاله، غـادر مكانها لكنَّهـا لم تُغـادره أبـداً.. تمـدَّد عـلى فراشـه، فتمـدَّدت عـلى كلّ ما فيـه. طلب راحته، فوقفت أمامها سدَّاً منيعاً لا تجتازه الجيوش.

بـدأت خواطـره هـذه تفتـح أبـواب حـواره مع نفسـه، ورسـمت له عتمـة المـكان اليائـس لـيَرى سـواد الدّنيـا بدونهـا.. ويسـمع صـوت الصَّدى يُردِّد: شَغف.. شغف.. شغف...

كأنَّهـا كانـت تُشـبه شـيئاً يَخصّـهُ، كأنَّـه كان يعرفهـا وكانـت تعرفـه. وتحت تبريرٍ لا يعلمهُ أحدْ دخلت قلبه.

كان يعيشُ فَراغاً كَبيراً وإحساساً نائماً..

كان متناثـراً بـين أبطـال حياته لا يعرف أمـلاً إلا وبداخلـه يأسٌ، ولا يحلو له يأسٌ إلا في لحظة أملٍ..

جمـلٌ غايـةٌ في التّناقـض؛ إنسـانٌ ما لبـث النَّجـاة من رصـاص القدر، إلا ووضـع نفسـه تحت قنابـل الحُزن، فـإن حالفه الحظ بالحيـاة يخرج إلى صواريخ الغدر عاريَ الصّدرِ مجنوناً!.

بقيـت الأفـكار تتحـارب خلـف جبينـه سـاعاتٍ طـوالٍ إلى أن جـاء صوت لَيل يصرخ من بعيد:

- ألن تذهب إلى الجامعة ورد؟

- بلى صديقي، حتماً سأذهب.

أجابه، وهو يقول في نفسه: كيف لا أذهب إليها؟!.

دخلهـا بأحـد أثوابـه البيضـاء، يخطـو بخفـة الغـزال خلـف قلـبٍ يركـض لاهثـاً.. تدور عينـاه مُسرعَةً. وتلقـي التَّحيّة عـلى كلّ من حوله، ليـس محبـةً فيهـم إنَّـما بحثاً عنهـا. وتـدقُّ أبوابـاً غير معتـادة لعلَّهـا تُخبّئُ

طيفهـا.. ومـضى الوقـت مُسرِعَـاً بلا جَـدوى. حتّى بـدأ يُفكِّـرُ بالعودة. لكن! كيف يعود إلى لَيل وهو مرهق الإحساس والجَسد.

* * *

حلَّت به أقدامه في أحد مقاهي المدينة.. فتح كتابه وراح يكتب.

يـوم وصلـتُ إلى هنا، كنـتُ خَائفاً جـدَّاً مـن المدينة.. فالطِّفـل المدلّل الـذي يعيـش في داخـلي، لم يَعتـد عـلى مفارقـة أمـه كثـيراً.. لكنّـي كنت أمام واقع عليَّ التّعامل معه فحسب.

كلّ مـن حـولي يقدِّمـون ليّ النّصائـح، حتـى أصبحـت أملـك أرتـالاً منها.

مـا أسـتغربه حقـاً، هـو النَّصيحـة العميـاء. كيـف لهـم أن يقولـوا لي شيئاً دون معرفتهم بما يحوي فؤادي؟

لا أملـك أُختـاً فقـد سرقتهـا طرحـة العـروس منـي. ولا أملـك أُمَّـاً فقـد أشـغَلَتها الحيـاةُ عنّي، ولسـتُ ألوم أبـاً في وجوده رهبـة وكذلك في غيابه.. ولن أطلب أخاً لِثروةٍ ملكتُها من الكبرياء.

عندمـا رأيتُـكِ، كنـتِ رائعـةً. شـعرتُ أنَّـكِ تسـتحقين الجلوس على عرشٍ خُصّص للسَّيدات..

كان أبيضُـكِ الملفـوف عـلى رأسـكِ يُعاني بيـاض وجهـكِ وبراءته.. وعطـر الأنوثـة الـذي يفـوح منـكِ يكفـي لإذلال رجـال العـالم أجمع في طلب الوصل والرضا منكِ.

ماذا أقول لكِ؟

كيف سأراكِ مجدّداً؟

كيف أمنع ما يجول في قلبي؟ كيف أمنع قلبي من تَرْكِ مكانه واللّحاق بكِ؟

كيف يمكنني كتم شفتيه.. وإخراس صوته؟

من يُعلّمني إيّاكِ.. ويُخبرني بما تملُكين؟

أشعر برغبةٍ عارمةٍ لأعرف ما تملكين.. هل بيدكِ سكينٌ؟ أم خلف قدميكِ هنالك قبرٌ.. أم أنّ في قلبك وطنٌ؟

تقول الفلسفة: إنّ ولادة الحب السّريعة من أخطاء المراهقين! فهل عرف فيلسوف واحد حُبَّ الأفكار والأحلام والأخْيلة.. هل عرف كلّ الفلاسفة أنَّ الفكر يُحَبُّ، والحُلم يُحَبُّ، والخيال يُحَبُّ؟ أم أنَّ لهؤلاء الإخوة الثلاث مشاعر وأحاسيس وربما قلب!.

اليوم، عرفت أنا وحدةٌ لا يكسرها شيء.. ولا يُميتُها أحدٌ.. فقد توحَّد فكري، وحلمي، وخَيالي للمرَّة الأولى في من أحبُّه.. وعلى الجانب الآخر، قلبي اليتيم الوحيد يحتال عليَّ لأركض خلفكِ.. فإن أطعته أصابته سعادته بالهَذيان. وإن لم أُطِعْهُ قاطعني، وتركني يركض وحده خلفكِ.. يُنادي الخيال فيردُّ بصمت.. يُناجي الحلم فَيهجره.. يُحاكي الفِكر فَيَصلبهُ.. وكلٌّ منهم يضمُرُكِ في الأحشاء.

سيدتي.. وببعض العقل، أعرف أنّكِ تجربةٌ، إذا خضتها ستنتهي.. هذا أحد قوانين الحب الأكثر نفوذاً وكأنَّ الرَّب قد أوجده وهجره البشر.

لكنَّ هدفي أن أنتهي معها لأنّي؛ مؤمنٌ إن كان العشق قاتلي فأنا شهيد، أنزل في مكانةٍ ساميةٍ بين القَتلى.

فهنا يتوقّف تميُّز الرِّجال عن الرِّجال.. هنا يَعرف الإنسان ما يملك من الجُرأة والشَّجاعة والإقدام..

لم أقرّر الحب، لأنّ الحبّ ما كان ولن يكون قراراً.. ولم أقرّر الموت، لأنّ من يُقابل سيدةً تملك قدراً من الجاذبية يفوق ما ملكته الأرض منها لا يختار أمامها الموت.. هذه مروءة الذكورة ونَخوتها..

فانطلقي في الأيّام..

واعبثي بكلّ ما يحلو لك العبثَ فيه..

العبي كالطِّفلةِ بكلّ ما تشاء..

تعلَّمي الطَّهيَ في مطابخِ دَمي..

لِيجري بدءاً من يديكِ..

لِيَغلي أمام عينيكِ..

ثم يَدورُ ويَدورُ ويَدورُ..

ويَعودُ مُجدَّداً إليكِ..

هذا ليس الحب.. إنّما دعوةٌ للحُب..

لِتدخلي أحشائي كما تدخل الأميرة بيت أميرها..

لِتتمدّدي خلف أضلُعي.. كسيدةٍ في الأربعين من عمرها تحتاج سريرها..

هذه دعوةٌ للحب.. فهل ستصل إليكِ يوماً تفاصيلها؟!.

* * *

أغلق كتابه، وبدأت الأيام تمضي.. يذهب إلى الجامعة مثل من يزور قريباً ليطمئن على ابنته.. يبحث عنها ولا يجدها.. يسمع أخباراً عنها ولا يأتيه صوتها.

إلى أن جمعهم مجلس أصدقائهما في مطعم الجامعة.. جلسا مُتَقابلين بين الجموع وبحضور شَوق.. وقدوم لَيل بعد حين..

كانت مُهيمنة على كلِ شيءٍ فيه.. إذا وقفت فجأةً، ينتصِبُ قلبُه.. ويقف هو مُمسكاً به يُحاول عبثاً إعادته إلى مكانه.. لَعلَّه يَنفد من العيون.. وإذا مشت باتِّجاهٍ ما، مَشى قلبه خلفها، كما يفعل عادةً ولا يجلس إلا إذا جلست هي مُجدّداً.. ويُحاول هو عبثاً أيضاً إعادته إلى مكانه.

لم يكن في ودّه أن يعود إلى منزل لَيل.. لكنَّه عاد مغصوباً على أمره، بعد أن انتهى وقت الأصدقاء.. عاد ليفتح كتابه، ويكتب عن أشياء ثلاثة فقط.. ثلاثة أشياء لا تفارقه لا هو ولا تفارق أقلامه.. بالإضافة إلى مشروبه الحالك السَّواد.. وحدته.. وغربته.. وهيَ.

إلى يوم ميلاد السّنة الجديدة.. يومٌ يُرسم فيه الأمل، وتتجدَّد عليه

الأمـاني، تاريـخٌ يحتفل بـه كلّ البـشر، كلٌّ على طريقتـه، أمّا هـو فكان له يوماً رائعاً لم يسبق له مثيلاً.

– كل عـام وأنـت بخـير شَـوق.. أتمنَّى لـك النَّجاح والهـدوء في هذه السّنة الجديدة.

– أووه، ورد، شكراً لك.. وأنا أيضاً، أتمنّى لك أن تنعم بالخير.

– أيُّ خيرٍ شَوق؟ كلماتنا هذه لإرضاء أنفسنا لا أكثر.

– ورد.. تفاءل أرجوك.

– عندمـا أتفـاءل أخـسر كثـيراً.. وعندمـا أشـعر بالشـؤم، تـزداد ساعات النّواح ولكن الخسائر تأتي أقل..

أريد أن أحدِّثكِ بشيءٍ.

– على الرَّحب والسِّعة.. تفضَّل.

– أودُّ أن أبارك هذه السَّنة على شغف.. ما رأيكِ؟

– ولم لا تفعل، ورد؟

– لا أعرف رقم هاتفها.. هل تُعطيني إيَّاه؟

– بالطَّبع.. تفضَّل.

– شكراً جزيلاً شَوق.

«أعتـذر لعـدم اسـتئذانكِ بذلـك.. لكنَّنـي أودُّ أن أُبـارك لـك فقـط، وأتمنَّاه عاماً سعيداً بمشيئة الرّب»

ورد

أرسل لها رسالته تلك، وتمدّد على سريره الدَّافئ في ليلة باردة تُعلن انتصاف الشّتاء.. تسرَّب الدِّفء إلى قلبه، وأغلق عينيه مُطلقاً بداية حلمٍ كان الأجمل.. ما أرادته أفكاره، وما أراده خياله نفَّذته أحلامه بإتقانٍ.. وما أن لبست ثوبها راحلةً، إلا رنَّ هاتفه موقظاً إيَّاه.

اللَّحنُ الذي يُعلنُ وصول صوت من نُحبْ.. لحنٌ تأبى الذَّاكرة نسيانه ويأبى العقل إلا أن يحفظ طيَّاته الموسيقية في التَّلافيف.

– مرحباً ورد.. كيف حالك؟

– أهلاً شغف.. أنا الآن في قمَّة الحياة.. كنتُ أحلم بفتاةٍ أودُّ لو أُهديها الحياة.

– ورد، كلّ هذا في يوم كهذا شيء يفوق حدود الرَّوعة.. إذن لن أتمنَّى لكَ عاماً سعيداً.. لأنَّ السَّعادة أظنُّها ستملأ كلّ أيامك.

– أمَّا أنا، سأتمنَّى ألا تتخلَّ عني.

– الأمنيات لا تكفي ورد.. فقد تمنيت كثيراً ولم تتخلَّ أمنياتي عن عنادها.

– كأنَّك تحملين هماً جائراً على القلب؟

– هذا صحيح.. لكنّي لا أريد التَّحدث عنه.. لعلَّ هذا اليوم يُرعبه فيَنزاح عن صدري.

– كما تشائين.. أتمنّى لو أملك فرصةً أكون من خلالها صديقاً لك، فأعرف همّك الكبير هذا.. لأنَّني أحبُّ التَّواجد في ظروف

الحزن التي تُغيرُ على من أعرفهم.

– إن شاء الرَّب أن يمنحَكَ ذلك، فسيكون لكَ.

– سأُصلي له كثيراً ليحقّقها لي.

تحادثوا يومها كثيراً، حتَّى أصابهم النّعاس بالهلاك.. وجاء الصباح مجدَّداً في ولادة ليلة كانت الأشهى له.. واستثنائية لها.. أراد إخبارها أنَّها خير الصَّباح، لكن خجله وخوفه حالا دون ذلك.

أخبرها بحلمه في اليوم التَّالي.. أحسَّ بكتابه مُزيَّناً باسمها.. مُندمجاً معها.. فكانت الصَّفحات تردُّ عليه وتسمعه وتُحاكيه في أفكاره. والقلم يلهث خلف العبارات، ولا يلحق بجميعها.

قلمه وقلبه، كانا متشابهين في ذلك.. قلمه على الورق، وقلبه على الأرض. قلمه لا يلحق بالعبارات كلَّها، وقلبه رغم نشاطه لم يسبق له أن وجدها صدفةً في مكانٍ ما وإن رآها.. رآها عابرةً لا تراه رغم كلَّ ما فيه، ما كانت لترى شيئاً فيه.

كان يراقبها من بعيد، ويبتسم لوجودها، ولازدحام الأسئلة في داخله.

تُرى ماذا يوجد خلف وجهها الأبيض البريء هذا؟

ما رائحة صدرها؟

ماذا يشعر الرَّجل وهو يقبل يدَ امرأةٍ مُستحيلةٍ مثلها؟

أسئلةٌ كثيرةٌ لا مُجيب لها، والصَّمتُ الذي يَعمُّه في وجودها كان مُحيِّراً جدّاً.

هكذا الرَّجل، عندما يشعر بشيءٍ من الحب لا يقوى على الكلام فيصمت، وهو الذي لا يصمت سوى في حضرة امرأةٍ تشغله عن سواها.

– أعتذر عن تأخيري ورد، هل طال انتظارك لي؟

– لا يَهم، المهم أنّكِ هنا الآن.

– شكراً.

– لم أشأ أن أتركِ تجولين وحدَكِ هنا، تعرضين المعالجة المجانية للأطفال الفُقراء.

– صراحةً.. وأنا لم أحب أن أكون وحدي، انظر إنَّ المساء هنا مُرعِبٌ جدَّاً.

– سأبقى معكِ لتُنهي جولتكِ هذه.. ثمَّ نتناول العشاء معاً.

– فلنبدأ إذن.

جال معها لأكثر من ساعتين، يمشي خلفها يرقبها، وتجول عيناه على ما حولها صَامتاً لا يتحدَّث إلا في وقت الحاجة لذلك.. في كلّ بابٍ كانت تدقّه؛ كانت تُثيرُ فيهِ عواطفاً جديدة، يُعجِبه لُطفها الممزوج بلباقة الأطباء، ومع كلّ لمسةٍ تضعها على وجه طفل يقف أمامها، يجرُّه حنانٌ فائقٌ يتطاير من يديها ولؤلؤتيها.

تحت زخّات الغيث الخفيفة التي تُداعِبُ الأرواح، مع ضوء القمر الخافت المُتحدّي لِحُلْكَةِ اللّيل وظلامه. مشى معها يُؤنس وحدتها، وتُلهِب أحاسيسه عن غير قصد.. يفتح لها الطَّريق لتسير بأمانٍ،

وتُشعِره بدفئها رغم تجمّد أطرافه.

كان ملكاً بتاجٍ مصنوعٌ من جلدِ امرأةٍ، قيصراً في جيشٍ هو القائد له، والأحاسيس والعواطف والمشاعر والأفكار والأخْيلة جندٌ فيه..

كان رجلاً محبّاً للحياة.. محبَّة الأذن للصَّوت، محبَّة القبور للموت. فلا تفتح لأحدٍ غيره، ولا ترقص لأحدٍ سواه.

– أظنُّ أنَّ هذا المطعم جيداً للعشاء! ما رأيكَ ورد؟

– كما تريدين.

دخلا معاً.. يكتبان سطور اللِّقاء الأول الأعزل عن غيرهم.

– هل تعلمي شغف؟.. شعرت بقربنا كأشخاص عندما كنّا سابقاً مع شَوق وليل.. صراحةً كنتُ أشعر ببردٍ جارفٍ.. لكنِّي تحمَّلت ذلك، كي لا أغادر في حضورك.. أخبريني ما سرُّ الحزن الذي أراه في أعماق روحكِ.

– السَّبب هو جاد.

– ومن يكون جاد؟

– خطيبي.

جاءته حروفها تلك مجيء العاصفة الهوجاء التي تُردي الشّجر قتيلاً.. وتتركُ القمر يتيماً.. وتحوِّلُ الغيثَ من الخير إلى الإجرام.

هل يُهزم جيشٌ مدجَّجٌ بأسلحته أمام حروفٍ خمس؟..

هل يَعرف العالم أنَّ هناك كلماتٌ تَحسِم أمر المعارك؟..

هل عرف الهوى كلماتٍ لا تحكي عنه.. تهزُّ الكون كاملاً؟..

– ما بك ورد؟.. أين ذهبت بك أفكارك؟

– لا أبداً.. أحاول التَّوقّع فقط.. أخبريني بالتَّفاصيل إذا أردتِ.

– نعم أريد.. لعلَّ الكلام يريحني قليلاً..

أدخلتُه حياتي بغباء... فتاةٌ تهرب من ظلم عقل أبيها الجائر..

دافعتُ عنه أمام كلّ شيء، ووقفتُ بوجه أبي للمرَّة الأولى في حياتي لأجله.. كان رائعاً، وبعد مرور الوقت.. تأكّد أنّي لن أكون لغيره، فأصبح يتملّكني.. يحاسبني على كلِ شيء.. يُلغي وجود الذكورة في الحياة ويستثني نفسه.. ظهرت أنانيَّته بأحمق الصور، وباتت غِيرته المجنونة كحبلٍ مُلتفٍ حول عنقي يخنقني.. ويحجز الأنفاس.. فإن مرَّت.. مرَّت بسكب دمعٍ يروي رجولته.. وإن عجزت.. أموتُ أنا بنار هذا الرَّجل..

كنت أحبه كثيراً، واليوم أحبه قليلاً.. كنت أكره الرِّجال لأجل أبي.. ظننته مُنقذاً، فجاء صورةً عنه أكثر تشويهاً لي.. بل وزاد عليه شكاً بأخلاقي، وشهوةً بأنوثتي..

كيف لا يولد الحزن من رحمي.. وأنا امرأةٌ، إذا أطالت الحديث لصديق، أصبحت خائنة.. طبيبةٌ، إذا لامست يدها يد مريضها، أصبحت خائنة.. طفلةٌ، إذا ابتسمت لشاب وسيم يمرُّ بجانبها، أصبحت خائنة.. مخلصةٌ، إذا أخفت عنه تمادي رجلٍ سواه، أصبحت خائنة.. سيدةٌ، إذا زار خيالها صوت مغني تحبه، أصبحت خائنة.. وهو كل يوم، يتمادى بشكّه وظلمه وقسوته..

امـرأةٌ، تُلغيهـا الذُّكـورة بشـكلها العـام وداخلهـا الخـاص.. أنثـى تُـضرم النَّـار بأنوثتها، إذا أحبَّت مسـاعدة محتـاجٍ لعونها.. أو قالت شـيئاً يدور في رأسها..

اعـذرني ورد.. لكنّـي أكره الرِّجـال جميعاً.. ولو كانـت الأرض تعلم أنّ مثـل هـؤلاء الرجـال يعيشـون عليهـا؛ لالتفَّـت بوسـائدها وراحت تخنق نفسها..

الأنثـى في مثـل هذا العمر.. تحـبُّ رجلاً مولَعاً بها.. يمسّـد رأسـها.. يُلغـي أحزانهـا.. يولـدُ مـن شـفاهها.. يتقلَّد سـنارة يدها وهـو فخور.. يكتـب اسـمها بيده فيمـلأ آلاف السـطور.. رجـلاً يحميها مـن الخوف، يُبقيهـا بـلا خنوع.. رجـلٌ يقف أمـام الدنيـا يسـتعرُ غضباً يدافـع عنها؛ وهي تختبئ خلف ظهرهِ ويدفع عنها حماقة الدنيا وغبائها..

كيـف تريـدني أن أكـون.. وأنـا بين يـديّ رجلٍ يجعلنـي خائفـةً دائماً، خانعةً دائماً.. أفكّر فقط كيف أستعمل الكذب لألقط نفساً يُحييني..

كيـف سـأكون ورد؟ والرَّجـل الـذي أردتـه مُنقـذاً لي مما كنـت فيه.. يشـكّك بـكل ما أفعلـه، كما يـأكل ويـشرب وينـام.. حتَّى عندمـا أكون وفيةً لا يصدّق وفائي..

كيـف تريـدني أن أكـون؟ وأنـا في عينـيْ رجل يدَّعـي محبَّتـي والغيرة والخـوف عـليّ.. ولا يـرى صفائـي.. كلّ ما يهمُّـه أن يبقى مسـيطراً على حياتي، وقلبي، وعواطفي..

منـذ أن كتبـت له عهـداً ألا أتركـه ولا أحبُّ إلا هـو.. ليطمئن. غاب عني الأمان، يُريدني خادمةً له بلا رأيٍ ولا وجهة نظر ولا إرادة..

قـدَّم لي الفـرح لا أنكـر لـه ذلـك، لكنَّـه قـدَّم أضعافـاً مضاعفـةً مـن الحزن واليأس والدُّموع..

هذا هو سرّي.. هذا هو قدري.

أنهـت حديثهـا حائـرةً، كيف تُنهيـه؟! وانفجـر دمعهـا دون أن يقوى عـلى الخروج.. فجـاد، كان يقف في خيالهـا مُهدِّداً إيّاهـا بالانتقام الدّائم، منعها حتّى من البكاء في حضرة رجلٍ غيرهِ..

لم يكـن ورد يعـرف مـاذا يقول لها! هل يُهـوّن عليها مصابهـا، ويلملم أجـواف قلبـه ويرحـل، أم يقـدّم لها شـيئاً مـن الأمان الـذي منحَتـهُ إيّاه دون أن تدري.

– أنـتِ مـن أَدخَلـه، وأنتِ مـن تسـتطيعين إخراجه شـغف، فافتحي أبوابـك عـلى مصراعيهـا، وتحدّي الحيـاة ثانيـةً. ما تفعلينـه بروحك يعد حرامـاً في شريعـة الـرّب، لأنّ أرواحنا وديعـة منه في أجسـادنا، علينا أن نصونهـا بقـوة... أمـا أنا؛ فـلي شرفٌ كبيرٌ في الوقـوف إلى جانبـك، أتمنّى أن آخذ فرصتي منك، لعلّي أستطيع أن أكون شيئاً جميلاً.

– أتدري ورد.. أحببته أكثر مما يجب.

– ابتسمي الآن، أرجوك، وأكملي طعامك.

* * *

عـاد إلى كتابـه بعـد عشـاءٍ كان كـما النَّبيـذ في قلبـه وحشـوته. اطمأنَّ عليها أنَّها أصبحت في بيتها، وأخذ يكتب لها رسالة تُقرأ بشرط.

شغف..

مـن أصعـب المواقـف أن يضعَـكِ الحب عـلى أحـد رفوفـه لتتفرَّجي على من أحببته، وهو خالدٌ في حياته.. كلّ ما فيه يُقدّم لشخصٍ آخر.

ومـن المواقـف التي يسـتحيل عـلى البشر تحمّلهـا.. أن نقـدِّم للحبيب فرحتنـا، ونأْخـذ عنـه أحزانـه.. لِيذهـب هـو ويُقدّمهـا لغيرنـا. وبـكلّ بساطةٍ، تبقى أحزاننا في قلوبنا وتزداد ألماً.

لكـن الموقـف الـذي يهزُّ كيـان الرجولـة؛ أن يـرى رجلاً دمـع حبيبته ولا يَلْعَقُهُ ويَلْعَنهُ.

صحيـح أنَّـكِ لم تبكي أمامـي، لكنّي رأيتُ الدَّمع يتكـوَّن في عينيك.. رأيتـه خائفـاً مذعـوراً لا يريـد المغـادرة.. ولسـتُ ألومـه أبـداً.. فكيف يكون في عينيك ويغادرها؟.

أكتبُ إليك اليوم.. بدايةً لقصة حبٍ مستحيلةٍ.

لأقدِّم لك ما لم يقدِّمه رجل في السَّابق.. ولا أظن أنَّ هناك من يقدِّمه في المستقبل.. سأنزع الابتسامة من شفاهي وألصقها على شفتيك..

وأسـتأصل الحـزن مـن رحمـك، وأزرعـه في قلبـي.. فـإن نجحـت لا تغادريني، وإن فشـلت فسـأكون فخوراً بـشرف المحاولة التي لا يجرؤ على تحدّيها إنسانٌ عاقل.

رسالتي هذه ستصل إليك، إن كان لي نصيب في مقابلة الرب وأنتِ حاضرةً، أو مقابلة أبيك.

رغم معرفتي بأنَّكِ لن تكوني لي يوماً.. أريد أن أكون لأجلك ضحية.. لكن، غداً لا تكثري من الطَّعنات أرجوك ولا تقربي قلبي، فأنت فيه وأنا أخاف عليك. طعنةٌ واحدةٌ في الرأس تكفي لأموت وأكون شهيداً بكِ.

ماذا تفعل أيّها الرّجل؟..

سؤالٌ سيطرحه أيّ إنسان لرجلٍ يُضحِّي بنفسه لأجل امرأة يحبها.

سيعتبرونه النَّاس غبياً، ويهزؤون منه، ثم سيقفون على قبره ليذكّروه بنصائحهم..

كان يصمت وهم يتكلَّمون، فيعتبرون صمته قبولاً منه.. والحقيقة أنَّه لا يستطيع التّفسير.. فأشياءٌ كهذه لا تفسّر وإن استطاع التَّفسير لن يفهمه أحد..

لأنَّ من يفهم هذا القَدر من الحب، قد أماته حبُّه ومضى.

سيقفون على قبره، يُمثِّلون الحزن ويختلقون الدَّمع.. وهو ضاحكٌ يدرك أنّهم لا يفقهون شيئاً في الحياة؛ ولا يعرفون مدى جمال التَّضحية لأجل الحب.

وهو الحب كعادته..

كما يدخل الخمر جوف إنسانٍ فيسكره، ويحوله مجنوناً لا يدرك شيء

من حوله.. يدخل الحب قلب إنسانٍ فيجعله مجنوناً يدرك كلّ شيء..

فأيّ الجنونَين أجمل؟..

جنونٌ ترى فيه الحياة لا شكل لها ولا لون.. وجنونٌ يجعلك استثنائياً فيها، فتشعر أنّ الرب خلقك من طينةٍ لم يخلق منها سواك..

أيّ الجنونَين أحلى؟..

جنونٌ يَهابك النَّاس فيه، ويَجُلُّكَ من خاض معك معركة الحياة هذه، ولم يجرؤ على فعل ما فعلت.. أم جنونٌ يسلب منك مكانك في الحياة، فيجعلك على حافة الهاوية ثم يرديك على حافة الأقدام.

كانا دائماً على تواصل باختلاف النَّوع أو الطَّريقة.. فإن لم يلتقِ مسمعه بصوتها، جاءت كلماتها مكتوبة، يقرؤها بصمتٍ وحبٍ.. وإن غاب عنه كلّ شيء، شعر بروحها تؤمّن له المكان، وتملأ شراشفه بالحنان، فينام بهدوء، ويستيقظ بثقة النّار الآكلة لكل شيءٍ حولها..

أمَّا هي، تأتيها حروفه مؤنسةً لوحشتها، مخففةً لوجعها، مداويةً لغضبها على قَدَرِها الذي كوَّن نفسه بيديها، ثمَّ بَتَرَهُما وتركها لا تقوى على فعل شيء. يُطعِمُها علقماً، ويسقيها مَراراً..

في كلّ يوم، تتلقَّى ضربةً جديدةً بيمين الحياة. وعند المساء، تغرُّها ضحكتها، فتُصلي للرّب وتبدأ ببناء أملٍ جديدٍ تحت رحمة السّماء دون أن تدري، أنّ الحياة ستضربها مجدَّداً، وتهدم كلّ صرحٍ محمولٍ على أعمدة التَّفاؤل.

رجلها المنقذ لها، كان وسيلةً تتحكّم بها الحياة والقدر معاً، فيضربون به ويمسحون الدمع به.. هو النار والورد.. لكن، هل من وردةٍ تحيى بين أَكُفّ الجحيم؟

هو الأبيض والأسود.. وأيُّ أبيضٍ يبقى بياضه إذا هاجمه السَّواد؟

الأبيض لدى الأنوثة يطغى، والأسود إذا سال منها يوماً أصله أبيض، أمَّا في الذكورة؛ يطغى السَّواد الذي لا يمكن أن يكون أصله أبيضاً..

هكذا هو اتّفاق الحياة مع الحب.

كيف لامرأةٍ بكل هذا اللّطف، بكل هذه الرّوعة، امرأةٌ وقف إبريل أمامها حائراً، امرأةٌ كلحنٍ فريدٍ تقوله أوتار عود. كيف للجحيم يحرقها؟! والسَّواد يعمُّها، والحزن يُلغي تفاصيلها، والدَّمع يُذهب بكُحْلِها أدراج الرياح.

هكذا هم الخاضعون لاتفاقيات الحياة والحب.

النّار والثّلج؛ معادلة مستحيلة حسب قوانين الفيزياء.. لكنَّها المعادلة الأكثر حدوثاً في العشق..

يقول آباؤنا: إنَّ زمن المعجزات قد ولَّى. لكنَّهم لا يُدركون إعجاز الإنسان المحب. وحتى نحن؛ نخوض الحب وننتهي منه وأحياناً ننتهي معه، أو عليه، ولا ندرك إعجازه إلا بعد رحيله عنَّا..

وحده الرب المبدع في خلْقه يعرف السر.. إنسانٌ عاديٌ جداً في

تكوينه، لا يملك يداً أو قدماً أو عيناً ثالثة.. لكنّه يملك ما لا يملكه سواه أو زملاؤه في ما مَلَكْ..

حين يتحوّل برد الشّتاء إلى حرارة الشّمس.. فاعلم أنّ من حوَّلها هو الحب.. ومن تحوّلت فيه هو عاشق.. بدون أن تسأل عن ذلك حتّى..

عندما يكون لكل المصائب حلاً واحداً فقط.. هو الخلود لصدر امرأةٍ نحبّها، فاعلم أنَّ الحب هو من هوَّنَ تلك المصائب.. وأنَّ هناك عاشقاً قد هانت عليه مصائبه..

ليس لديه عيناً ثالثةً.. لكنَّ عينيه ترى ما لا نراه نحن.. ويداه تحسّان ما لا نحسّه نحن!.

– ماذا أفعل ورد؟.. كل يوم أزداد يأساً وموتاً منه.. ماذا أفعل؟

– ابحثي عن حياةٍ لا وجود له فيها. واهدئي أرجوكِ.. ابحثي عن حياةٍ لا يوجد فيها شيئاً تكرهينه، حتى لو كان هذا الشّيء هو الرجل.

– كيف لا يكون موجوداً في كل شيء؟.. وقد سوَّى كرامتي في الحضيض، وجعل من دمعي بحراً يشرب منه ليسكر ويتلذَّذ.. ومع كل كأسٍ ينقص منه يلجأ إليّ أملأ له أقداحاً لا تنتهي.

– لم تدعي لي شيئاً أقوله.. فأنتِ تعرفين البداية أكثر، وتتجاهلين الحل أكثر، لا تقبلي ولا تخنعي، فامرأةٌ بلا كرامة كالكلمات بلا معنى، كأجساد منزوعة الروح.

– سـأدعو لـكِ كثـيراً.. ابتسـمي أرجـوكِ.. فأنـا لازلـتُ هنـا.. أريد ثغرك مبتسماً.

– سـأحاول ذلـك، دعنـي أُعرِّفـكَ: صديقتـي جَـوى، تقطـن معـي في منزلي.

– أهلاً جَوى.

– أهلاً بك ورد.

– جميلٌ أن ألتقيكِ..

– لعلّي أطمَئِنُّ على شغف بوجود صدر قريب منها.

– أحـاول اسـتطاعتي أن أخفّـف مـن رَوعهـا.. لكـن ما يحـدث أمراً يصعبُ تحمُّله.

– أعلم ذلك.. وليس بوسعنا أن نفعل أكثر مما نفعل..

– هـي التـي يتوجَّـب عليهـا أن تقـاوم، وتحمـي كرامتهـا، وتصـون أنوثتها من بطش هذا الرجل الأحمق.

– فعلاً.. أنتِ على حق.

– شـغف، أرجـوك سـأطلب لـك شـيئاً تأكُلينـه.. فلـم تـأكُلي شـيئاً منذ الصَّباح.

– اعذرني.. وتناول غداءك أنتَ وجَوى.

– لا.. لـن أسـمح لـكِ بذلـك.. ولا جَـوى سـتقبل بذلـك أيضـاً.. أليس كذلك جَوى؟

– نعم شغف.. دعينا نأكل سوية.. لن ندعكِ هكذا.

– هيّا شغف.. اقبلي أرجوكِ.

هـزَّت برأسِـها هزَّة الإيجـاب.. وفَـرِحَ بقبولها فرحـةً عارمـةً، كأنَّه أمٌ تطعمُ ابناً لها كان غائباً..

لم تكـن فرحتـه خوفاً عليها فقـط.. بل كانـت خوفاً على نفسـه أيضاً، كأنَّ طعامه لا يكون له طعم إلا بوجودها..

سنغادر نحن الآن.. هل ستبقى هنا؟

نعم أنا باقٍ.. اعتنيا بنفسِكُما..

جَـوى أرجـوك كـوني معها دائـماً.. لا تتركيهـا وحدهـا.. واتَّصلي بي إذا احتجتما لشيء ما.

لا تفكِّر كثيراً.. سأكون كذلك.

* * *

جلـس في ركنـه يقلب صفحـات كتابه.. وعنـد وصولـه إلى الصّفحة الأخيرة، استعاد قلمه النّشاط، وبدأ يكتب مجدَّداً..

– أتعلمـين؟.. أنّ دمعـكِ نزل كالسَّـكاكين في خـاصرتي.. لا تدمعي أرجـوكِ بعـد الآن، وإذا اضطـر بـكِ الأمـر أخـبري عينـيْ لتبكـي دهراً بدلاً من عينيك..

ليس لي طاقة لأحتمل كل عنف العيون، لازلتُ صغيراً على كلّ هذا.

– أشكرك ورد على ما تفعله لأجلي.

– لا تشكريني صديقتي فإنّي أقدِّم واجباً علَّمتني الحياة تقديمه.

– وماذا علَّمَتكَ أيضاً؟

علمتني ألا أسكت عن كلماتٍ تدور في قلبي.. علَّمتني أنْ أجعل من يجلس أمامي في واقعه، ولا أتركه سارحاً في ظنونه.

– جميلةٌ هذه الدّروس.

– هنالك دروسٌ أجملُ منها، عليك تعلُّمها جيداً لتغيّري ما أنتِ فيه.

– علّمني.. فأنا أحتاج لك.

– أحبُّ أنْ أكون لكِ كتاباً لا مُعلِّماً.

– لماذا؟

– لكي تمسكي بي جيداً.. وتتابعي أدق التَّفاصيل.

– أحببتُ ذلك.

ابتسامةٌ واحدةٌ في وجه متألّم تُريحه قليلاً.. فكيف بإنسانٍ يكون كتاباً في يدي فتاة يحبّها.. ليُخفِّف عنها ويزيد نفسه ألماً..

أتقبل الذّكورة بذلك؟..

أليس كثيراً يا سيدي، أنْ تتخلّى عن إنسانيتك لتكون جماداً في يدِ فتاة لا تعرف أصلاً بأنّك تحبها؟

كلّ من يقرأ أمنيتك سيضحك ويظنُكَ غَبيّاً. وعليك أنتَ أنْ تضحك أيضاً، لأنّه لا يفقه منكَ شيئاً.. ولو فكّر قليلاً، لاكتشف أنَّها التّضحية في أسمى صورها يقودها الجنون..

مزيجٌ، لن يجد له تفسيراً أكثر الكيميائيين حداثةً وخبرةً..

تداخل الجنون والتعقّل..

أن تكـون واعيـاً حكيماً، سـيُفيدُك العقل في سـياق أحـداث حياتك.. ويقيـك مـن معظـم ضرباتهـا.. فيأتيك مـدح الآبـاء وتمجيـد الأجداد.. وتكون مثل أيّ قُدوة ناجحة رأيتها أو عرفتَ بها..

لكـن الجنـون لـن يفيـدك بـشيء، بـل سـتضاعف عثراتـك، وتَقَبُـل ضربـات حياتيـة كثـيرة، ولـن تقـف عـلى قدميـك إلا لتقع مـرَّة أخرى، فيـضرب بـك الآبـاء عـرض الحائـط، ويـضرب بـك الشـباب المثـل، وعندما تتذكَّر لذَّة جنونك يهون كل شيء..

فالقرارُ المجنونْ يُسعد الإنسان.. ويجعله أكثر ثقةً بنفسه.

– أراكِ مهمومة اليوم.. ما بكِ؟

– كعادتي وعادته.. سبب تعاستي المنشودة دائماً.. يحظر عني كلّ شيء.

وهـو لا يـدري أنَّ السَّلاسـل تجعـل الإنسـان يثـور.. وفي الثـورة لن أبتغي سوى الخلاص.

– أرجـوكِ، انتبهـي لنفسـك جيـداً.. لا تدعي الموت يغتـال روحك، قبـل أن يطلبهـا الـرَّب.. رائـعٌ حديثـكِ عن الثّـورة فثوري عـلى الحياة.. ثورةٌ لا يهاب قائدها شيئاً ولا يتراجع أبداً.

– سأصل يوماً إلى الثَّورة.. وهو من سيوصلني إليها.

– أتمنّى ذلك.

- بماذا تفكّر؟

- أنا أيضاً متعب الفؤاد.. روحي تأبى مفارقة جراحها ووحدتها..

تنأى عن البشر بما هو جماد، لتصنع منه روحاً لا تعرف سوى الوفاء، والإخلاص والحب.

- جميلٌ هو هذا الخيال.

- سأخرج اليوم إلى المطعم المجاور.. أتأتين معي؟

- لا أعرف حتماً ما سأفعله!

- سأتّصلُ بكِ حينها.

* * *

الثورة ضدّ القيود الإنسانية، تجابه الثورة ضدّ القيود العسكرية وتزيد أحياناً..

الرجال مُحزنون كما هم بعض النِّساء، تخدعهم أفكارهم، يظنون أنَّهم إذا رفعوا أسوار التّملُّك لن يدخل عليهم أحد، ثمَّ يُفاجؤون بتهدمها عن بكرة أبيها.

إنَّ من سَاهَم في بناء الأسوار هذه، أو كان طرفاً خارجها أو داخلها، يُتقن نقاط ضعفها، ولن تصمد هي أمام ضرباته..

والأسوار التي لا تملك أساساً متيناً حين ترتفع ساقها، تنهار وحدها.

هكذا هو قانون البناء في الهندسة.

- ألو شغف!.. هل تسمعينني؟

– نعم ورد أسمعكَ.

– ما بكِ؟.. لماذا تبكين؟

– لا شيء.. شجارٌ بسيطٌ، وبعضُ دعساته الجديدة على كرامتي ووجداني تؤلمني.

– أخبريني ماذا جرى؟!

– لا أرجوك.. لا أريد الحديث الآن.

– شغف.. لا يُمكنني أن أدعكِ هكذا.. أرجوك لا تبكي.. أرجوكِ.

– وماذا بوسعي أن أفعل؟ سأهدأ لا تقلق.

– كيف لا أقلق.. وأنتِ مُنهارةٌ أمامي؟

كيف يتركها ودمعها يهطل أبهره لِيعلن الحداد في كلّ أنحاء جسده؟ وهو الطّبيب الذي يُداوي دمع من يُحبهم بالمرح..

بعض الدّقائق، وهي على مسمعه كانت كافية لِيسحب الدّمع نفسه عائداً أدراجه من جسدهِ إلى عينيها إلى مخازنه.

– لن تبكي بعد الآن، وأنا موجود.

– إن شاء الرب.

– عِديني بذلك.

– أعدكَ.

– أخبريني كلّما شعرتِ بالحزن، اذكريني في كلّ وقتٍ تحتاجين فيه لأحد..

– أحب أن أكونَ معك.

– نعم.. سأتَّصلُ بكَ حينها.. ما هذه الأصوات حولكَ كأنَّكَ في الخارج؟

– لستُ في منزلي.. فهو لا يصلح سوى للنّوم.. أقضي وقتي في مقاهي المدينة.

– إذاً لا تتأخَّر.

– سأحاول ذلك..

– وأنتِ انتبهي لنفسكِ جيداً.. سأتصلُ بكِ في اللّيل لأطمئنّ عليكِ.

– حسناً.. انتبه لنفسكَ.

* * *

ماذا تفعل أيُّها الرّجل؟

أتمسح دمع عينٍ تذهب لغيركَ، يتغزّلُ بها ثم يُرديها باكيةً؟

ويبقى حبَّكَ المنشودُ على الورق؟

لن ألومك كثيراً، لأنَّ العاشق يَبُرُّهْ الحب.. والحب قاتلٌ محترفٌ، عندما يُبارز العقل بسيوف القلب، فإن انتصر، تخسر الروح ألماً وهجراناً بعدَ حين، وإن كُسر وأدماه العَقل، فيكون العقل قد أدمى فؤاده، فيموت العقل، ويموت القلب، ويموت فيهما الحب، وتتشرَّد الروح.

– كيف أصبح حالك الآن؟

– أحمد الرب.

- أراكِ أفضل؟
- صحيح.. والفَضل يعودُ لكَ.
- لا.. هذا فضل هدايا الرَّب الرَّحيمة.
- صدق القائل.. فهو يُبليك ويُعينك في وقتٍ واحد.
- عدتُ باكراً تنفيذاً لرغبتِكِ.. وسأنام الآن.
- شكراً لكَ.. شكراً جزيلاً..

وأنا سأنام أيضاً بعد اطمئناني بكَ وعليكَ.

- أراكِ غداً.

* * *

- شغف.. صباح الخير.
- أهلاً ورد.. صباحك.
- كيف حالكِ اليوم؟
- كما تراني.. أبتسم لأُخفي ما في داخلي.
- كلّنا نخفي ما في داخلنا، ونتظاهر بالفرح. لكنَّ الممثل البارع هو الذي يجعل هذا الفرح الكاذب يَطغى على الحزن.
- نعم هذا صحيح.
- وكيف حاله هو؟
- لا أدري.. لم يهاتفني اليوم.

– هذا أفضل.

– سأدخل إلى البهو.. هل تدخل معي أم ستبقى هنا؟

– سأدخلُ معكِ.

– هيَّا بنا.

هكـذا كانـت الأيـام تمضي بينهـما، يُخفـي مـا في دَاخِلِه، ويحمـل ما في داخلها معها..

يعيـش أيامـه بين الجامعـة ودمعها.. مُهمِـلاً لكلّ واجباتِـهِ الأخرى.. حتّـى زمـلاءه في الدِّراسـة جَعَلتهم خـارج إطـار اهتمامه، فـلا يَرونَه إلا مَعهـا، خلفهـا، أمامهـا، أو بجوارِهـا، حتّـى عاثـت ألسـنتهم كلامـاً لا يُمكنُ لأحدٍ تحمّل معناه.

بضعـة أسـابيع... وجاءت تطلـب منه أن يبتعـد عنها أمـام نظراتهم، كانـا يلجـآن إلى جَـوى لتكـونَ مَعَهم خَنجـراً في بطـن كلِّ لِسـانٍ تحدَّثَ عنهما بسوءٍ..

لكـنَّ أيَّامـه، كانـت جميلـةً بحضورِهـا.. مدهشـةً برونَقِهـا.. أنيقةً في ظلِّ شَالها.

– سأصلُ إليكِ بعد قليل.. كما اتفقنا.

– أنتظرُكِ.

– أتعلمين شغف؟

– ماذا؟

– لستِ وحدَكِ تملكين ما يجعلك يائسة ومُحبطةٌ دَائماً.

– ماذا تقصد؟

– كما قُلتُ لكِ.. أنا أيضاً أشعر بألمٍ دائمٍ في قلبي.. لا ينام ولا يغيب.

– هل أنت جاد؟

– لا.. أنا ورد!

– هاهاهاها.. أين سنجلس؟

– هناك.

– كان الطَّريق مُعتماً جدَّاً.. لا أعرف كيف سأعود.. أخافُ الظَّلام.

– هاهاها.

– لماذا تَضحك؟

– من يملكُ وجهاً مثلَ وجهك، على الظَّلام أن يهربَ أمَامَه.

– أخجلتَني.

– لا تخجلي.

– لِمَ لا؟

– لأنّه في حضوري يهرب أيضاً.

– ما هذا الغرور؟

– لو فكّرتِ به بشكلٍ عَملي.. لعرفتِ سَببهُ بسرعةٍ.

– مممممم.. أخبرني أنت؟

– ببساطة.. سأوصلك إلى بابِ منزلكِ.. ولن أَدَعَكِ تخافين!.

– هاهاهاها.. أكمِل حَديثك.

– ممم.. وسأفكِّر في الهروب.. إذا ما دعوتني لفنجانِ سُكر.

– هههه.. أقصد حديثاً آخر.

– آه.. نعم.

– ما سبب ألمكَ هذا؟

– أوه.. أسبابُهُ كثيرةٌ.. ولا أعرف أيّ منها هو الحقيقي.

– مثل ماذا؟

– في صغري ترعرعت في بيتٍ رَبّه حكيمٌ هادئٌ.. وربَّتُه حنونةٌ جبَّارةٌ لا تعرف الاستسلام لشيء، لكنَّ الحياة شغلتهم عني، أشعر أحياناً أنَّني جئت إليهما بعد ما ملا الأبناء.. رغم أنَّهما لا يملكان الكثير منهم. سبب شعوري هذا، هو هدوء أبي أكثر من انشغاله، رغم أنَّه كان يَنشغِل كثيراً ليجلب لنا ما حُرمَ منه في صِغرهِ.. وإرادة أمي في القيام بكلّ واجباتِها..

أعرف أنَّهما يُحبونني كثيراً.. وأبادِلهما الحبَّ عِشقاً.. لكنَّ الحياة تسرق منَّا كلّ ما هو جميل..

بدأتُ أرتّب شخصيَّتي وحدي بيدي وعيني وأفكاري. كنتُ أعيش في جداول الخيال.. عرفتُ أنَّ هناك أشياء جميلة وأخرى قبيحة..

كـما يوجـد الشـتاء والصَّيـف، إلا أنَّها تلتقـي أحياناً في المكان نفسـه.. كما تخترق أشعّة الشَّمس ظَهر قطرة الغَيث..

وبعـد نضـوج أفـكاري فوجئت بخطـإٍ فـادحٍ.. كان خطئـي الوحيد لكنَّه المدمّر.

- ما هو هذا الخطأ؟

- تخيّلتُ الجمالَ فقط.. ولم أتطرَّق في خيالي لأيِّ شيءٍ قبيحٍ.

- ومن يتخلّى عن خيالٍ قبيح يكونُ مُخطِئاً؟

- نعم..

لأنَّنـي عندمـا قَرعتُ جَـرَس الحياة.. وجـدتُ أَغلَبهَا قُبحاً، باسـتثناء بعض الجمال المختَبِئ.

أيْ أنَّ الواقـع كان عَكـس الخيـال تمامـاً. وهنـا بدأتُ في الـصِّراع مع الحياة، ليس لأجلِ المستقبل فيها كما يفعل الشبّان عادةً..

بـل لأجـل الحـاضر؛ لأُدافع عـن رأسي بما يحوي مـن أفـكار، وأخْيلة وأحـلام. وهـي تطعنني بواقعهـا. لم أكـن أجـد أحـد يُـواسي آهَ... الطَّعنات هذه..

كنـتُ قليـل الـكلام، لا أتكلّـم إلا في الـضَّرورة أو الفُكاهـة على حدٍ سواء.. حتّى ظنَّ من حولي بأنَّني قليلَ الأفكار..

لكنَّنـي كنـت أدرك بـأنَّ كلـماتي سـوف تُجابـه بغضبهم الشَّـديد، ولن يفهمهـا أحـد أو يهتـم بهـا. لا أبي ولا أمـي ولا إخـوتي، وهـؤلاء هـم

منطلق كل شيء في هذه الدُّنيا..

الـكلّ معـذورٌ في ذلك، ربـما هذا فـرق الأجيال عن بعضهـا، والخبرة الحياتية بالطَّبع تلعب دوراً كبيراً..

فكنتُ أمسـكُ بقلبي مسـك الرَّسام بريشـته، وأكتب على ورقٍ أخفيه تحـت ملابسي، كنت أخـاف أن يقرأه أحـد، حتَّى أصبح الحـرف صديقاً عزيزاً على قلبي كما هي كأسي السَّوداء هذه.

أتدري... عندما دخلتُ بصحبة أبي إلى مدرستي الإعدادية، وتركني هناك في قاعة الدّرس وحدي ورحل، بكيت كثيراً، ولم أكن أعرف، أنَّني سأدخل قاعاتٍ أخرى أكبر منها كثيراً، ولن يكون بصحبتي أحد.. وعندما دخلت بهو الجامعة، ضحكت على دمعي السابق كثيراً..

صفعنـي أبي ثـلاث مـراتٍ، وفي كلّ مـرَّة كانَ يُعلِّمني درسـاً، وكنتُ أريد أن أقولَ له شيئاً ولم أستطع.

الأولى؛ عندمـا لجـأت إلى بيـت قريـبٍ لنـا، بـدل الذهـاب إلى مدرسـتي الابتدائيـة، لكنّـه لم يـدرِ أنَّ المدرِّسـة كانـت تدخـل علينـا دخول الجزّار إلى مسلخِه..

والثَّانيـة؛ عندمـا لحقـت بأحـد أطفـال العائلـة، أريـد سـحبه قبل أن يغـرق في الرِّمـال المتحركـة؛ كان عزيـزاً فلـم أسـتطع الوقـوف دون أن أُقـدِّم المسـاعدة.. كنـت واثقـاً بنفـسي، حـدَّ أنَّ الرَّمـل لـن يُغرقنـي كـما فعل مع ذلك الطّفل.

والثَّالثة؛ درساً في ذاكرتي لن أنساه.. على قَدْرِ سذاجة الأطفال تأتي معالم الحياة مؤلمة..

لازلتُ أكتبُ حتَّى اليوم.. ولا أحد يقرأ ما أكتبه. كأنَّ فعل الكتابة صار فعل قتلٍ وتخليدٍ وانتحار.

وكيف يجتمع القتل والانتحار والتَّخليد سويَّةً؟

عندما نكتب على الورق أشياءنا الغامضة، والتي لا نقولها.. نقومُ بفعل الانتحار..

ويقول الفلاسفة، أنَّنا عندما نكتب عن أحدٍ.. ننتهي منه. أمَّا أنا أرى ذلك تخليداً أيضاً.

- والقتل؟

- وأمَّا القتل يا عزيزتي؛ فهي مهنة القلم واللِّسان معاً. فالحرف عندما يُقال يموت.. وعندما يُكتَب يُدفَن.. لا تشغلي نفسك بمتاهة مثل هذه.

- لا، أظنّها أفكارٌ جميلةٌ.. بل وممتعةٌ أيضاً.

- وجهها جميلٌ حقَّاً.

- ماذا تعني؟

- هي جميلةٌ بلا تعمُّق.

- لماذا؟

- لأنَّ الدُّخول إلى العمق يعني الغرق!.

- انتبه لنفسكَ كي لا تغرق إذاً.

- سأنتَبه.. لكنّي غرقت، وانتهى الأمر.

- وفيمَ غرقتْ؟

- بكل التَّفاصيل!

ابتسمت له، وهزَّ برأسه مُغتصباً للحديث، هارباً من تعمُّقها في أسئلةٍ ربّما يُربكه جوابها.

و كعادته؛ كانت الكلمات التي يقولها بغير مناسبةٍ هي الأصدق والأدق والأعمق لديه.. فالتَّفاصيل التي سكت بُعيد ذكرها، قدَّمها شيئاً وقصد بها شيئاً آخر..

ثمَّ عاد إلى كتابه، يوضح له الحقيقة التي ما استطاع ذكرها:

أنتِ.. ثلاثة حروف فقط.. أختصر بها كلّ التّفاصيل التي أغرقتني..

تفاصيل أفعالك.. هي التَّفاصيل التي أردت التَّعمُّق بها.. والولادة من خلالها.. لأكون رجلاً استثنائياً ولدته أمه طفلاً، وولدته حبيبته عاشقاً..

عيناك الغجريتان الحزينتان تستحقّ الحب بأعلى درجاته.. وشالك الملتفّ حولَ عنقك، كما يلتفّ الثّلج حول جبلٍ فيجعله مُدهشاً ناصعاً مُنيراً.

يَداكِ النَّاعمة.. وجنتاكِ الخجولة.. معطفك الأسود.. كلُّ هذه التَّفاصيل هي حقاً التَّفاصيل التي أودّ أنْ أغرق بها..

أتمنّى لو أدخل إليكِ.. أجول فيكِ.. أبقى لديكِ.. أتنفَّسُ

برئتيكِ.. أتألّم عنكِ.. وتبكين أنتِ في عيوني..

سأكون سخريةً في وجهة نظر الكبار.. أعي ذلك تماماً، لكنّي سأكونُ بطلاً في عينيّ كل امرأةٍ عرفتني وعرفت قصتكِ. وربما تأتي إليَّ أمسح دمعها، بل وأبكي رحمةً بعينيها..

انتبهي لنفسِكِ جيداً.. ولقلبِكِ جيداً أيضاً.

وإنْ قرأتِ كتابي هذا في يومٍ ما.. فتذكَّري شيئين..

الأول؛ أنَّكِ ستكملين حياتَكِ بقلبين..

والثَّاني؛ أنَّ الحروف تدفن عندما تكتب، فلا تحاولين انتشال جثث كلماتي، كي لا تؤلمك، ولا تفضح ألمي فتشعرك بالذَّنب.

* * *

رسالة واردة.. شغف..

«ورد أرجوك.. لا تتَّصل بي أو تحادثني في الأيام القليلة القادمة، حتى أعاود الاتّصال بكَ مُجَدَّداً، فقد علمت أنَّ جاد على أبواب المدينة».

قرأ رسالتها مرَّاتٍ ومرَّات..

مذهولاً جامداً لا تحرِّك أطراف جسده.. وفي داخله.. أعلن الألم نفيراً عامّاً.. ليبدأ حرباً ضدَّ كل قطعات الفرح والسعادة.. مُجهزاً بعتادٍ ضخمٍ من الأسئلة المُميتة، والأفكار القاتلة..

ها سيحتضنها عند وصوله؟

أم ستهرب منه؟

سيقبّل خدَّها وشفتيها؟

أم ستبتعد عنه؟

سيبقى معها لأيام؟

وأنا!! ماذا عني؟

ستقدِّم له فروض الطَّاعة الشَّرقية.. وتتظاهر بالحب تمثيلاً إنْ لم يكن حقيقياً..

سيمنحها وقتاً، لينهي ما تبقَّى من كرامتها وأنوثتها؟

وأنا!!.. ماذا سأفعل؟

جملة صغيرة فقط كان قلبه يردّدها..

«شغف أرجوك لا تغيبي».

قالها ولم تسمعه.. ناداها ولم تأتِ إليه.. هي إذاً في حضرة رجلٍ آخر..

ستنسى الوتر، الذي عُزفت عليه أنقى نغمات الموسيقى، فأشفى روحها، وأشبع قلبها، وأخمد جراحها حتَّى بلغت آهاته حدود السَّماء.. وغلى دَمه كما تمنَّاه.. لكنَّ عينيها لم تكن حاضرةً في غليانه.

الأكثر صعوبةً؛ أن تحب ما ليس لك.. ليصير قلبك خشبة مسرح تُعرَض عليها أعظم المشاهِد بالوقوف عليه والمشي فوقه، وضربه في أوقات الرَّقص..

فتدخل في صراعٍ مدمّرٍ بين الحب والموت.. ليموت الحب أمام صفعات القدر المُدمية..

ويُحَبَّبُ الموت في غيابِ من هم بين تعداد النَّبضات.

شغف..

لا أعرف ماذا أقول لك.. لا أملك الحقَّ في منعك عنه أو إلقاء الأوامر عليك..

وليس على شفاهي سوى كلماتٍ، لا يمكن أنْ أقولها بصوتٍ عالٍ.. لكنّها الحديث الوحيد المفضّل الذي تتكلّم به أحشائي..

هذا الصَّباح الأول الذي لا أراك فيه.. ولا أخرج من بيتي متوجّهاً إليك عمداً أو بحثاً.. ولا أسمع همساتك إلا في أحضان الخيال..

أشعر بخوفٍ شديدٍ.. وحزنٍ فائق الوصف.. كأنَّ النار قد بدأت التهامي.. والحّب يُريدني شهيداً تزيّنني جراحه

شغف.. أرجوكِ لا تكوني شمساً حارقة بعد أنْ عرفتك شمساً مُنيرة.

من أصعب اللَّحظات أيضاً التي تمرُّ على قلب عاشق.. هي لحظة معرفته أنَّ الذي يحبّه يطير بأجنحة قلبٍ آخر.. في مكانٍ معروفٍ تصله العيون..

حينها يبدأ بالتَّمزّق.. وينقلب بركاناً تخرج منه النَّار، بدل الدَّم وتسري في الأوعية تحرقها.. وتصل الأجزاء تلظّيها ثم تعود سوداء محمَّلةً بالرَّماد.. لتصبَّ نفسها في بركان القلب..

حتَّى يصبح أسوداً لا تراه رحمة الحب.. ولا تُشفِق عليه الأقدار..

مثل هذه القلوب، لا تُطفئها سيول الدَّمع مهما بلغ كبْرها..

مثل هذه القلوب، لا تساويها كلمات الشِّفاه مهما عَظُمَ معناها..

مثل هذه القلوب، حتَّى لو لم ترحل لا يعوَّض خُسرانها..

كان يخرج كلّ يومٍ إلى شوارع المدينة لتواسيه، فيصدم في كل مرَّة إذ هي تساويه في ألمها..

حائرةٌ تبكي على وردةٍ أدماها شوك من حولها، ففقدت بريقها وشذاها، أم تنوح على رجلٍ أشقاهُ الحب، وأذلَّته الوحدة، وعاثت به الكآبة كما الأعداء..

كانت عيناه في غفلةٍ منه تسرق صورتها.. مُلصقةً إيَّاها على وجوه كلّ النِّساء اللّواتي يُصادفهن في طريقه..

أنْ تغدو امرأة واحدة في حجم العالم كلّه.. هذا هو الحب، فعلٌ سامي نقوم به يُغيِّر ما نحمله في داخلنا، وهو في ذات الوقت فعلٌ حقير يُدمّر غيره، أو ما لم تطله رياح التَّغيير داخل نفوسنا..

تماماً كما نظنُّ أنَّ إهداء الفرح هو شيءٌ جميلٌ، وننسى سكن الحزن في ثناياه وتضاريسه.

ماذا لو رحلت المرأة التي نحب؟ التي كانت لنا بيتاً، ومدينةً، ووطناً، وعالماً..

التي ألغت وجود الأنوثة في حياتنا، مستثنية نفسها فقط من الإلغاء..

ماذا لو قرَّرت القيام برحلة جديدة في حياتها، وتجاهلت الرحلة التي حملت أسماءنا تحت عنوان: هو العمر؟

أليس من الواجب يا سيدي أن تُفكِّر في ذلك؟

أن تضع احتمال الموت، حتَّى وإن ألغى لك حبّك الأعمى احتمال الرَّحيل..

أيُّها العاشق.. أيَّتها العاشقة.. فكِّروا دائماً بما بعد العشق.. بعد الغرام.. بعد الهيام.. بعد التيُّم.. ماذا عن الأيام بعد كلّ درجات الحب وأقصاها؟

يا سيدي.. قد كتبت عنك وعنها.. اثنين في قصة طويلة من الحب.. ونسيت إخبارك أنَّك هنا وحدك تشكِّل طرفاً واحداً، وتلعب دوراً استثنائياً، وحبيبتك التي تدَّعي تعبدها الأفكار وترجوها المدامع وترسمها الأحبار وينفيها الواقع.

شغف..

أكتب إليكِ بعد اليوم الرابع لغيابكِ عني.. لأسألكِ سؤالاً واحداً فقط..

ليس عن ما فعلتموه سويةً.. ولا عن الأماكن التي ذهبتم إليها سويةً، ولا عن أيّ شيء تفكرين به الآن.. أريد أن أعرف فقط متى ينتهي ليلي الذي لازمني طوال الأشهر الأربعة.. طوال السنين الأربعة.. التي ما أشرقت شمسها منذ غيابكِ عني..

عندما مشيتُ في شوارع البلدة، أحسستها حزينة لأجلكِ، تخافُ عليكِ، كانت توأماً حقيقياً في الإحساس معي.

أتمنّى أن تكوني بخير.

لمَ تكتب يا سيدي؟ لمَ تكتب لها وأنت القائل أنَّ مهنة القلم هي القتل، والحروف تُدفن عندما تُكتب.. أم أنَّك تتوقَّع من أحدٍ فتح مقابر الأبجدية؟

أتدري؟ عندما أكتب إليكِ أشعر براحةٍ ما في أنحاء بدني، ربما لأنّي أكتب بلا خوفٍ، ولا محاسبةٍ، خاصَّةً في غياب قارئ هذه الكلمات، وانقراض العقول التي تفهم معانيها، فالقراءة وحدها لا تكفي يا عزيزتي.

* * *

رسالةٌ واردةٌ.. شغف..

«صباح الخير ورد..

أتمنّى أن تكون بخير..

لا يزال جاد هنا.. لكن أحببتُ أن أطمئنَّ عليكَ فقط.

ما كنت أتوقَّع أن أفتقدكَ إلى هذا الحد.. للغياب أثرٌ كبيرٌ..

أنتظر رحيله لأكونَ بخير.

انتبه لنفسك ورد».

سأحاول.

سأحاول، ولكن كيف أنتبه لنفسي وأنتِ لستِ هنا.. لا تملئين العيون بدمع فرحة اللِّقاء.. ولا تسمعين نبضاً يُنادي باسمكِ.. كيف

يُمكنني أن أستغني عن كلّ النساء اللّواتي عرفتهنَّ في حياتي.. لتبقي أنتِ وحيدةً.. بعيدةً.. وأبقى أنا وحيداً خلف قضبان العُزلة والحب..

ما كنت لأنتبه على نفسي جيداً.. لو أنَّكِ لم تكوني حاضرةً مُلغيةً ما قبلك.. وساكنة في أُمنيات مستقبلٍ غامض المعالم.. مُخيف الوقائع..

ماذا تَراني أفعل يا شغف في خنجر القَلب وغَليانِهِ غير الإمساك بالقلم وسكب الحبر.

* * *

سلاماً يا أمي..

أنا..

ابنُكِ الذي أَبْحَرْ..

سلاماً مُعطَّراً..

بعبقِ الأحلامْ..

سلام نيسان يا أمّي..

آتياً ينثر..

ثوبَهُ الأخْضَرْ..

أمَّاهُ..

وجهُ المدينة..

كقطَّةٍ يُخربشُني..

و لا يعرفُ ما..
كتبناهُ..
مضى عُمرٌ..
والحُزن أثقلني..
بهداياهُ..
أين أنتِ؟..
أينَ حقيبتي؟..
الخُبْزَ والزَعْتَرْ..
أينَ أبي؟..
إنِّي أَحِنُّ إليه..
أحتاجُهُ..
وشفتاهُ..
ماذا أقولُ لهُ..
لو جاءَ يسألُني..
كيفَ أصبحتُ..
طبيباً..
ولم أَكْبَرْ..
تركتُ كُتُبي..

ورُحْتُ أطوفُ..
على الوردِ الأحْمَرْ..
أبحثُ عن امرأةٍ..
تُلَمْلِمُني..
إذا أَعْثَرْ..
أمِّي..
اشتقتُ لشوارعنا..
اشتقتُ لكلّ زاويةٍ..
من زوايا..
حدائِقِنا..
وشوقي تخطَّى الشوقُ..
لمنْ أهواهُ..
للبُعدِ لدغةٌ..
توجِعُني..
لكنّي لستُ أحيا..
بلا هواهُ..
حَبيبي خُلِقَ..
مرَّةً واحدةً فقط..

وما حَظِيَ بمثلِهِ..
لا أُمَوِيينَ..
ولا بَرْبَرْ..
أمِّي..
فُؤادي يَشكو..
ولا أحدٌ..
يسمعُ شكواهُ..
سَكَنَهُ الحبيبُ..
مَنْزِلاً..
يجولُ بين الوريدِ..
والأبْهَرْ..
والحبُّ مرضٌ..
والمرضُ أجْهزَ عليَّ..
وما انتهى من زرعِ..
بلواهُ..
أمّي..
إذا جاءَ حُبي..
مُميتاً..

كما جاءْ..
وأصبحتْ الروحْ..
في سماءْ..
زوري جسدي..
وازرعي الوردَ..
والياسمينَ..
والحنان..
دونما رجاءْ..
فوقَ مثواهُ..
من يموتُ حُباً..
يموتُ شهيداً..
عليهِ الجموعُ..
تَتَحَسَّرْ.

سلاماً يا أمي

* * *

- ورد، لماذا تبكي؟

- تسألني عن البكاء، وأنتَ أكثر العالمين بي.. أنتَ الذي تتحرّك في داخلي.. أنتَ الذي تُحرِّك الحب، والحنين والأشواق.

– وماذا أفعل في حياتي هنا.. خلف هذه القضبان.. ألا يحق لي أن أعشق، وأشتاق، وأحن؟

– يحقُ لكَ كلَّ شيء.. لكنّك تفتعل النّزيف في كلّ أريافك!

فلا الدَّمع يصمت في الحنين والشّوق، ولا الدّم يهدأ طيشه في الحب. وأنت أشغلتك من تُحبها عني.. وتركتني وحدي.

– لم أتركِكِ.. لازلت هنا.. لن أتركِكِ أبداً، حتَّى الموت لا يملك قدرة التَّفريق بيننا.

– أعرف ذلك تماماً.

– لكن أخبرني أين شغف؟

– إنّي هنا أصرخ منذ أيام، لعلَّ الصَّوت يصل إليها فتُلبيه، ولم أجدها مُلبية..

– قلتُ لنفسي عليَّ رفع الصَّوت، لذا بدأتُ أضرب الجدران من حولي، لعلَّي أجد ردَّاً منها، ولكن لا مجيب.

– ما هو سبب غيابها ورد؟

– إنَّها هناك في أحضانه، في أحضان رجل آخر يا فؤادي العزيز.

– ورد، لا تكذب عليْ أرجوك.

– أكذب عليك!.. ولماذا أكذب عليك؟

– كيف تكون في أحضانه! وأنا هنا أتلظَّى شوقاً لها؟

– ولمَ تتلظَّى شوقاً لها؟

- لأنِّي أحبُّها!

- اخترتَ خياراً خاطئاً.. فهي لا تحبّك، ولا تعلم حبَّكَ لها!

- ورد، لا تؤلمني أرجوك، يكفيني ما يفعله الحبّ بي.

- أنت الذي تؤلمني كلّ يوم، أنت الذي تذبحني كلّ يوم، أنت النَّار التي تشتعل في صدري لحظة الخروج من سبات النوم، وتستمر حتى بدايته الجديدة..

- أنت وحدك المسؤول عما يجري.. انظر الآن، الدنيا بما رَحُبَت فارغةٌ من كلّ شيء.. الأمكنة كلّها ضيقة.. السَّواد يعمُّ العالم.. فقط لأنَّكَ تحبها.

- وماذا أفعل الآن ورد؟

- ماذا تفعل؟

- افعل ما تريد.. لا أملك نُصحاً أُقدِّمهُ لكَ.. خاصَّةً، وأنَّني أعرف انعدام قدرتك على التَّخلي عمّا في داخلك..

فأيُّ شيءٍ تتخلّى عنه يعني رحيلك ورحيلي معك إلى الأبد.

- أتعرف ورد؟

- ماذا؟

- أحنُ لأبيكَ كثيراً، أحنُ لصراخِ أمكَ عليكَ، إنّي بحاجة لرؤيتهم.

- أتعرف يا صديقي؟

- ماذا؟

- يقول أحدهم: «لو كان الحبّ رجلاً لقتلته».
- سمعت هذه المقولة مرةً، لكنّي قلت لنفسي ما ذنب الحب ليموت؟
- وهل سمعت أنا ماذا أقول؟
- ربما لكن لا أذكر.
- من الطَّبيعي ألا تذكر.
- لماذا؟
- لأَنَّكَ منشغلٌ دائماً بمن هم أَغلى لديك مني.
- ولهذا أقسم لو كنتَ رجلاً لقتلتك.. وانتهيت.

* * *

- صباح الخير ورد.
- وَلَهْ.. أهلاً بكِ.. كيفَ حالُكِ؟
- أجبني أنتَ قبل أن تسألني، ما بكَ؟
- ما بي؟
- لا أعرف، أنت من يجب عليكَ إخباري بذلك؟
- لا شيء.
- لا تكذب عليَّ ورد.. أعرفُ أَنَّكَ لستَ على ما يُرام.
- لا أعرف ماذا أقول لكِ.. فاجأني صوتُكِ الصَّباحيُّ هذا، وفاجأتِني بسؤالِكِ عني في وقتٍ مُحرجٍ.. تعبث فيه الوحدة بالرُّوح.

– كلُّ تلك النِّساء، ورد.. ولازلتَ تشعر بوحدتك؟

– بل مع كلّ امرأةٍ تزور حياتي تزداد وحدتي عُمقاً، هذه الوحدة التي غادرتُكِ لأجلها، لأنّي أعرف أنَّكِ حين كنَّا في صُلب علاقتنا كنتِ وحيدةً، ما كان باستطاعتي رؤيتكِ إلا في صورٍ تعبر شاشاتنا الالكترونية التي ما نقلت إحساسنا يوماً.

وأدرك أنَّكِ بكيتِ أيَّاماً كثيرةٍ، شوقاً لحبيبٍ ما كان بوسعكِ رؤيته.

كلّ هذا البُعد والعناء لم يُنسيكِ، أو يُغيّر فيك شعوراً، لكنَّ رجولتي، ما كانت لِتبقيني أمام حبيبةٍ لا أستطيع مواساتها أو مداواة آلامها.

– ما كنت أريدكَ أن تفعل شيء، سوى أن تبقى بجانبي.

– كيف أبقى لديك، وأنا لستُ بين يديكِ؟ قبل أن أتَّخذَ قراري المشؤم ذاك.

أخبرني القمر ببكائكِ الشَّديد، وكنتُ لا حول لي ولا قوة. فماذا يفعل رجلٌ لا يقوى على الدِّفاع عن محبوبته ضدَّ غُبن الأقدار.

– لا أدري ورد. كل ذلك خلف سياج الماضي، لم يعد له أهمية اليوم.

لا أحد يتكلم هكذا، إلا إذا كانت شفاهه ذاتُ صِحة.. تروى كلّ يوم، ولا أظنكَ كذلك، ولا أملك أملاً لنفسي بذلك.

هكذا هي الحياة، لا تحزن، أرجوك.

– كيف أحزن، وكلّ تلك النّساء حولي.

– هاهاهاها.. لازلتَ خفيفَ الظِّل.

– نعم..

أستعملُ خفَّة الظِّل لأُظَلِّلَ بها حُزني ليبدو رائعاً كلوحةٍ لفنَّانٍ بارعِ الرَّسم.

– ورد اخرج مما أنت فيه، أرجوك.. لا قدرة لي أن أراك على هذا الحال.

– سأخرج يوماً.

– تعال إليْ إن أردتْ.. فأنا أقضي إجازتي على شاطئ البحر.

– أحسدكِ على ذَلك، لا يمكن لشيءٍ أن يُنصِت لكِ كما البحر.

– سنتحدَّث لاحقاً، لعلَّكَ تكونُ أفضل.

– أشكركِ جدّاً.

– اعتنِ بنفسِكَ.

– وأنتِ أيضاً.

أنهى مكالمته، يفكِّرُ في جنونِ اللَّحظات، وفخر الذَّاكرة..

إن عادت حبيبتُكَ صديقة، حبيبتُكَ التي فعلت كل شيء محاولاً إسعادها، حتى لو وصلت تكلفة ذلك إلى بتر ابتسامة شفتيك.. إن عادت إليكَ تحملُ مزيجاً من ابتسامتها، وابتسامتكَ على شفتيها، تحاول إقناعكَ أنَكَ الأفضل في أحد أسوأ المواقف التي تمرُّ عليك. تكون حقاً صديقةً رائعةً.. حبيبةً رائعةً.. إنسانةً رائعةً..

الرَّائعون كثيرون في حياة ورد، على الأكثر يكون وجودهم بعد تدخل الحب مُسيطراً عليهم، مُوجهَّاً لأفعالهم.. مُصاحِباً إيّاهم إلى

منتصف الطَّريق، أو أبعد قليلاً، حيث يودعهم هناك، ويعيِّن لهم المكان الذي يتوجَّب عليهم الوداع فيه..

أحبا بعضهما حباً تجاوز المسافات الطَّويلة الفاصلة بين شماله وجنوبها، وجدت فيه دواءً لقلبها، وكانت هي مدخلاً إلى عالم حواء؛ يحلم به كلّ الشباب على امتداد العالم..

كان لها تركيبةً سحريَّةً تعوضها عن كل نقصٍ.. وكانت له أستاذةً علَّمته كيف تُلهم امرأةٌ كاتباً.

كانا في التَّفاصيل يعيشون عُمقاً واسعاً، حتَّى عندما افترقا، حافظا على عُمق بعضهم البعض. غادر الحب حاضرهم مُستقرَّاً في أحد أوسع منازل الذَّاكرة وأفخرها. وبقي لديهم الوفاء الذي كان ملجأً لهما.

كم من النِّساء يلجأن إليه!.

ليس كلّ الرجال يستطيعون إغراء غرور أنثى.. ليس كلّ الرجال يستطيعون إغراء غرور أيّ أنثى كما يفعل هو.

كثيراتٌ هنَّ من لَجَأنَ إليه في مآسيهن.. وقليلاتٌ هنّ من لجأ إليهن لِيفضي عبء ما يحمله من أحزان.

كان يجلس في بيته منعزلاً عن كلّ شيء يبكي كالمجنون، ويشرب أرتالاً من كؤوسه السوداء التي كانت له مؤنساً وحيداً، وصديقاً وفياً يجده في كل أفراحه وأتراحه. هذا سرٌّ تعلقه الشَّديد بها.. سرٌ لا يعرفه أحد على الإطلاق. ولن يشعر به أحد كما هو.

في خضم تلك الأيّام التي حاول صرفها مُتأملاً لشغل نفسه عمّا يحدث خلف صدره وفي قلب رأسه، إلا أنَّ أكثر محاولاته تلك باءت بالفشل أحياناً.. والفشل الذريع في أحيانٍ أخرى..

وما ينقذه كلّ مرّةٍ، هو استيعاب ما يجري وإن كان مُتأخراً.

الأيام تمضي بدونها.. وبغياب من حقاً يستحقون الوجود.. ويمضي معها أملاً بأن تستحي.

إلى أن التقى جَوى صدفةً في الجامعة.. لم يشأ أن يسألها في بداية الأمر عن شغف.. إلا أنه عجز على غير عادته، أنْ يُمسك بأعصابه الثائرة.. وبعد اطمئنانه عليها، أخبرته بأنَّ جاد قد بات على مشارف الرحيل.. لم يتحدثا كثيراً، لكنها وضعته عبر جملها القصيرة في بداية الطريق من جديد.

الأكثرُ ألماً، أن تقف مُنتظراً أحداً يشغلهُ سواكَ عنكْ.

هذا الشعور أطرب أحاسيسه.. إلى أنْ اجتمعَ بها بعد مرور ثلاثة أيامٍ أخرى.. أمام قاعة الدراسة.. تُبادله الابتسامة، وتنهال عيناهُ عليها شوقاً كما تتدافع الأمواج.

أخبرته.. بعد أنْ قدمت له وجبةً من الأمل بتمدُّد ثغرها المثير.. أنَّ جاد قد رحل.. وأنَّها عادت إلى العالم، الذي لطالما حاول جاد إبعادها عنه بذريعة الخوف عليها تارةً، ثم بأوامر الهوى الشرقيّ تارةً أخرى.

- كيف حالك ورد؟

- أشكر الرَّب.. شكراً على مكروهٍ.. وأنتِ؟
- أشكره أيضاً.. هل لديكَ محاضرة الآن؟
- لا لقد انتهيت للتو.
- إذاً أودُّ أن ألقاكَ مساءً. هل لديكَ وقتٌ لذلك؟
- بالتّأكيد.. فالوقت كلّه لكِ.
- شكراً.. سأحدثكَ مساءً.
- أنتظرك.

* * *

- جميلٌ هذا المساء حقاً.
- أتراهُ كذلك؟
- منذ زمنٍ ما كان بهذا الجمال.
- لماذا؟
- لا أدري؟
- ممم.. أخبرني كيف قضيتَ الأيّام في غيابي عنكَ؟
- كنت أفعل كلّ شيء.. وما استطعت أن أعيش.
- لماذا؟
- لا شيء.
- هيَّا تكلَّم.

– أظنُّه إحساس وحدتي فعل بي ذلك.. أكثر ما يُحزنني أنَّني محسودٌ على محبَّة النِّساء لي.. وكثرتهُنّ من حولي.. ومع ذلك، عندما أفقد من يهمني أمره، أشعر بأنَّني أفقد الدُّنيا.

– أليس هذا غريباً ورد؟

– غريبٌ جدَّاً.. لكنَّها حقيقتي..

الوحدة لا تكمن في عيش الإنسان وحيداً فقط.. ولا في انعزاله عن العالم الخارجي أيضاً.. بل تتجلّى في فقدنا للإنسان الذي يمنحنا أقصى درجات السَّعادة بلحظاتٍ معدودة.. أو الشَّيء الذي يُضاهي هذا الإنسان في مكانته. فهذا الغائب الوحيد، يساوي الحاضرين مهما كثُر عددهُم، وكان وجودهم ضرورياً، وأهميتهم في الحياة رفيعة.

– استطعت أن أتوصَّل لنتيجة تجعلني سعيدة.

– نعم..

جميلٌ أن يكون الذي أمامكِ سريع البديهة مثلكِ، فيختصر عليكِ شَرحاً وتفصيلاً يربككِ أحياناً..

نعم شغف.. أنتِ من يمنحني تلك السَّعادة.. وقد غابت في غيابكِ.

احمرَّت وجنتاها خجلاً.. كبقعٍ عنابيّة اللَّون أصبحت..

كان حديثاً جميلاً.. تبادلا أطرافه حتَّى نهاية المساء.. ثمَّ عاد بها إلى منزلها، ذو الطَّريق القصير المعتم المخيف، والتي كانت تخاف السَّير فيه لكثرة وحشته..

وعـادت إليـه، وهـو مسـنَّدُ الـرأس عـلى وسـادته يفكـر، ويحلـم، ويتمنَّـى.. تتسـوّل أمانيـه للخيال، فيصنـع ما يحلو لهـا.. ويضرب الأرق موعداً معه كما كل ليلة.

يـأتي بعـد جلسـات اللَّيـل تلـك صباحـاً مُشرقـاً، إذا كانـت تُحييـه.. وكئيباً إنْ غابت عنه شمس طلعتها البهيَّة.

في بهـو الجامعـة، يلتقـي الأصدقـاء سـويةً، ينتـشرون في أرجائـه المتباعدة، يتبادلون الأحاديث قبل بداية العمل.

تقـف هـي مـع زملائهـا، وغالبـاً ما تكـون بينهـم شَـوق. أمَّـا هـو، فيبقـى معظـم وقته وحيـداً يُراقبهـا ويرقب المـكان من حولهـا.. وهو في عالمٍ خاصٍ يكوِّنهُ مزيج أخيلته، وأفكاره، وكلماته.

* * *

وتمضي الأيَّام..

متيَّمٌ في هواها.. غارقٌ في حياتها.. كما لو كانت هي هو.. تملكه في كل ثوانيه.. كلماته تكتبُ لُها.. عيناه تدمع لأجلِها... هي الآن كلّ شيء.. إنَّها أروع اللَّحظات.. أسمى المعاني.. أوفى الحروف.. باختصار إنَّه الحب.

لم يعد ورد مُهتماً لشيء آخر سواها.. هي المسيطرة على الجسد داخله وخارجه، ومحيطه ومداه.. صاحبة القلب الطُّفولي.. تلك التي كانت النقطة في نهاية كل سطر.. والنّقطة التي يبدأ بها القلم.. حتَّى عندما لا يكتب شيئاً.. تحضر لمجرّد التصاقه بأي شيء تُسمح الكتابة فيه.

– جَوى.. منذ زمن لم أرك!

– وهل ترى شيئاً سوى شغف؟

– لا أظن.. كيف حالك؟

– أشكر الرب على ما كتبه لي.

– لا تحزني أرجوك، هذه هي الحياة.

– وأنت كيف حالك؟

– كما ترين.. أكون ولا أكون.. أموت وأنا على قيد الحياة.. أتعلمين لو كان قلبي أمامي لما تركته لها أبداً.. مؤلمٌ هو الحب، عندما يُشاركُكِ أحدٌ فيمن تُحبين..

ولكن لا أستطيع التَّخلي عنها أبداً، وأنا مُدركٌ أنَّها لن تكونَ لي.

– وماذا ستفعل؟

– سأعشقها حدَّ العبادة، وأُبقيها حبيبتي، وأكتبُ لها في حضورها وغيابها، وأحاولُ مسامحَتَها عن كُلِ لحظةٍ خطأ تمرُّ بها.. هذا ما سأفعله، لكن لا تخبري أحداً.

– سأحسدها على وجودكَ في حياتِها.

– لا تفعلي أرجوكِ، أخافُ عليها من الحسد، وإن كان لا بُدَّ لكِ أن تَفعلي فافعلي مرَّتين.

– ولمن تكون الثّانية؟

– تكون لكِ.

- لي أنا.. ولماذا؟
- لأنّي سأكونُ لكِ كما أكون لها.
- لم أفهم ما تقصده ورد!
- لن تفهمي الآن، ستكون الأيام كفيلة بإخبارك ما أقصد.
- بكل الأحوال كنتُ أمازحكَ فقط.
- أودُّ أن أطلبَ منكِ شيئاً.
- منّي! ماذا تريد؟
- أريدكِ أن تضعي يدكِ على قلبكِ، وتتأكَّدي إن كانَ ينبض أم لا.
- وكيف أتكلَّم إن غاب في صَدري النَّبض؟
- إذاً، هذا يعني أنّه ينبض.
- بالتَّأكيد.
- لو كنتُ أعرفُ أنَّكِ ستفعلين ما يَضرها، لما كانَ فؤادَكِ نابضاً الآن.
- أيُّها الأحمق.
- أهلاً شغف.. أراكِ مُتعبة اليوم.
- كل شيء متعبٌ في هذه الدنيا، ورد.. كيف حالك أنت؟
- لا شيء كما عرفتني دائماً.. وسعيد بوجود جَوى.
- سعيدٌ بوجودها؟
- هاهاها.. بالتَّأكيد كيف لا أكون سعيداً، وأنتِ هنا أيضاً.

– اطمئني شغف، أظن أنَّ ورد لا يرى سواك، ووجودي معه كوجودكِ.. فأنا أَمنعه من التَّنفس أحياناً.

– وجودكِ كوجودي وتريدينني أن أكونَ مطمئنةً.

– لا.. لا.. أقصد في الحصار فقط.

– هكذا إذن.

– نعم.

– مطمئنة.. مطمئنة ولكن ألاحظ التَّطور في علاقتكما.

– ليس تطوراً كبيراً، فأنا وجَوى اجتمعنا لبعض الوقت، لننزع عن وجوهنا خجل اللِّقاء الأول.. وبما أنَّها تملك من الرَّوعةِ، والطِّيبةِ ما تملك.. وهي صديقتك أنتِ أيضاً، فسترى مني ما لم تره من غيري.

– انتبه، كي لا ترى أنت أيضاً، أشياء لا تودُ رؤيَتَها.

– هاهاهاه.. أخبريني الآن، ما هي أخبار جاد؟

– كعادته، يصطنع المشكلات بغيرتِهِ الخَانقة، وشكّه الدَّائم الذي يُتعبني، ويُميتني أحياناً.

– لا أظنكما زوجين مناسبين.. هل هناك ما يزعجك الآن؟

– نعم.. فهو يحاسبني لأنَّني أتكلَّم مع الشبّان من زملائي.. يريدني أنثى بلا أفعالٍ.. أتحرَّك كآلةٍ كهربائيةٍ وأنفِّذ أوامره فقط، دون أن يهتم لسماع رأيي في ذلك أو ما أريده.

– للأسف عزيزتي؛ إنَّه أسوأ أنواع الرِّجال.. كما اتَّخذتِ قرارك

بوجوده، تستطيعين أن تأخذي قرار رحيله.

كلنا نملك القوة الدفينة في أعماقنا، لكن من نظنُّهم أقوى منا، هم من يستطيعون تحريك قوتهم المخزونة في أعماقهم.. شغف، أشعر برغبة التَّغيير تسري في جسدك هذا.. لكن الكلمات لديك تبقى مجرَّد كلمات، إنَّني في مكان لا يُسمَح لي أنْ أطلب منك نسيانه.. لأنَّني في ذلك أطلب مَصلَحتي.. لكن أودُّ فعلاً، أن تدركي أنَّ هذا الرَّجل لا يمكن أن يكون لكِ زوجاً.. ولا أريد أن يكون فعلُكِ في تركهِ، إن استطعتِ ذلكَ لأجلِ أحد.

– لا أدري ورد.. لا أدري ما يمكنني فعله.

– أتمنّى أن تستطيعي فعلَ أي شيء، يجعلك سعيدة الروح.. لقد أصبحنا على أبواب الامتحان الأخير لهذا الفصل.

– أووووه، كم مضت الأيام بسرعة.. وكم هي صعبة أيَّام الدِّراسة.

– لكنَّهم يقولون.. أنَّها أجمل سنين.

– يقولون!.

– انظري إلى حبيبتي جَوى.

– حبيبتُكَ جَوى؟.. ومتى أحببتها؟

– منذ قليل.

– ماذا؟

– أقصد صديقتي.. صديقتي جَوى.

- هكذا أفضل.. تباً لك.
- تباً لي.. لكن انظري إليها.. لم الحزنُ عليها هكذا؟
- جَوى ما بكِ؟
- لا شيء شغف.. مُتعَبةٌ قليلاً.
- تعب ذاكرة، أم حب، أم جسد؟
- لا أدري ورد.
- لا تدري شغف.. أرأيت هي أجمل سنين.
- هيا نأخذها لترتاح أيها الجميل.
- هيا يا جميلتي.

* * *

في الحب غالباً ما نخطئ، تدفعنا قلوبنا لِأفعالٍ إرادية، تكون في حقيقتها لا إرادية يكمن فيها الجنون، وتكمن فيها السَّعادة، كمعادلة رياضيّة ليست قابلة للحل!..

ولو كان للحب حلاً، لَما صار جميل بثينة، وقيس ليلى، أساطير واكتفى النَّاس. عوضاً عن تطبيق حل يقدِّمه الطّب، أو تحكي عنه الفلسفة، أو يذكره التَّاريخ، أو يُطبَّق عليه علم الفيزياء أثقالاً مُدمّرة، أو تقوم الكيمياء بتفكيكه لأجزاءٍ صغيرة لا تذكر آثارها..

كل يوم لدينا حبٌ ينتهي، وآخر يبدأ المشوار. نذهب للأول مواسين له، ونحمل للآخر قطع الحلوى مبتهجين له. وهذا بالضَّبط

ما نفعلـه، نحـن البشر بـدون أن نفكر بمَ ينتهـي، أو لماذا يبـدأ!. ونكتفي بعبـارةٍ صغـيرةٍ تقـول:« هذا حـال الدنيا».. ثـم نبكي في حـال العيون.. ونتألَّم مُبرِّرين الألم بحال القلب.. وإذا ما فرحنا، ننسى كل شيء.

يقول محمود درويش:

«إذا أتاكَ الفرح، لا تُلقي لومَكَ عليه.. بل ادخل إليه، وانفجر»..

تترافـق أرواحهـما لأكثـر مـن أربـع وعشرين سـاعةً كل يـوم.. هكذا هو الحب..

فالحـب أفعـالٌ، لا يمكـن لأي عقـل فهمهـا أو تفسـيرها، ورغـم تواصلهما الدائم ما كان يملُّها، ولا كانت تتعب من خلاله.

الوطن في كلٍ منهما، كان للآخر.. ولا يزال سقف الحب يرتفع..

في كل مكان هما معاً.. وعلى كل الألسنة هما معاً..

كان في جوارهـا دائـماً، تتغيَّر صفته بحسـب ظرف وجـوده.. وتتدرَّج من الملك إلى الخادم، وبينها يمرُّ الأخ والعاشق، والأب أحياناً..

أي أنثى تستطيع أن تقف صامدةً أمام كل هذه الرجولة.. أي أنثى تستطيع صدَّ حنكة قلب يهواها.. أي أنثى تُقدِّم حبَّاً أو حناناً، إذا ما عرفت وصفة صنعهما، وتذوقت طعمهما. رغم أنهنَّ خُلقن مصانعاً للحب وللحنان، ورُقّي من أجسادهن أمهات، حتى وقفن على الجنة.

لكنَّـه عـلى اختـلاف ما ينتج، فـأي مصنـع بحاجةٍ لمـواد أوليّـة، وأيادٍ محترفـة حتّـى يُقـدم ما ينتجـه بإتقـانٍ، أي أنهـنَّ بحاجـة لـكل شيءٍ

يُقدِّمونَه، لو اختلف النَّموذج أو تغيَّرت الطَّريقة.

فنحن قبل أن نطلب من أطفالنا كأس ماءٍ نرتوي به، نُعلِّمهم كيف يضعون الماء في الكأس، ثم كيف يحملونه إلينا.

هذا ما كان ورد يعرفه جيداً، ويُنفذه بحرفية كبيرةٍ. كان طبيباً لها، في كل لحظة ألمٍ يسببها جاد بأفكاره، وشكّه، وغيرته.. ولا تبتسم إلا عندما يقف وردٍ أمام عينيها، وإن كان غائباً..

بعض الرجال يظنون أنَّهم يحمون نساءهم بما يفعلون؛ لكنَّهم لو أدركوا أنَّ حلاوة الروح ستدفع بأي امرأةٍ إلى القتال أولاً، والتَّخلي أخيراً، لما فعلوا ذلك..

فالذي دفعها إلى التَّمدد على حنان ورد، هو الألم الذي يُسببه جاد، والذي دفعها لتقبل لمس ورد لخديها، هو الدَّمع الذي أنزله جاد..

ما كان بوسعها إلغاء أحدهما لواقع مفروض هو جاد، وحاجة تواقة هي ورد. رغم أنَّها كانت تصلي، وتدعو الرَّب لانتشالها من بين بحرين يلتقيان في جسدها..

فارسان شرسا الهيكل، متفاوتان في العقل، والفكر، والاستيعاب.. وهي التي تدمى من معاركهما.. الخاسر الدَّائم هو جاد.. والرَّابح ورد، ببضع كلماتٍ يقولها فقط..

كانت شغف في أسوأ مرحلةٍ تمرُّ بها أي عاشقة.. فوضى المشاعر، انهيار الحب، وولادة قلب. بقيت تُصارع أيام طوال خيانة سيختلف

العالم في شرعيتها..

عندما أصبحت الكلمة ذات الحروف الخمس بُعيد تغير أجزائها تتناسب مع ورد أكثر من أي رجلٍ آخر؛ وإن كان جاد، وتنطقها الشِّفاه لورد معلنةً إياه عرَّاباً لفؤادها.

* * *

مشت عليهما الليالي مشيَ أرنبٍ هاربٍ يخاف الموت، تنير الشَّمس نهارهما، ويلجآن للحب يُنيران به ليلهما.. هكذا هو يوم العشق في وطنهم، وهذا حال كل عاشق أو عاشقة..

عند إعلان الحب تصبح الشَّمس أنقى وأرحب، والنّجوم التي لا تحصى تُعَدْ، وكل شيء يصير بلونٍ ورائحة..

مضى الزَّمان، حتّى انتهى موعد امتحانهم الأخير.. الموعد الذي يمزج بين الفرح والحزن، والرَّاحة والوداع، وبات كلاهما على أبواب رحيلٍ قصيرٍ، بعد أيام متعبة، وممتعة، اجتازاها معاً جنباً إلى جنب، بجهدٍ وأملٍ مضاعف لكلٍ منهما، فالروح المحبة، مسؤولة عن روح محبوبها تشتهي له ما تشتهيه لنفسها، وتشتهيه أحياناً، بما لا تفكر فيه لنفسها تفضيلاً له، وإجلالاً جبرياً.. لتسمو هي بين الأرواح، وتسمو معها روحاً أخرى فوق أرواح حاضرة في المحيط تُرى وتُلمس..

ويكمن الفرق في ثنايا النَّفس.

- ماذا ستفعل هناك؟

– سأقوم بأشياءَ كثيرةٍ، لا أدري ما هي الآن؟، لكنّي سأشتاق لكِ.

– وأنا أيضاً، سأشتاق لكَ.. لا أدري ماذا سيحصل عند عودتي، لكنّي أشعر أنَّني لن أكون بخير بعيداً عنكَ. أخبرني متى ستعود؟

– لا أدري بالضَّبط متى سأعود.. أظن أنَّني سأعود في اليوم التَّالي لعودتكِ.

– في اليوم التَّالي تحديداً؟

– لأنّي لا أستطيع العيش هنا بدونكِ.. ولا أظن أنَّني سأحتمل وقْعَ خبرٍ يحمل أصداء وجودك هنا، ولا أسافر إليكِ.

– سأحاول الاتصال بكَ،

– وهل ستنجحين؟

– ربما.

– سأنتظركِ إذاً.

– إن شاء الرب.

– ما بكِ؟.. لا أريدكِ أن تكوني حزينة هكذا.. واجهي الحياة، وأخبري كلَّ من حولكِ بما يدور في أعماقكِ، لا تخشي شيئاً، ولا تخافي أحداً.. ألم تخبريني يوماً بأنَّكِ وقفتِ أمام الجميع دفاعاً عن جاد؟

– نعم فعلتُ.

– لماذا فعلتِ؟

– ظننتُ أنّه سيُخلصني مما كنتُ فيه.

– واليوم عرفتِ أنَّ ظنَّكِ كان خاطئاً، فلا تقبلي بواقع خانقٍ كهذا..

– ابتسمي أرجوكِ.. أُريد أن تكوني سعيدةً حقاً، لذلك سأبقى معكِ حتى تتخلَّصي من جاد وسيكون ذلك من أجلكِ أنتِ.

– سأفعل ما بوسعي.

– تذكري أنَّكِ ستفعلين هذا من أجل غدٍ يكون أفضل.

– إن شاء الرب.. أخبرني متى ستغادر؟

– بما أنَّ جاد سيأتي غداً.. فغداً موعدُ رحيلي.

– انتبه إلى نفسك جيداً.

– انتبهي أنتِ لي.

* * *

شغف.. أكتبُكِ على الورق فينبض..

أقولكِ للسماء فتبتسم..

أخبر البحر عنكِ فينتفِض..

أنتِ هبة الرَّب وبلواه.. وفي بلواه رسالتين من الحب.

في كل مرةٍ، أركب بها الأجواء عائداً إلى شوارع طفولتي.. تغمرني الفرحة إلا اليوم.. راحلٌ أفكِّر في إيابي.. ولا يكاد يغيب عني يوماً كنتِ حاضرةً فيه، في الغياب والحضور..

لست أدرك ما يجري حقاً، ولا أعرف كيف وصلت الأيام إلى إجازتها!

أنـا الذي ما انشـغلَ عنـكِ إلا بكِ.. ومـا خانَكِ إلا معـكِ.. أنا الذي ما أسكرني إلا الكحل المُتَوسّدُ عينيكِ..

أذكـركِ جيـداً، عندمـا صارحتنـي بـشيءٍ كبيرٍ يـدور في دنيـاكِ.. يُغيِّر معـالم الفـؤاد.. آلمتنـي كثيراً تلـك الليلة، لأنَّنـي كنت قليـلاً في كلماتكِ.. لكنَّنـي كنـتُ سـعيداً بحـبٍ لطالمـا حلمـتُ وآمنتُ بـه.. يثور بجسـدكِ وروحـكِ كالأعاصـير، رأيتـه بين السـطور.. شـعرت به ينضـح من بين أصابـع يديـكِ النَّاعمتـين، وأنـتِ تلوحـين بهما تعبـيراً، وأعـذركِ كثيراً، لأنَّني أعرف كيف تكيل الدنيا بمكيالين من عاطفةٍ وقدر..

يميـل أحدهما بفعـل حبٍ يحـرك الـروح.. ويميل الآخر بفعـل واقعٍ يأمـر الجسـد، ويـدوس كلّ ما ومـن في طريقـه.. فليُسـامحك الحـب، وليغسـلك الشّـتاء الشَّـاهد، وليطهـرك الليـل والدَّمـع مـن حماقةٍ أشـبه بجريمةٍ في حقِ الهوى..

لأنَّـكِ كنـتِ تعتبريـن نفسـك خائنـةً، عندمـا أحببـتِ رجـلاً بوجودِ رجـلٍ آخـر زالَ هـواهُ، وبقـي الحـبر والـورق رابطـاً بينكما.. فـإذا كنتِ كذلك، فكلّ نساء الكون خائناتٌ قَبلَكِ..

والكثـير لا يعرفـون، أنَّ كتـاب هـوى أقـوى مـن ألـف كتـابٍ يكتبه أحدهـم ويمـضي.. ومن ينعتكِ بخائنـة، أخبريه أن يبحـث عن أخطائه، ويحاسـب نفسـه إن اسـتطاع، قبـل أن يُحاسِـبَكِ، واسـمعي مبرراته التي خلقت مُفَصَّلة على مقاس نزواته، ثم ابتسمي..

ابتسـمي، لأنَّـه لم يُـدرك بعـد أنَّ الحـبَّ عندمـا يأتيـه سيهشِّـم كلَّ

ماضيه، ويدفعه إلى محبوبِهِ مُجبراً.

أخبريه ما شئتِ.. وإن شئتِ لا تخبريه شيئاً. فعندما يقع اختيار القدر عليه سيذكرك حتماً، سيذكر كلّ ما ومن قام بخيانته، إنساناً كان، أو خُلُقاً، أو ديناً.

لا أعرف لماذا كتبتُ كلَّ هذا، لكنَّني بدأتُ بالكتابةِ دونَ أن يكون في رأسي إلا كلمةً واحدةً..

أُحبكِ...

وهذا كلّ ما أردتُ قولَهُ.

ورد

* * *

ورد..

أكثر ما يوجعني الآن، أنَّني أحببتُكِ، وحبك جعلني خائنةً في منطقِ البشر.

خائنةً لرجلٍ حَسِبتهُ مختلفاً عن باقي الرِّجال.. فقدت لأجلهِ سنداً، لن تعوضني الدنيا بأكملها عنه.. هو أبي.

أبي الذي صار أباً لإخوتي.. وصار اتصالي به جسر صمتٍ، وغضب، وكُرهٍ أحياناً.

دون أن يدري، أنَّني كنتُ أهرب منه إلى رجلٍ رأيته رائعاً، عندما فقدتُ بصيرتي.. رأيته منقذاً، عندما هاجمني موت الروح، رأيتُه وطناً

عندما قسا عليَّ بيت طفولتي، ومن كان يرعاها..

رأيتُـه رجـلاً مختلفـاً عـن كلِ الرِّجـال.. وحقيقتـه كانت أنَّـه من طينة أكثرهم تجريحاً، وشكاً، وغيرةً تحت مُسمَى الخوف.

والخوف ضلع للحب في نظره!

عندمـا ملـكَ حبَّـكَ مُلكيتـي.. أصبـح كلّ ما رأيتـه -عندمـا بـدأتُ حروبي لأجله- سراباً..

أشـعر أنـكَ ملجأً لي، وأهـرب منكَ أحياناً بسـبب خيانـة أقترفها أنا، في عُرفنا الشرقي بدوافع ليست من صُنع يديْ.

كلّ مـا في الأمـر، أنَّكَ أطلقـت عنانَ سـعادتي.. وغيَّرت معـالم حياتي بعـض الـشّيء.. فلـماذا أحبـك لا أدري؟ ولمـاذا لا أحبـك لا أدري؟ أتـدري..؟ إنَّهـا أصعـب المواقـف.. فـلا قرار ينشُـلُني مـن عنـق ميزانٍ يميل دائماً، ويغير آرائه باختلاف ظرف أو حاجة أو إحساس.

لا أعرف، لماذا أكتب لكَ أنتَ تحديداً؟..

ولا أعرف، لماذا يختارك قلبي دائماً عندما يتألم؟

ربما لأنَّكَ أنتَ الذي تحب هذه الأوقات تماماً..

وربـما لأنَّـكَ أنـت الـذي عودتني، وعـوَّدت قلبـي أن نـذرف الدمع على يديكَ.

أتمنّى أن تكون بخيرٍ.

شغف

* * *

كان يومـاً مُتعِبـاً عزيزتي.. وأمَّا اسـتقبالهم كان جيداً بحكم اشـتياقهم وإرادتي لرضاهـم.. هـم الذيـن قدمـوا إليَّ الحيـاة أو قدَّمـوني إلى الحياة.. وليس هذا مهماً الآن..

كانت أحاديثنا قصيرة، كنتُ أضحك من كل قلبي، ولا أعرف لماذا؟..

أتكـوني أنتِ السَّـبب؟.. أم أنَّها عـودتي إليهم!.. أم أنَّـه تحدِّي قدراتي في إقحامك بينهم كان السَّبب!..

بقيـتُ أفكِّـر بـكِ، وأتحـدَّث معهـم، حتـى أتـى صديقـي تَيـم، ولا أذكره رحل أم لا..

وانتهـى مشـوار يومـي بـدون أن أشـعر بنهايتـه، ونسـيت شـمعتي تُضيئ المكان في غيابي عنه.

كانـت جميلـةً جـداً.. شـعرتُ أنَّهـا ملكـةٌ نزلـت لاسـتقبالي.. تلـك المدينـة المليئـة بالذكريات.. مرَّت عـلى خاطري حاملة وجـوه الرَّاحلين، وصـدى أصواتهم.. مـرَّت بحزنٍ عليهـم، وبفرحٍ بـكِ.. أردتُ إخبارها أنَّنـي أحببتـكِ، وأنَّـكِ جميلـة أردتُ أن أخبرهـا ما عرفته عنـكِ.. أردتُ إخبارها...

- مرحباً.

- أهلاً شغف، كيف حالك؟

- أشكر الرب، وأنت كيف حالك؟

– خرجتُ من سُباتي الآن، ولا أدري كيف حالي!.. أين جَوى؟

– جَوى تستعد للرَّحيل أيضاً.

– وأنتِ ماذا تفعلين؟

– لا شيء، أخبرني جاد أنَّه سيصل إلى هنا بعد قليل.. لذا أردت الاتصالَ بكَ لأطمئنَّ عليك قبل أن يأتي.

– شكراً لكِ.

– عفواً.. ما بكَ؟.. لماذا تغيَّر صوتكَ فجأةً؟

– لا شيء.. أخبريني أنتِ ماذا ستفعلون؟

– سنذهبُ لزيارة عمَّتهِ، ونبقى هناك يوم أو أكثر قبل موعد السَّفر.. لنقوم ببعض الأعمال ثمَّ نرحل.

– ستبقين معه كل هذا الوقت!

– وماذا بوسعي أن أفعل؟

– لا أدري، لكن انتبهي لنفسكِ جيداً، فلتكوني واثقةً بنفسك فقط.

– وأنتَ أيضاً، انتبه لنفسكَ جيداً.. سأتَّصل بكَ إن استطعت، وربما أتأخر حتى أصل مدينتي.

– سأنتظركِ.

جميلٌ كان صوتكِ يلهث بالحنان.. أريد أن أخبر المدينة وأخبركِ عنكُما.. فتزدادين أنتِ جمالاً بها.. وتزداد هي أنوثةً بكِ.

* * *

في كتب العشق يقولون: أنَّ قصة الحب التي تجري أحداثها في قلبٍ واحدٍ؛ هي الأصعب على الإطلاق.. لكنَّهم لم يعرفوا، أنَّ هناك قصص حبٍ تدور أحداثها في أكثر من قلبين اثنين.. ربما تساوي الصِّراع بين الحياة والموت..

كأن يكون لك شريك في من تُحب، يُساويك أو يتجاوزك بحقوقه، وأحقّيته.. كأن ترسم حفرة تعيق اتصال الشفاه أثناء قبلة.

حبيبي..

غداً سأرحل..

أنا الحاضرة الراحلة، ولا شيء يدور في خاطري سواكَ أنتَ..

حتَّى عندما قبَّلني جاد.. أغمضتُ عيني وشعرتُ بكَ أنتَ.. إلا أنَّني لم أستغرق الكثير من الوقت لأنظر مُجدَّداً، وأرى روحكَ دون جسدك..

كل الوقت مع جاد كنتُ معكَ أنتَ.. دونَ أن أجد مُبرِّراً واحداً، يُقنعني أنَّ جاد ضرورياً في حضوره.. كنتَ أنتَ وحدَكَ الذي توجَّهُ عنه كل الأسئلة.. وتدور حوله كل الأحاديث مهما بلغَ قصرها.. وتُداسُ لأَجلهِ كل المبادئ وتُحَطَّم كل القوانين..

لطالما سألتُ نفسي أين أنا؟..

وربما استطعتُ الإجابة مرةً واحدةً فقط.. أنا التي تُحِبُّكَ فِعلاً..

أنا التي لا تدري ما تفعل بآخر جاء، ومعه متاع الخلاص، والحب

والرقـة، ثـم رحـل كل شيء، وبقي هـو جامداً مُتلـذِّذاً في مكانـه الذي لم يعد مكانه دون أن يدري بذلك..

ورد أهذا هو الحب؟..

أم هذا ما يسمونه بالخيانة.. أم شيء يدعونه نزوة؟..

وهل أكون خائنة؟.. إذا أحببتكَ بعدَ من دَاس كرامتي مِراراً..

حتَّـى قبـل أن أبدأ رسـالتي هذه بقليـل.. كلماتـه القاسـية.. الغاية في المرارة.. لا تترك لي شيئاً يعوم في أجزاء رأسي سواكَ..

هل سيفهم أحد واقع خيانتي يوماً.

أحبك ورد كثيراً.

شغف

* * *

شغف..

لا أدري عزيزتي ما تفعلين الآن.. ولا أودُّ التَّفكير في ذلك أبداً..

يؤلمني مهما كان خفيفاً وجودكِ في جانبِهِ..

أنـا القادم من الـلاشيء، أنا الذي لا أعرف تفسـيراً لحضوري سـوى الحب.. وشيء يسمونه الفلاسفة هدايا الرَّب..

أبتسم كثيراً، عندما أكتب لكِ.. أو أكتب عنكِ..

دون أن يدري أحدٌ.. أنَّكِ سرُ سعادتي المريضة المستلقية على سرير الموت تعاني الغثيان.. ولو أنَّكِ تدرين يا عزيزتي، كم هو مخيفٌ إقياؤها..

لمن أسرد قصتنا؟..

وأنا الذي لا أملك منكِ شيئاً.. ولا أملك لكِ شَيئاً إلا قلباً هزَّته رياح الألم كَثيراً.. وواقعاً كالوحل أغوصُ فيه أملاً بإنقاذ بقايا فتاةٍ أَحبَبتها..

وأعلم تمام العلم بأنَّه ليس هناك أحد سيحاول إنقاذ بقاياْيْ.. إن بقيَت..

إنَّكِ ضربٌ من الجنون.. وهل خُلق العشق إلا للمجانين؟..

أنتِ سيدةٌ حائرةٌ بين قلبها، وعقلها، وواقعها.. ولستُ إلا رجلاً على عاتقِهِ إثباتُ رجولته.. مهما كلَّف الأمر..

كل شيء يصير أحلى، عندما تراودين أفكاري.. كالسِّحر تغيرين معالم الدُّنيا..

أشعر بشغفٍ للقائنا..

هناك.. في مدينة عشقنا..

حيث لا أحد يعرفنا..

ولا أحد يدري بنا..

أحبك يا سيدة العفاف.

* * *

عزيزي ورد..

أعتذر..

وصلتُ متأخرةً.. ولازلت أنتظر، أن تعمل خطوط الاتِّصال لأطمئنَّ عليكَ. لكنَّكَ لم تفارقني طوال انتظاري..

في كل حينٍ أتساءل ونفسي عن حالك، ويأتيني الجواب مسرعاً، أنَّكَ هناك في مدينة يملؤك حبها.. ومليئة بدورها بالذِّكريات.. فأطمئن قليلاً..

وأدعو لكَ في كلّ صلاة أصليها، أملاً أن يحميك الرب، وهو العالِم بسرّي، وأملاً بأن يغفر لي وجودكَ في داخلي..

أتدري؟ في غيابكَ عني يأكلني العذاب لشيء لا أدري إن كنت قد اخترته لنفسي.. أم أنَّ القدر قد اختارني له..

كلّ ما أذكره الآن، أنَّني قلت لك، عندما بدأ العام الجديد في أولى نبضاته، بأنَّه علينا أن نحذر إدمان بعضنا لبعض

كنت خائفةً.

شغف...

عندما تغدق الدنيا في عطائها، وتدق الأجراس دقات الشغف، ترتدي الحياة رداء إغرائها.. لتقف على خشبة الأيّام تمثل دور بطلة جميلة.. ينقذها حبيبها من ثغر الموت كل مرة..

ذلك البطل الذي لا يموت.. ولا يُقهر.. ولا يبكي.. وربما لا يتألم..

لكي نستطيع فهم فكرة التَّعادل الدنيوي.. علينا أن نثق بالرب

ثقة عمياء.. وألا نتابع أفلام هوليوود ومثيلاتها الهندية..

ولنكن أكثر واقعية..

لا نشعر دائماً أنَّ ميزان حياتنا متعادل.. لفرط ما نعيش فيه من المتناقضات.. وضرب احتياجاتنا بقلوبنا وأحاسيسنا..

فشعورنا بالنقص دائماً.. ينجم عن الملل، إن لم يكن حقيقياً.. أو عن ماضٍ كان النّقص فيه مَنسيَّاً.. وعندما رحل أصحاب سعادته.. أصبحنا نعيش في ما ينقصنا فقط.. دون أن نوَلّي ما نملكه أي أهمية تُذكَر..

وبقينا نحتفظ بأساليب اتِّصالنا بهم، وبأفكارنا التي تخصهم، والأصح.. أفكارنا التي لا تغادرهم.. رغم أنَّنا نعجز عن التَّواصل معهم.. ونعجز أيضاً عن إيقاف الأماني في عودتهم وعودة تواصلهم..

أهمية الأشخاص تتناسب طرداً مع فراغنا الذي نعيشه بعدهم.. وتُركة ذكرياتهم التي تُغير على رمالنا بين الحين والحين، لتمحو كل آثار الفرح..

فهل يكون الحل بألَّا نجعل أحداً ذا أهمية في مسيرة حياتنا!..

التي وبعد الخوض فيها.. لا نعرفها مسيرة حياةٍ أم مسيرة موت.. لا ريب بالطَّبع في الموت، الذي أوجده الرب، ولكن الحديث عن الموت الذي يصنعه الأفراد.. الذي يؤلم الروح ولا يجهضها..

موتٌ وفيٌ يزورنا كل ليلة.. ونَعيشه بدورِنا قسرياً.. ونقدِّمُ له

أطباق الدَّمع كأمٍ تُطعِمُ جنينها.. وتبقى قلوبنا في إقامتها الجبرية.. تنفيذاً لأمر الحرمان.

* * *

- جميلةٌ عيناكِ أشعر بشوق الجائعين.. أحبُّكِ شغف كثيراً.
- أنا أيضاً أحبُّكَ.
- ماذا قلتِ؟
- ما بكَ ورد؟
- فقط أعيدي ما قلتهِ للتّو.
- أحبّكَ.
- يا لروعَتِها.. كل شيء أصبحَ جميلاً.. انظري إلى تفاصيلنا ومحيطنا.
- سأحفظهم جيداً.
- فليكن هذا.. شارع اعترافنا.
- ولمَ لا.. لكن الانتظار فيه كان طويلاً.
- أعتذر عن تأخري.. لكنّي في طريقي إلى هنا، شعرتُ أنَّ ثيابي ليست جميلة.. وعدت إلى منزلي لأختار شيئاً أخر أرتديه.
- كل ما ترتديه جميل ورد.
- أصل الجمال.. عينيكِ.
- شكراً.

- أتكلَّم عن الحقيقة، فلا تشكريني.

- لا، شكراً ورد.

- هيهه.. أين تودين الذَّهاب؟

- أي مكان تختاره.

- إلى الجنَّة.

- أي جنّة ورد.. أتظن نفسك ذاهباً إليها!.

- لا.. أظن أنَّ أي مكان تكونين فيه برفقَتي.. يشبه الجنَّة.

- أخجلتني.

- عليك ألا تخجلي مني بعد اليوم.

- إن شاء الرَّب.

- أخبريني كيف كانت رحلتُكِ؟

- عاديـة جداً.. هنـاك بعض المشـكلات بيني وبين جـاد.. ولا أدري إلى متـى سـأبقى هكـذا.. وأبي وأمـي عـلى خـلافٍ دائـم، بعـد أن تزوَّجَ بأُخرى وغادر البلاد.

- ما بكِ شغف؟

- لا شيء عزيـزي.. كنـت أفكر بـكَ كثيراً، لم يكن هنـاك جدوى من الاتصـال بك سـوى مرات قليلـة.. لأنَّ مكان بيتي هنـاك، فقيرُ التَّخديم تماشـياً مـع الظروف القاسـية التي يعيشـها السـكان هنـاك. وأنت كيف كانت رحلتكَ؟

– كانت جيدة.. كنت أحاول إرضاء أبي وأمي، وأخبرتهم عنكِ قليلاً، لكنّي احتفظتُ ببعضِ الأشياء التي سيعتبرونها خاطئةً حتماً.. وقدَّمت لهم بعض الهدايا باسمكِ.

– باسمي أنا.. ولمَ فعلتَ ذلك؟

– سأُخبرُكِ لاحقاً..

كنتِ طوال الوقت موجودةً في مخيّلتي.. رأيت الدُّنيا أشهى من خلال ذلك.. ولم أحضر إلى هنا إلا بعد أن أخبرتِني أنّكِ قد وصلتِ.. فجِئتُ إليكِ مُسرِعَاً.

– أحمد الرب على سلامتكَ عزيزي.

– نجحتُ بإرضاء أمي كثيراً، وكانت سعيدةً بذلك.

– جيد.

– أظنُ ذلك.. كنتُ سعيداً عندما أخبروني بنتائجي الفَصلية.. رغم أنَّني أخفقتُ في إحدى المواد، لكن لم أحزن على خسارتها، ربما أشعر بأنَّ هناك شيئاً أعظم، أسعى للنَّجاح فيه.. وأنتِ ماذا عنكِ؟

– لا بأس.. ولا أصدق أنَّني انتهيت بدون خسائر.. لكن ما هو الشيء العظيم الذي تحدَّثتَ عنه؟

– هو ليس شيئاً واحداً فقط.. سأخبرك يوماً ما.

– وهل ستتركني قلقةً أفكِّر وأتوقّع؟

– نعم، سأتركِكِ تتوقَّعين.

- لا أرجوك، ورد أخبرني.. أنتَ تَعرِفُ بأنَّني فُضوليَّة.

- سأُخبركِ لاحقاً.. ماذا عن جَوى؟

- ستأتي قريباً.. لكنَّها لم تستطع أن تنجح أبداً.. أظنَّها أخفقت في كل موادها!

- يا إلهي.

- هذا ما حصل على الأغلب.

- وماذا ستفعل؟

- لا أدري الآن؟.. ورد، ألن تُخفِّف من مشروبك الأسود هذا؟ إنَّ أذاه كبير.

- لكنَّه الأوفى على الإطلاق.. في كلِّ فرح وحزن.. أتدري إنَّها غالباً صفة الجماد.

- لكنَّه يُسبِّب هشاشة العِظام!

- فليسبب ما يريد.. منذ أن فقدتُ حلمي، بأن أكون لاعباً في النَّادي المحلي للمدينة لم أعد أهتم بذلك.

- ولِمَ فقدته؟

- لأنّي أصبت قدمي مرتين في المكان نفسه أثناء التَّدريب.. وحذَّرني أطباء الرّياضة بأنَّ إصابة جديدة في المنطقة ربما تجعلني أفقد شيئاً من وظائف قدمي.

- لا تحزن، إنّها مشيئة الرّب.

– في ذلك الحين، كنتُ حزيناً جدّاً.. ثمَّ عرفت أنَّ الأحلام خُلِقَت كي لا تتحقَّق.. أو خُلِقَت كي تموت، وتقتلُ معها في كل مرةً جزءاً منّا.

– ومن يدري ورد.. ليست كل الأحلام تموت!

– أغلبها يا حبيبتي تموت.

– لم أعرف أحداً أكثر منكَ تَشاؤماً حبيبي.. لمَ كل ذلك؟

– لأنَّ النَّظرة التَّشاؤمية السوداء تلك، هي الأقرب للواقع.. وما أحاديث الأمل إلا مصطلحات نُخدِّر بها أنفُسنا، وأعيننا، كي نُقنِعهم بأنَّ مَسيرة الحياة مُستمرّة.

– إنَّه حزنٌ وتَشاؤمٌ كبير.

– ربما.. ولكن كيف لا نَقبَل الحزن الكبير شَريكاً للحياة.. ونحن إذا أحببنا نفارق.. وإذا عطشنا لا نرتوي وإذا أفقدنا الجوع اتِّزان قلوبنا لا نشبع.. والصَّديق غداً، هو صديقنا اليوم ولكن بصورتِه فقط.. ومن كان يجري في مجرى الدَّم حوَّله مجرى دمعٍ ورَحل.. ثم نجلس بعد حين نشرب كؤوس الذّكريات كالسُكارى، ونطارح الفراش يا حبيبتي كالموتى.. ونصرخ بماء العيون كالمجانين..

بعد حينٍ، نبحث عن أحد يقلع منّا جذور الحنين.. نُطالع أقدارنا كل يوم.. ويَغزو ألبابنا مَلَل السِّنين.. تُحدِّثنا الرؤى بأملٍ قادمٍ بعد حينٍ.. ونصحو على تساقط أوراق خريفٍ، لا ندري أنَّه خريفنا..

وعـلى هيجـان ريـاح عمياء تغـرز فينـا السَّـكاكين.. بعدَ حـينٍ.. نلاحظ أنَّ العمر قد انتهى، بين الحين والحين.

– لقد ظننتكَ أديباً، لا طبيباً، ورد.

– إنَّكِ رائعة حتَّى في توقعاتِكِ.

– أتعني أنَّني أصبت؟

– قـد أصبـتِ فعـلاً.. فـالأدب أحـد الأشـياء التـي أحـاول النَّجاح فيها، لا زال الوقت مبكراً على كل ذلك.

– سأُصلي لأجلكَ.. وأطلبُ من الرَّب أن تنجح في ذلك.

– في الطب أم الأدب؟

– إنّي أرى فيـكَ الطَّبيـب النّاجـح فهـدوؤكَ يليقُ بذلـكَ.. وكل شيء فيـكَ مُناسـبٌ جـدَّاً لأن تكـونَ طبيبـاً ناجحـاً وفي كل الأحوال سـأدعو لك لتنجح في الطب والأدب معاً.

– والحب؟

– إنَّكَ ناجحٌ في الحب.. فلا تطمع.

– إنَّـكِ أحـدُ أسـباب نجاحـي في الحـب والأدب، أتدريـن؟ طـوال حيـاتي كنـت أتمنَّى أن أكـون طبيباً ناجحـاً كأبي، ولم أتخيل نفـسي أبداً، أن أكونَ مختصاً بشيء مستقلٍ عن اختصاصه.. ولكن أحببتُه بعدَ ذَلكَ.

– وما الذي جَعلَك تحبه؟

– هههه.. لن أخبرَكِ.

– ولمَ تضحك؟

– لأنَّكِ أنتِ.

– لأنَّني أنا! ماذا فعلت؟

– لأنَّكِ أنتِ التي جعلتني أحبه.

– هههه.. تباً لك ورد.. أربَكتَني.

– لمَ الارتباك حبيبتي؟.. في بعض اللَّحظات نتخلَّى عن أحلام راودتنا كثيراً، بمحض إرادتنا دون أن نملك لذلك مبررات كافية.. أحياناً تمرُّ علينا، وتطوي فينا صفحات كتبنا عليها كلَ شيءٍ.. لتصبح كأنَّها لم تكن. على قدر ألمها مُضحكةٌ أقدارنا.. كأنَّني جئت إلى هنا لألتقي بكِ فَقَط.

– أهلا بكَ عزيزي.. اترك دخانك الآن، وتناول طَعامَكَ.

– أمركِ سيِّدَتي.

– لا يأمر عليك ظالمٌ عزيزي.

– لا شغف أنتِ لستِ ظالماً.. بل ظالمةٌ.

– هههه.

– لمَ لا تأكلين شغف ما بكِ؟

– لا أملك شهيَّةً لذلك.

– كأنَّكِ عاشقة.. هذه أعراض العشق.

– وماذا عنك أيُّها الكاتب العظيم؟

- لا أدري، غير أنَّ الطَّعام لذيذ.
- أراكَ تأكل بشهيَّةٍ.
- ولمَ الحَسد؟
- ليسَ حَسداً أيُّها الأحمق.. لكنَّها عكس أعراض العِشق.. ألستَ عاشِقاً؟
- لا.
- ماذا قلت أيُّها الخائن؟
- نعم.. نعم.. عزيزتي نعم.. كِدنا نَكشِفُ الحقيقة.
- كدنا نقصُ رَأسَكَ يا عزيزي.
- هيَا بنا نخرج لنمشي قليلاً.. أريدُ أن أُخبركِ شيئاً.
- ماذا تريد إخباري ورد؟
- انتظري حتَّى نخرج.
- سأفعل.
- شكراً لك سيدي.. تفضلي حبيبتي.
- ها قد خرجنا أخبرني.
- انظري كم اللَّيل جميل.
- لكنَّه بارد.. ألا تشعر بالبرد؟
- وكيف يشعر العاشق بالبرد والمعشوق في الجوار؟

– نعم، إنَّه لا يشعر بالبرد.. وإنَّني لا أشعر بالبرد.

– هههه، واضح هذا.

– هههه، إنَّكَ تُربِكُني دائماً.

– ولمَ الارتباك.. الجاذبية الأكثر تكمنُ في عَفويَّتَكِ.

– وعيناي؟

– عيناكِ شيء عادي جدَّاً.. فكل العيون جميلة.

– هكذا إذاً أيُّها الأحمق.

– وهل أي أحد يستطيع أن يكون أحمقاً؟

– كم أنتَ مغرور ورد.

غروري..

غرورُ عيناكِ..

فكيف تنظرينَ إليّ..

ولا أكونُ مغروراً..

كيف لا أطلبُ..

عُمراً آخرَ..

وأدعو أن تمرّي عليه..

بعض مرور..

يا امرأةً..

كلّ اللُّغاتِ من يديها..
أبحرتْ..
وأنجبتْ شِعراً..
وشَيَّدَت قصوراً..
امشي على الرفاةِ..
مَشيَ السُّكارى..
والحاجب فخور..
وابتسمي..
ورُدّي لو سألوا..
رفاةُ صبيٍ..
أحبَّني شهور.
وبعض الحبِ..
كَسَرَ أضلُعَهُ..
عُنقاً.. وساقَاً..
وجذور.
ما كانَ في قلبهِ..
صبرٌ..
ولا الهوى..

كانَ عليهِ..
صَبور..
وصَلْتُهُ مرَّةً..
وفي وَصْلي..
من النَّارِ بحور
أحْرَقْتُهُ حتى..
انفتقَ غصنهُ الوليدُ..
ووَقَعَ كما الطُّيور
أغْرَقْتُهُ في العشقِ..
فالتوى عمود قلبه..
أثرُ عبيرٍ وعطور
بلغ قمّةً في الهوى..
ما بلغها العشاقُ..
على مَرِّ عصور

* * *

كارثتي أنتِ..
فضيحتي أنتِ..
روحاً وعمراً..

ويومَ موت..
وقبور
غلبني هواكِ..
بلا مُقاومة..
وقد كنتُ..
إذا التَّاريخ يلمحُني..
ينتفضُ ثم..
يثور
ما تجرأتُ لحظةً..
لأهجو حبَّكِ..
أو أشعل عودَ نارٍ..
على سطور

* * *

إذ قلتُ:
فؤادي ما بكَ؟..
ردَّ بنبضٍ..
إنّي ما عدتُ لكَ..
أسير

انظر ودعني بعينيكَ..
أعانِقُها..
يا ليتني خُلقت بصير
أو ذا جسدٍ..
لأتَّخِذَ من ما..
بينَ شفتيها..
سرير
وأنامُ..
كأهلِ كهفٍ..
في حمى عشقٍ..
قدير
يا ابنة الشمالِ..
يا قطعةَ قمرٍ..
يا شيئاً من نعيم الدنيا..
أحبُّكِ حباً كثير.

أحبُّكِ

* * *

ويحدث أن تأتي النِّهاية في البداية بفستانها المُخملي وكعبها العالي..

كأنَّها خطبٌ لا يُصد.. خطبٌ وقحٌ بما فيه الكفاية، لذبحِ رجلٍ ولا كل الرجال.. وإذابة أنوثةٍ في أعلى رُتب الأنوثة مكانها..

كل البدايات جميلةٌ.. والعِبرة في النِّهاية..

ذلك أنَّنا نبدأ بدون تفكير، ممارسين الجنون في أحلى صوره، جنونٌ يملؤنا إيماناً بأنّ كل شيء يكون على ما يرام.

وعندما يأتي التَّفكير بجيش أفكاره، نقعُ صَرعى خطواتهِ الثَّقيلة فوقَ وجدانِنا، ويدفع كل بداياتنا المجنونة الرَّائعة إلى الهروب، حيث المكان الآمن الوحيد لها في بطن ذاكرةِ الفؤاد..

مُتخلّين عن سعادةٍ كل مقوماتها شخصٌ وجنونٌ.. مُستمعين لنصحِ من قال: إنَّ للعقل أولويَّة الاختيار، مُتجاهلاً قدراته المعدومة على تحريك القلب.

إنَّ أسوأ ما يمكن حدوثه، هو الرَّحيل بعد فعلٍ جميلٍ.. لأنَّ ذلكَ الفعل سيبقى طوال العمر، يشفع لفاعله الذي أبقى على المفعول به.. مصلوباً بفعل رحيله، وليس للمصلوب قُدرةٌ على محاسبة أحدٍ قد رحل.

فارغةٌ هي الحياة بعد ذلك.. من كلِ شيء، يستطيع إخبارك أنكَ لازلت على قيد الإحساس.

حيث أنَّنا لا نقبل بحجم تعذيب الأيام.. بل ونصنع بالعقل عذابات أخرى، فنترك من نُحب ونركضُ خلفَ ألسنة مجتمعنا الحبيب، لنمحو أسماءنا المنقوشة هناك، بسبب مَنْ أو ما نُحبه ونهوى

فعلـه.. دون أن نـدري، أنَّنـا في لحظـة حاجتنـا لأي جُـزء مـن أي حُـبٍ تركناه، سيغدو كل شيء سواه صفر على الرُّكنِ الأَيسرِ من العَدد..

ونسألُ هنا.. هل كل من اتَّبعوا عقولهم وجدوا الرَّاحة؟

هـل سـيختار ذاك القائـل، أنَّ للعقـل أولويـة الاختيـار.. اختيـارات عقله، لو كان في مثل هذا المكان؟

هل ستنجح عقولنا بإخماد الماضي دون حاضر مُغري؟.

هـل سـيكون للأمـوال التي ربـما نختَارها بديلاً عـن حبِ أثـراً مُحرِّكاً داخل صدورنا؟

يقـول مـن يكبُرنا سِـناً وخـبرةً؛ أنَّ معظم قصـص الـزَّواج المبنية على الحب فاشلة!...

وذلـك لأنَّ الاختيـار كان خاطِئـاً، دون أن يُلقـي اهتمامـه عـلى فشـل العلاقـات الزَّوجيـة الأخـرى.. لأنَّ الاختيـار هنـا، هـو مـن عقـول جيلٍ مماثل.

يـا سـيدي.. إنَّ اختيـار القلـب يتناسـق مـع احتياجـات الـروح والجَسـد، وليس للعقل شـأنٌ في ذلك، لأنَّه لن يسـتطيع إرضـاء أرواحنا إلا من يملك كنز القناعة، وهؤلاء الأفراد نادرو الوجود.

وفشـل العلاقـات الزَّوجيـة العشـقية في أصلهـا، هـو ليـس لاختيارٍ خاطئٍ فقط..

بـل ربما ينتـج عن إرهـاق العقل للقلب نتيجـة أفكارٍ تُلقـى علينا ولا

تُناسبنا. وينتج أحياناً عن إحساسنا بالشَّبع الذي يدفَعُنا إلى أشياءٍ أخرى، وهذا مهمل غَالِباً.. لأنَّنا لا ندري أنَّ الرّوح تُشبَع.

مهما كنتَ جَائِعَاً ستأكل مقداراً محدَّداً كفيلاً بتغيير إحساسك، أو تستغرق أوقاتاً محدَّدة متشابهة لذلك، رغم اختلاف مقدار طَعامِكَ خِلالها.

لكن!..

علينا أن نذكر دائماً، أنَّ للعشق أثرٌ جميلٌ على الحياة قاطبةً، أثرٌ لن يصنعه التعقُّل، مهما بلغت قُدراتُه.. أثرٌ لن يُقاومه لا العلماء، ولا الأطباء، ولا المهندسين، ولا الأساتذة..

وأنَّ الصَّبر بدافع الفؤاد أطول غالباً من صبرٍ دافِعه العَقل..

وأنَّ أي إنسانٍ يختار شريكاً وهو ينتمي لجيلٍ آخر سيكون مخطئاً حتماً، لأنَّ مُقوِّمات الأجيال تختلف من الجدود وحتَّى الأحفاد.

فكيف لامرأةٍ تختار امرأةً أخرى رُبيت بطريقةٍ مختلفةٍ تماماً.. وتَرَعرَعَت في زمانٍ لا يُشبه زَمنها التي تَعتَبِره زَمناً جميلاً.

في موقف مشابه لهذا؛ اجلس أمام أمك، واسألها عن مراهقتها، وعشقها، وإذا لم يكن هو نفسه أب لك، اسألها هل تتمنّى أن تراه اليوم؟ وفي عينيها ستشاهد أنت الحقيقة..

ثمَّ اذهب إلى أبيك، واسأله عن تاريخه النِّسائي، واعرف من هي تحديداً الأكثر أهميةً وتأثيراً، فإن لم تكن أمّك اسأَله إذا ما كان يتمنّى

أن يلقاها يوماً، وانظر في عينيه لتُشاهد الحقيقة بنفسِكَ..

ولا أظنُ أنَّكَ ستَبقى في ذات البيت بعد ذلك.

تلك الحقيقة الواقعة على شفاههم المُبتَسمة، إذا كانت أجوبتهم ايجابية، أو عابسة إذا كانت أجوبتهم غير ذلك.. ستعلّمك أن تعيش العشق كما هو، وألَّا تترك لروحك لحظة سعادة عشقية مهدورة، وألَّا تَدع لأحدٍ فرصة تهديد سَعَادتك، حتى تنتهي بمحض إرادة الحياة، ويبدأ موعد الحساب ودفع الثّمن..

وهنا لا تندم، لأنَّك ستدفع أثماناً من القيراط الأول في كل الأحوال.

* * *

وتمضي الأيام، ويكبر العدد المعبّر عن العمر، فإن كانت سيرتك الذَّاتية تحتوي على الخسارات، ستبكي على أطلال خَسَارَاتِكَ، وتواجه انتقاداً لاذعاً كأنَّكَ أنت المسؤول المتَحكِّم الوحيد عن العاطفة، والوجدان والأَحاسيس وعليكَ اللَّوم..

وإن كانت سيرتَكَ الذَّاتية خالية من تلك الخسارات ستبكي أيضاً، على أيّام تكون عادة قلب الحياة مضت الآن وليست جديرة بالذّكر.. فلا قصةٌ تُحكى للأبناء، ولا ملحمةُ عشقٍ تملأ الأحفاد انبهاراً، ولا تجربةٌ تجعل من سامِعِها حَزيناً لأنّه لم يعشها، فتشعر أنَّ كل ما مَرَّ في حياتِكَ بعض نوباتٍ فقط، كنتَ أثناء حدوثَها سعيداً، واليوم عرفت أنَّها خاوية من التَّميز والاختلاف.

كلّ ما قصدته شخص يعني لك البدر في ساحةٍ من النّجوم..

إنسانٌ لا تُطبَّق عليه القوانين، ولا تجرؤ النَّظرية ألا تبرهن فرضية وجوده في الأحشاء خوفاً من إلغائها..

أحد بين الكثيرين يَخُصُّه العقل بالأعذار، وإن كانت وهميةً، وكاذبةً، ويبني له الفؤاد غُفراناً ليس له مثيل وليس لسواه أحقية في ذلك.

إنَّ علاقة الرَّجل بالنّساء، وعلاقة المرأة بالرِّجال تشبه إلى حدٍ بعيد علاقة الطبيب بعمله، يبدأ ممارساً عامَّاً ويُصبح بمرور الوقت أخصائياً، وتُثبتُ التَّقارير أنَّ أخطاء المُختصين فادحة.

ورد..

الرَّاقص على قبور النِّساء، نساءٌ لازِلن على قيد الحياة، لكنّهُنَّ أيضاً في قبور الغياب..

نظريّاً؛ تتعدَّد أسباب الغياب.. وعملياً؛ يكون الغياب واحداً.. وحياتياً؛ كل الغائبين يصبحون مع الوقت غرباء وعابرين.. كثرتهم تقتل أغلب الإحساس بأهمية وجود الآخر.

وإن كنتَ أخصائياً، يصبح هؤلاء غرباء أمامَك، وتبقى أمَامهم بلا تغيير..

لِيُدْمي وجودك المعدوم أيامهم، فتجعلهم يشعرون بالنَّدم لقرارهم السَّاذج، خاصةً إذا كان سببه شخصاً آخر خانتهم ظنونهم في وجوده الأبدي.. والحقيقة، أنَّه لن يبقى في الغالبية العظمى من الحالات،

فيَعودون إليكَ بلا إنذارٍ سابقٍ لهدفٍ مجهولٍ!..

ولأنَّهم عادوا إليك َغرباء، سيشعرون أنَّ هذا المكان لم يعد مكانهم، فيقرّرون الرَّحيل من جديد وهكذا.. يتكرَّر الموقف لمراتٍ عدّة، وبدوافع متعدِّدة، إلى أن يصبحوا غرباء ومُزعجين.

ويُتَّخَذُ في حقهم قرار الإخلاء..

أمرٌ نقع فيه كثيراً، لأنَّ الطَّبيعة الشَّرقية التي نعيشها معروفة بغيرَتِها..

والغيرة تقوم على إلغاء الكل دون واحد.. ويكون هذا الخطأ الأكبر.. ففي اللَّحظة التي يشعر بها طرفنا الآخر بامتلاكنا.. يفكّ قيود جناحيه.. ويبدأ العبث.

* * *

- كيف حالك ورد؟

- لازلت على قيد الحياة.. أنتِ؟

- أحمد الرب.

- لم أكن أعرف أنَّنا زُملاء في الكلية!.

- رُبَّ صدفةٍ خيرٌ من ألفِ ميعاد.

- أشكركِ وَجد.

- على ماذا تشكرني ورد؟

- أشكرك على مواساتكِ لي في حديثنا السَّابق، رغم أنَّنا لم نكن وجهاً لوجه، ولكنَّكِ استطعتِ التَّخفيف عني.

– لا تشكرني فهذا واجبي لكن أخبرني أهكذا يكون تأثير غياب المحبوب عليك؟

– صدقيني، لا يمكن للكلمات أن تعبّر عما في داخلي.

– أخبرني ما بداخلك.. مُحاولاً إخراجه.

– سأذهب لشراء شيء نشربه سوية.. ماذا تفضلين؟

– أي شيء بارد.

– انتظريني...

–... تفضَّلي وَجد.

– ابدأ؛ أودُّ سَماعَك.. وشكراً لك.

– يا صديقتي من أسوأ الأشياء التي يعيشها عاشق؛ أن يستطيع محبوبه خيانته في عذرٍ لا يمكن رَفضه أبداً.

– وكيف هذا؟

– يحصل هذا؛ عندما يحبُّ اثنين قلباً واحداً، الأول: لديه ما يكفي من الأوراق لِيُثبت أنَّه الأجدر، وهو من يعترف به المجتمع، والدين، ويعرفه المحيط بأكمله.. والآخر: لديه ما يكفي من العاطفة، ولا يعترف به أحد سوى القلب نفسه..

إنَّ هذا الصِّراع يعني، أنَّ هناكَ ضَحيةٌ هي المحبوب حتماً، وتضحيةٌ يقوم بها الآخر الذي ذكرته قبل قليل، ومُستبدٌ، فكرة انعزال وجوده عن كلّ الأشياء الجميلة مرفوضةٌ تماماً.. ورحيل فؤاد

المحبوب عنه أكبر من استيعابه، هو الأول، الذي يبقى مُمارِساً للقوة ومُتجاهلاً رغبة الطَّرف الثَّاني في البقاء أو الرَّحيل.

وبسبب وجود الورق يَرحَلُ قلب المحبوب ولا يستطيع عقله فعل ذلك رغم حزم أمتعته.

يقف خلف القرار أشخاصٌ لن يعيشوا قسوة فشله، أو يعيشوا القسم الأصغر منه.. يمنعون التَّراجع أملاً بأن يكون القادم أفضل، ولست أدري، كيف يكون الأمل موجوداً في من خاضَ تجربةً مماثلةً، وله موقع مؤثِّر في الحكاية؟ أو في من خاض، أو عرف بتجارب مماثلة أيضاً، حتَّى وإن لم يكن له موقعاً مؤثِّراً في الحكاية..

هنا.. أظن شخصياً، أنّ دافع الغيرة هو صاحب المفعول هذا، وليس الأمل.. والحِجة هي ككل الحجج التي ترافق تغييرٍ كهذا مثل؛ كلام النَّاس، سياق المجتمع، استبداد عقول، سأصفها بالقديمة احتراماً لِسنّها.. وهذه هي الصّورة لما أعيش فيه في الفترة الحالية.. وَجد.

– وما هي الصُّورة الخاصَّة بكَ إذاً؟

– الصُّورة الخاصة بي، هي أنَّني الآخر المُضحي على ما أظن، لأجل فتاةٍ تستحق بكل جدارة أن تكون سيدةً لا ضحيةً ألا تُعذَب، ولا تُظلَم، ولا تَحزن.

– لكنَّها خائنة!.

– إنَّ حبل الإعدام المُلتف حول العنق، والذي يتركُ مجالاً صغيراً

للتَّنفس أسوأ من قرينه، الذي يُنفِّذ مهمَّته خلال ثوانٍ.. في تزامن انعدام قدراتنا على فكِّه وخوفنا من الموت إذا ما شددناه..

تدفعنا حلاوة الروح، لأنْ نثور أملاً بنهاية المرحلة، أو نموت في هزيمةٍ نفسيةٍ تشبه العار..

وفي عُرف الخيانة التي تتحدَّثين عنها هناك نوعان، الأول: هو خيانة الروح والقلب، وهي الخيانة الحقيقية. والثَّاني: هو خيانة الجسد، وهي خيانة ثانوية التي يجب ألا تكون مهمة اجتماعياً. لأعذار كثيرة ومُحقَّة في غالبيَّتها، تتنقل بين المادة الهرمونية، وقوة ضغوط الحياة، والقسوة والملل والحرمان من السَّعادة، رغم تماس الأجساد، وانتماء هذا الفعل للأفعال الغريزيِّة، ثمَّ يأتيكِ انقلاب الحب إلى الكُره، والحضور المُحبَّب إلى الحضور المزعج.. ولهذا الشعور أثرٌ على الجسد، كما الروح، ففيه تكون الخيانة حلاً، والنِّفاق جميلاً.. فلا يمكن وصف امرأة بالخيانة إلا بعد معرفة تفاصيلها، والاطِّلاع على إحساسها، ومَنحى عاطفتها واحتياجاتها.. ومن يستطيع مُحاسبة وردةٍ على ذبولها، وهو لم يَسقها بما يكفي للحياة.. لا يستحق أن يملك سُلطة الحساب.. ولا يجدر بنا احترامه.

– ممتعٌ أنتَ حقاً.. لكنَّ حُبكَ هذا لن ينجح.. لمَ ترمي نفسك إلى الهلاك؟

– هذا التَّساؤل لا يُمكِنني الإجابة عنه، شيءٌ لا تكفي لوصفه الكلمات، شيءٌ يمشي في داخلي، لا أستطيع رؤيتها حزينة، أو باكية، أو

ذات مزاج سيء، ثمَّة شيءٌ لا أعرف قولَه لكِ.

– إنَّها في النِّهاية، ستذهب لذاك الذي سيصبح زوجها، وتبقى أنت وحيداً، ورد.. ربما أفهمك جيداً ولكنَّك تسير بخطاك نحو الهاوية!

– صحيح.. ها أنا أمامك أكاد أبكي لأنَّها غائبة.. أعاني لأنَّها تتألّم.. وليس بمقدورها فعل شيء..

وأقف بعيداً لا أستطيع الاقتراب. ليلة أمس التقينا صدفة في مطعمٍ قريبٍ، جلست أتأمَّلها طوال الوقت. وَجد؛ لم أرَ على شفاهها ابتسامةً واحدةً، كانت تتحرَّك كإنسانٍ بلا كرامة. لم يضحك في وجهها أبداً، في داخلي فرحٌ عظيمٌ يتألّم.. ووجعٌ يكاد يموتُ ضحكاً، ستذهب، أعرف في النهاية راحلة، وأعرف أنَّ نهايتي خُلقتْ قبل أن أبدأ، وربما أبدأ لأنتهي.

– لا تبكي ورد أرجوك.

– وماذا تودّينني أن أفعل؟ صدقيني، لو كانت سعيدةً هناك لما تعذَّبت مثل هذا العذاب.

– إنَّه اختيارك.

– لم يكن لديَّ خيار سواه.. لم تُقدِّم الحياة لي نساء إلا راحلات أو عابرات، كنتُ للرَّاحلات محطة ندم لن تُنسى، وكنتُ للعابرات عابرٌ سيذكرون خَسارته دائماً.. والبقية قدَّمتُ لهنَّ بصمة إبهامي.. بصمةٌ يراها العالم أجمع على جبهاتهنَّ، إذا كان بصيراً. بعضهنَّ قلت لهنَّ

نعـم، فأخذنهـا ورحلـن. والبعـض الآخـر قلت لهـنَّ لا، فـأصرَرن على وجودهِنَّ.. والفرق بينهنَّ دوافع الحرمان والشَّبع..

وإذا قدَّمـتُ لصَاحِبـات الإصرار ما يَرغَبـن.. لهجرَهُـنَّ الحِرمـان، وأتاهُـنَّ الشَّـبع ورَحَلـنَ.. ولو أمسـكتُ عـن الرَّاحـلات ما قدَّمتهُ لهنَّ، لأصررنَ على وُجودِهِنَّ..

ثـم بقيـتُ هكذا، حتـى عرفت أنَّ كلُ من سـيأتي سـيرحل يومـاً ما.. وليـس للعابـر أهميـةً تُذكَـر.. تألّمت حتـى أصبحـتُ أختـارُ الرَّحيل قبل البدايـة، وأضـع تفاصيـل حدوثـه قبـل حدوثـه، وأتوقعـه في اللَّحظات الأكثـر فرحـاً عـلى الإطـلاق.. وتمـلأ الكَلـمات مسـافةَ العنـق، لا أنـا أسـتطيع بَلعَهـا، ولا هـي تغـادر الحلـق، تغـصُّ الحناجـر، ويمتعـض الفؤاد، وفي أجنحة روحي خناجر قدريَّة مَغروزة..

أليست الأقدار مشيئة الرَّب.. أم أنَّ للقدر في الحب مشيئة أخرى.. أم أنَّ القصة تعود لنا نحن البشر.. عندما يكون القدر جميلاً نتفاخر في صُنعه، ونضعه على قائمة انجازاتنا. وأثناء قُبحه نعزل أنفسنا عنه ونعزله عنا لدرجة أنَّنا في لحظة من اللَّحظات ندَّعي أنَّنا لا نعرفه نهائياً..

هي طبيعة البشر!.

– اهدأ ورد.

– وكيـف يهـدأ ورد، وهـو أرض بـركان يثـور.. كل ما أنا فيـه الآن، سببه مشكلة واحدة فقط.

– وما هي؟

– أنَّ الإيعـاز العصبـي الـذي غـادر عينـي مُتَّجهـاً نحـو دماغي كان شـديد الفتـكِ بـه، وقَتَلَـه، ثم مشـى في تشـييعه إلى مثـواه الأول، وارتمى فؤادي حزناً على ذلك الفقيد في آخر حضن عرفه..

عرفت في حياتي نساءً كثيراتٍ.. فتيات عذارى، وفتيات سيدات، وسيدات، وسيدات لازلن فتيات.. أحببتُ قسماً منهنَّ ومنهنَّ من أحببنني.. لكنَّ حُبي ما التقى بحبهنَّ إلا في مرَّاتٍ نادرةٍ. والتَّأثير الأكثر لهذا اللِّقاء كان أمام سيدتهن التي خسرتُ وجودها خوفاً عليها، كانت بعيدة أيضاً وكنتُ بعيداً عنها، كلٌّ منَّا في وطن. وما التقيتُ عينيها إلا مراتٍ خمس، كانت هذه الأيام أجمل أيام مراهقتي حقاً. وبعد كل شيء أحسست برجولتي المعدومة أمامها، لأنَّ المسافات منعتني من الوقوف بجانبها عندما تحتاجني. ومنع البعد أصابعي من مسح دمعها عندما بكت، وكم تمنَّيت أن تربت يدايَ على كتِفها عندما تشعر باليأس.. فقرَّرتُ الرَّحيل عنها، لأترك لها مجالاً في حياتها لأحد يأتيها غداً، ويكون لها حقاً.

رحلنا، وبقيت تلك الفتاة خارج حسابات النّسيان.. وفِعلاً، لشدَّةِ النَّدم الذي واجهته بقرارٍ ظننته الأفضل، قرَّرتُ بعدَها ألا أرحل عن امرأةٍ أبداً.. وأن أُقدِّمَ كل شيء لأي فتاة تطلبه.. لأجل روح تلك الفتاة الرَّائعة، وأن أحتَمِل بأقسى قدرات احتمالي لأُكَفِّرَ عن ذنبِ اقترفَهُ عقلي بحقي وحقِّها.. وأظن أنَّنا قد بَكيْنا بعضنا كثيراً.

– ما اسمها؟

- وَلَه.

- لمَ لا تعود إليها؟

- لم يكن بمقدوري العودة عن قراري، لأختصر عليها عذاباً آخرَ أسببه لها، بعدما خرجتْ من عذابها السَّابق بخسارةٍ كبيرةٍ. لم أستطع التَّغلب على خجلي، لأعود إليها حبيباً. مضت الأيام وبقي بيننا تواصل بارد. أخبرتني بأنَّها تكِنُ لي مشاعر الأُخوة، لأعوضها عن حرمانها من غياب الأخ الشَّقيق. كنت أعرف أنَّها تكذب، لكنَّني قبلت بذلك، وأنا على علم بموت جمل عشقنا التي تسكن شفاهَنا وانتهاء مدَّة صلاحيَّتها.

- لا أدري ماذا أقولُ لكَ؟

- أخبريني ماذا أفعل فقد دمَّرني الغياب؟

- إنَّكَ اليوم تختار حبيباً تعرف سلفاً أنَّه سيغيب، فإمَّا أن تتراجع عنه، أو تتحمَّل مسؤولية قرار أحمق كهذا كل ما مضى قد مضى الآن، وليس له مكاناً إلا في جداول الذِّكريات، والدّروس والعبر.

- أظن أنَّني في المراحل التَّالية لمرحلة اختياري، وقراري الأحمق قد اتَّخذته مسبقاً، ولا يمكن أن أدعها في مستنقع الحياة، حتى لو اضطررت للغرق معها، سأُعرِّفُكِ عليها في الأيام المقبلة، لتعرفين وحدك براءتها، وطيبتها التي لم يخلق الرب مثلها بعد.

- يسعدني ذلك ورد، تأكَّد أنَّني سأساندكَ كلَّما احتجت لذلك، ومهما اختلفت آراؤنا.

– هذا من فضلك وَجد.. أشكركِ.

– هيا بنا نذهب.. فالجامعة ستغلق أبوابها بعد قليل.

– أنت على حق.. مضى الوقت سريعاً.

* * *

حبيبتي..

يتوجَّبُ عليّ في مرحلةٍ كهذه، أن أقف صامداً صامتاً أمام كل هذه العواصف الجارفة الثَّائرة..

يتوجَّب عليّ أن أحافظ على حبٍ خلق في داخلي، ودخل اختباراته الأولى ببريقٍ مذهلٍ شتَّت تركيز البصر، وربما أعمى البصيرة، واجتاز مرحلة السيطرة بنجاحٍ كبيرٍ عالي المستوى، مُحطِّماً كل الأرقام القياسية لأسياد الماضي جاعلاً مهام كل الوافدين الجدّد مهاماً صعبة..

يتوجّب عليّ الدِّفاع عنه، وعنكِ، بعقلي وفكري، ولساني وقلبي على طريقة الكبار..

لأجل أنوثتكِ التي تمنَّيت جداً بقائها أمامي أو بجانبي طويلاً.. لأجل فمكِ المرسوم بريشةٍ ليس لإبداعها مثيل، وكلامك الذي تأملتُ أن يختفي الكلام دونه.

عزيزتي..

كل من شاهد سكرات احتضاري في الغياب، قال: «إنَّ العشق فيكِ حرام».. ظناً منه أنّي كنتُ قبلَكِ على قيد الحياة، وعندما أخبرته

بتفاصيلكِ.. جُنَّ جنونه متعجِّباً مُتسائلاً.. وراح يخبرني أنَّ عقلي مازال في رأسي، وهو لم يدرِ أنَّ عيناكِ الغجريتين قد شلَّته سابقاً، هو الذي لا يدري، أنَّ الحياة تتوقف في آخر ظهورٍ لكِ..

أشعر أنَّهم على حق عندما أشمّ رائحة عطرك في كل الشوارع التي عَرَفتنا، والأماكن الشاهدة علينا وأنتِ هناك..

ولا يكاد يُبصر الشّعور نوراً إلا وأتى دمع عينيك الباكية من الذاكرة مُدمِّراً إيَّاه.. ليزيدني ذلك إصراراً على تقديم أطباق الفَرح.. ولو كان ثمن ذلك نهاية الدُّنيا.

في الحقيقة أواجه انتقاداً هائجاً.. كلُ شيء يقف ضدي، ورغم ذلك أراه جميلاً، وأتلذَّذ بالتّحدي..

يغلي الدَّم في رأسي، عندما يُخيل لي أنَّه قبَّلكِ عند وصوله أو ضمَّكِ أو قدَّمتِ له مشروباً أو شيئاً يأكله..

ثمَّة أحد يُعارض دائماً وجود الأشياء الجميلة حبيبتي بقصدٍ أو بغير قصد، وربما يكون شيئاً صنعناه بأنفسنا تحوَّل ليقف ضدنا، مُشكِّلاً حاجزاً بيننا وبين ما نريد.

أشعر بوحدتي، كأنَّ العالم يتألّم في داخلي، وتتحرَّك جيوش الإنقاذ مدجَّجةً بالسِّلاح لأقف أمامها حائراً، لا أدري كيف أخبرها أنَّكِ لست عدواناً، ولا احتلالاً.. وليس هذا ارتداداً عن دين العشق.

تكون الحرب حرباً استثنائية، ليست ككل الحروب عندما تكوني

أنـتِ الطَّـرف الأول المُحـارِب، وتكوني أنـتِ أيضـاً طرفاً آخـرَ للدِّفاع. فـلا تُرفـع الرَّايـات، ولا ينتـصر طـرفٌ، أو يمـوت. فكيـف تهاجمين نفسك، وتُدافعين عنها في آنٍ معاً؟..

وكيف تصدين نيراناً صديقةً قادمةً منكِ إليكِ؟..

لتبقـى الحيـاة في حـرب اسـتنزاف، لا يـدري أحـدٌ كيـف سـتكون نهاياتها.. أو متى تأتي.. حينها تصبحين في ضرب من الجنون الحقيقي..

أتـدري حبيبتـي.. أكثـر الأشـياء إيلامـاً أكثرهـا حيـاةً، لهذا أظـن أنَّ قصَّتنـا لـن تمـوت حتـى لـو بقيـت سراً، بينـي وبينـك.. حتى لـو بقيت سراً، بيني وبين نفسي وهُدبي..

أصبحـتُ عـلى حافـة إتمـام ربيعـي العشريـن، وأنـا الذي تختلـط فيه كل الأعـمار منذ الـولادة، وحتـى الكهولـة.. كأنَّني لازلـتُ جنيناً يبكي مُناديـاً اللَّبـن.. وطفـلاً ينتظر هديـةً من الشـوكولا.. ومراهقـاً لم ينضج بعد.. وشـاباً يسـعى في مناكب الأحلام.. ورجلاً مسـؤولاً عن سيدته.. وكهلاً يريد إتمام حياته بجانبها حتَّى الممات..

شغف..

وجهك المُبتهج دائماً يُشعرني بعمق الحزن الذي يسكن عالمكِ...

عندمـا رأيـت اسـم جَـوى عـلى شاشـة هاتفـي النَّقـال، لمـعَ قلبـي.. عرفـتُ أنَّهـا وصلـت إليـكِ. شـعرتُ بـشيء مـن الطُّمأنينـة يـسري في داخـلي.. لم تذكـر أنَّـكِ سـعيدة.. أوصلـت لي سـلامكِ ليدخـل ويجلس

متربِّعاً على الروح..

ولكن ماذا عنكِ؟..

كيف حال يديك المُسالمتين.. وقلبك الصَّغير المتألم؟..

كيف أصبحت نظرات عينيكِ التي أحببتها.. وما الكلام الذي تُرددينهُ عني؟..

هل لازلتِ تحبينني؟..

يكاد يخنقني الخوف الآتي كملكِ الموت، مُحدِّثاً إياي عن رحيلٍ، ربما تقومين به عني وليس إليْ..

هل تعرفين كيف تُنزع الروح من الجسد؟..

أو كيف تُفتح أغشية فؤادٍ لازال حياً؟..

إنَّني أتعلّم ذلك الآن.

أشتاقُكِ جدَّاً حبيبتي.

* * *

كثيراً ما نحتاج أوراقاً نكتب عليها فضائحنا، نريح عليها ضمائرنا، نواجه الحقائق، ونصارح أنفسنا بأشيائنا المُربكة، والمُحبطة، نخبر من أزعجونا بأنَّهم أزعجونا، لكن بصمتٍ قاتلٍ يحرق أعصابنا..

هناك على الورق تُكتب الحقيقة بدون خوفٍ، ولا تغيير..

يَشغَلنا الماضي كثيراً بمفعول الغائبين في حاضر خالٍ من الإغراء، نتأمَّل كبرياءنا المهزوز، وأيامنا الفارغة، باحثين عن حلٍ أو بديلٍ..

وتكبر اللَّحظات المؤلمة في رجاءنا للكبرياء بالتَّماسك..

وتبلغ ذروة شبابها أثناء استغراب المحيطين بنا لحالٍ نعيشه ألمَّ بنا على حين غَرَّةٍ.. نتمنى أن نكون فعلاً مجانين، أو نُصاب بالزهايمر الكبير..

جميلةٌ هي الحياة، بدون إحساسٍ وذاكرة..

فتنسى أنّكَ فَرَشت فؤادك كَسُجادةٍ حمراءٍ، وأنَّ هناك من وقف عليها، ورفعَ رأسه، وابتسم، ثمَّ غادر. وتنسى نزاع روحك أثناء الخبر. وتنسى حتَّى شعورك الآني..

ستظن وقتها، أنَّ دمعك سال ليغسل عينيك فقط لا أكثر. وتنسى أنَّ هناك من أراد الحفاظ عليك فعلاً، لكن بطريقته التي مزَّقتك ولم تكن تناسبُك أبداً..

فحافظ على اسمكَ الموجود ضمن قوائم الأشخاص، وصورتكَ كانعكاسٍ لا إرادي للعين، لا يمكن الاستغناء عنه، وليس هناك قوة قادرة على إخفائه إلا قوة الرَّب ومشيئَته.. ليغزوك البرد الكثيف مجدَّداً، مُستغِلاً تلك الشَّوارع المفتوحة في صدرِك وقلبك الذي لم يعد يشتهي شيئاً.. ووسط محيطٍ كالبركان يحترق كلّ شيء..

لا تحزن.. إنَّه مجرَّد عابر سَبيلٍ، ومضى!..

التَّعلق بشدةٍ يخلق أشياء أخرى شديدة. سلباً وإيجاباً يُساء فهمها أحياناً، ويُساء لأَصحابها حينها.. وفي تعدّد المرات عاملهم كما

يُعاملونـك، أشـعِرهم أنَّ هنـاك مـن يُضاهيهم إن أشـعروك بذلـك. ردَّ العين بالعين، واكتم ما فيكَ ليبقى فيك.. ثم تَلذَّذ بالألم..

غـداً يرفـع السّـتار عـن الأرواح، وتُكشَـف حقيقـة كرههـم لك، أو محبتهـم.. سيُحاسـبونك على ما فعلت ناسـين أو مُتناسـين أنَّها أفكارهم، وأفعالهـم.. اكتشـف بنفسـك الآن أنَّهم لا يسـتحقون أكثر مـن العبور.. وأنَّ الحديث للعابرين لا يَشفي..

ولـو غـرزتَ كفَّيـك في صـدركَ، وأخرجـتَ فـؤادك لتُهـدي كل من تحب قطعةً منه..

ربما ستواجه سؤالاً من أحدهم يقول لك: أين الباقي؟

بـدل إعطـاء أهميتـه لعملـك الـذي قمـتَ بـه لأجلـه.. ولا تـدري أطمعاً هذا أم حباً؟

وربما تجد من لا تعجبه قطعتك تلك.. ولا يفهم معناها!..

إذا شـعرتَ بذلـك يومـاً وخاصـةً، إذا كنـتَ لا تملـك القـدرة عـلى التَّضحيـة بدون انتظـار المقابل. فاحتفـظ بقلبك، ولـو كان مقطَّعاً.. ولا تُهدِهِ لأحدٍ كَائناً مَن كان..

غـداً، ستحتشـد الدنيا حُزنـاً عليكَ.. ويندم كلُّ من فتح لـكَ أبواب الخـروج.. لن يعـرف أحـدٌ أهمية وجـودك ما لم يعـرف ما يُخَلِّفـهُ غيابكَ من حيرةٍ، وقسوةٍ، وأرقٍ..

وفي كل الأحوال هناك استثناء، وعليك أن تَهديه لمن يَستَحِقَّهُ.

* * *

ورد..

هنالك شيءٌ غبيٌ على حقٍ يعبث في داخلي، ولا أستطيع ردَّه.. لأنَّ امرأة شرقية مثلي لا تملك الحرية، ولا تملك الشَّجاعة، ولا القدرة.. لتكشف الستار عن حبٍ، هو في الأصل خيانةٍ في مجتمعٍ عاجزٍ عن تبرير أي شيء يخص النّساء..

ورد..

يأكلني العذاب يا حبيبي؛ يا حُضناً دافئاً يخدرني.. يُسكرني.. يُبلّلني.. يُجفّفني.. يحملني.. يَصلُبني.. يقتلني.. يُحييني.. ويَصبّ عَليّ الفَرحة.. ويَتركُني..

لن يفهم أحدٌ ما كان يجول في خاطري عندما رأيتكَ.. لن يصدِّق، أنَّ كل ما حصل كان مُخطَّطاً قَدرياً بحتاً. لن يغفر لي هذا العالم الذي سامح أبي مراتٍ ومراتٍ..

ورد..

سأتلو للدنيا تراتيلَكَ، وأصلي لأجلكَ كثيراً.. لأنَّكَ الحبيب الذي أحيا كبريائي.. وضخَّ الحياة في كل شيء.. سأقول بكل شجاعتي، أنَّ اختياري كان أحمقاً يوم اخترت جاد.. هرباً من بطش أبي.. وما كنتُ أعرف، أنَّني اخترتُ رَجلاً سأهربُ منه بعد حين..

ورد..

لأنَّـكَ الفرحـة التـي أنام بهـا، لأنَّـك اللَّهفة التـي أصحو بهـا، لأنَّكَ الحنـان الـذي يلملمني من المأسـاة في كل مـرةٍ.. لأنَّكَ الصَّـدر الواقع في قـاع كل الحفـر التـي وقعت فيهـا، منذ أن عرفتـكَ وأنتَ ابتسـامة تخترق كل جدران الحزن.. أحبك جداً..

وكيـف لي ألا أحب رجـلاً كلما مال كتفـي وجدته بجانبـي؛ وارتميتُ عليه..

كيـف لا أحبـكَ وأنتَ حقـاً أمنيةٌ لـكل النِّسـاء، وفي كل يـوم ينقضي بوجود جاد يزداد حبي لك أنتَ، ويهرب كل شيء منه مُهرولاً إليكَ.

ورد..

أظن أنَّ جاد سيغادر المدينة غداً.. وأنا على أتم الشّوق إليك حبيبي..

أتمنى أن تكون بخير..

* * *

- ورد أين أنت؟

- في البيت.

- حاولتُ الاتِّصال بكَ كثيراً.. لماذا لم تجبني؟

- لم أكن صاحياً.

- ما بك ورد.. هل أنت بخير؟

- لا شيء شغف.

– لكنَّ صوتك ليس طبيعياً.. وكلامك مختلف عن عادته.. أرجوك أخبرني ما بك؟

– أظن أنَّني كنت في حالة من الإغماء.. شغف أحتاج إلى جرعةِ دواءٍ سريعةٍ.. هل من الممكن أن تجلبيه لي؟

– بالتأكيد حبيبي.. أخبرني ما اسمه؟

– سأرسل لك رسالة نصية باسمه.. مرفقاً بعنوان بيتي.. لكن، لا تتأخري أرجوكِ.

– سآتي إليكَ بسرعة.

– شغف استخدمي المفتاح الذي أعطيته لكِ سابقاً.. لأنّي لا أستطيع مغادرة فِراشي.

– لا تقلق.

– حبيبي.. لقد أتيت.

– أهلاً بكِ في بيتكِ.

– هيَّا لتأخذ الدّواء.

– شكراً لك.

– اجلسي بجانبي.

– استلقي ورد.. وأخبرني ما الذي حصل؟

– لا أدري ماذا حصل صدقيني.. لكن، هذا من أعراض المرض الذي أصابني سابقاً.

- لماذا لم تعالجه؟

- ليس له علاج حتمي.. كل الأدوية أدواتٌ لتخفيف آثاره.

- وما هي آثاره؟

- كما رأيتِ.. المصاب بهذا المرض يفقد الوعي أحياناً لفتراتٍ معينة.. يقوم أثنائها بحركاتٍ لا إرادية متتالية وسريعة جداً.. دون أن تُسجِّل الذَّاكرة شيئاً منها.. ثم يهدأ، ويدخل في حالة من السُبات.. إلى أن تقوم الأجهزة العصبية بتنظيم نفسها.. وإعادة الحالة الطَّبيعية.. وذلك يستغرق أوقاتاً متفرقةً لدى المرضى.. ويختلف بحسب شدة المرض.

- لكن ذلك يعدُّ خطراً على الحياة.

- نعم.. تتعدَّد الحالات، لكن الخروج عن الوعي في ظروفٍ محيطيةٍ غير مناسبة قد يؤدي إلى الموت فعلاً.. فربما تكون لحظة فقدان الوعي تلك في وقت يقطع به المصاب شارعاً.. أو يعمل بسكينٍ حادَّة ولن يشعر بأي شيء يفعله أو يرتطم به.

- استرح الآن.. ورد أرجوك.

- أنا بخير لا تقلقي.

- كيف لا أقلق عليك وأنت حبيبي.

- عندما تكونين بجانبي.. أشعر بالرَّاحة كثيراً.

- سأبقى بجانبك.

- ستبقين بجانبي فقط؟

– وماذا تريد غير ذلك؟

– اغمريني.. وضعي قبلة شفتيك عليَّ لأزداد تألّقاً.

– وماذا تريد؟

– ضعيها هنا.. لأزدادَ فخراً بكِ.

* * *

سـودُ اللَّيـالي مـرَّتْ طويلـةً
والجـوى في الأحشـاء يَقضـمُ
ربيـعٌ جديـدٌ عـلى الموعـدِ
فـماذا عـن موعـد مُبهـمُ؟
ضـاقَ الفـؤادُ بحـسرةٍ
جَـفَّ الوريـدُ وسـاءَ دَمُ
منـذ أنْ رحلـتَ.. واللَّيـلُ
لِجـمالِ لياليـكَ يَنتقـمُ
يـا وَجَـعَ الكلـماتِ حـينَ تُنسـى
يـا وَجَـعَ قلـبٍ شـاردٍ يَكتُـمُ
تسـاءلت في حنـانٍ عنْـكَ
عـن عاشـقٍ كانَ مُتيَّـمُ

فــردَّ الصــدى عــليَّ.. إنْ
هــو مشــتاقٌ.. لعــاد مُرغــمُ
لمــن أشــكوكَ يا قمــري؟
والمُقــلُ مــن دمعهــا تَسـأمُ
علقــماً بلَّــلَ الدُّنيــا.. ومــا
أحــلاهُ مــن زنــودكَ علقــمُ
ذكــرتُ الخَمْــرَ ومــا يفعــلُ
وقلــتُ لا بــدَّ لمــن رآكِ يفهــمُ
وعينُــكِ الغجريَّــة مجرمــةٌ
وعينُــكِ بأهــلِ الهــوى تُجــرمُ
والنَّهــدُ إذ يمــوجُ يذبحُنــي
واللَّبيــب مــن الإشــارةِ يَفهــمُ
وعُنــقٌ أبيــضٌ شــامخٌ كعمــودِ
ثلــجٍ مــن الســماء يُتَمْتِــمُ
شــفةٌ مُحتالــةٌ وشــفةٌ مُحتالــةٌ
تُطبقــان.. وفِتْنَــةٌ ومَبســمُ
يــا امــرأةً بنســجِ الســماء
تكحَّلــت أهــان بُعــداً مُفعــمُ؟

صِـــلي مُلوَّعــاً امتهـــن حبَّـــكِ
فحبَّــاً بـــلا وصلـــهِ علقـــمُ
والمـــرُّ مـــن يديـــكِ مُمتـــعٌ
فـــما بالـــكِ بشـــهدٍ يَهجُـــمُ
اســـقني لعـــلّي إذا ما شربتـــكِ
يـــــــرتـــــــوي الـفـــمُ
وأمـــلأ الســـماء كلّ ليـــل بنـــوركِ
وأصبـــغُ بلـــونِ نـــاركِ أنجـــمُ
ســـود الليـــالي مـــرَّت طويلـــةً
وغـــداً لـــو تشـــائين أكـــرمُ
أســــــودْ

* * *

والبسي فستان المغروم بهم.. فطرحة العروس تنتهي بعد أشهر.. وطرحة العشق لا تموت.. ويبقى بريقها المجنون طويلاً..

واضْبُطْ على عنقكَ ربطة المعشوقين.. فربطة الزَّفاف تُفَكُّ بسرعةٍ.. وقميص الحب ما دام يَلبَسُكَ يبقى مثيراً للأنظار دائماً..

لكل شيءٍ نكهة خاصةً به، ولكن في حضرة العشق تُصبح النَّكهات استثنائية..

فلتـأكل الحياة بكل شـهيَّتك.. لأنَّها غـداً سـتأكُلك، دون مبرِّر، وبلا رحمـة.. وكي تكـونَ مُسـتعِّداً لقتل النَّدم عليك أن تشـبع منهـا.. قبل أن تتحوّل إلى لقمةٍ سَائغةٍ لها..

ولأنَّـكَ الخـاسر الأكـبر في النِّهايـة.. احمـل معـك شـيئاً يواسـيك، ويجعلـك أكثـر تقبُّـلاً للخسـارة.. شيء يُزرع بـين السـطور لتصبح أجمل مما هي عليه..

ولا تحـزن، عندمـا تخـبرك الحيـاة بأنَّها انتـصرت عليـك.. لأنَّ الطَّمع الـذي تحويـه طبيعتنا البشرية يجعلـك ترى كل ما لم تحصل عليه؛ خسـارة لـك، وكل ما حصلـت عليـه مهـما كان ضخماً شـيئاً بسـيطاً، إذا ما قورن بما ندّعي أنَّنا خسرناه.

هـي اللاعـبُ المرفـوعُ دائماً.. وأنـت الملعوبُ بـه المصلـوبُ بفعلها.. ماضياً.. ومضارعاً..

وربما أمراً..

لكنَّهـا بدونـك عابـرةُ سـبيلٍ، وسـتمضي، كحَفنةِ تُـرابٍ أنـت فوقها اليـوم، وغـداً تكـون تحتهـا.. سـيغفرُ لـكَ الـرَّب كل خطايـاك.. إذا ما أحببـت لأجله ببراءتـكَ.. وصفائـك.. ووفائـك.. وقدَّمت لمحيطك مثالاً حقيقياً عن روعة ما صنعه الخالق في هذا الوجود..

لأنَّنـا خلقنـا كـي نعيـش، ونسـتمر.. بـكل ما تحويـه حقائبنـا مـن ألمٍ وأمـلٍ.. فهـما وجهـان لمزيـج رائـع فيـه فلسـفة الاسـتمرار.. وأحدهمـا

بـدون الآخـر يفقد معناه، رغـم تسـيُّده الدُّنيا.. وكِلاهما أسـباب للحب ونتائـج عنـه.. والفـرق يكمن في غلبـة أحدهما على الآخـر.. وقدراتنا في التَّصرف، والتَّعامل مع ذلك..

ومـن الخطـأ إلغاء طرفـاً منهـما؛ لأنَّ ذلك يجعـل الطَّـرف الآخر مملاً، ولو كان مفضَّلاً لدى البعض، ويخلخل موازين الحياة..

* * *

هنـاك مـن بيننـا وبينهم عُقـد ليس لها حـدود، ورغم ذلـك نتمنَّى لهم البقاء.. ويتفاخرون بنا أمام النّاس.. والعكس حتماً بالعكس..

ولـو كان أحـدٌ منـا يذكـر، أنَّنا كلَّـما ازددنا ألمـاً، ازداد هروبنـا.. وكلَّما عاثـت بنا الأشـياء عبثـاً، ازداد تمايل الـروح رقصاً لا علاقة له بالسَّـعادة أو الفرح..

لـو كان أحـدٌ منـا يذكـر ذلـك، لتغـيَّرت كل مسـارات الحـوار بيننا، وخرجنا منه كلنا راضين عن أنفسنا وعن الطَّرف الآخر..

ولكـن.. عندمـا تُنسـب التهـم إلينـا، وتُجـرَّد أفعالنـا مـن أهميتهـا، وأسـبابها، ويُقـال لنـا أنَّ كل إرادتنـا ليـس لهـا وجـود.. ولم تكـن لتغـير شيء، ما حصـل بوجودهـا سـابقاً. نتسـاءل بقلقٍ عـمَّا فعلنـاه، وتدور في أرواحنا أحاديث كثيرة ناتجة عن مثل هذه التَّساؤلات..

فما هو الحل إذن؟

إذا كان لإرادة الطَّـرف الآخـر الفضـل في كل شيء، فنحـن هنـا

للاستمتاع فقط. وعندما تنتهي المتعة ينتهي كل شيء وهذا حتماً لن يدور في بال الطَّرف الآخر..

وإذا كان وجود إرادتنا، وعدمه واحداً، سنفقد معنى وجودنا، ويؤدي ذلك إلى انتهاء كل شيء أيضاً، ولا أظن أنَّ ذلك سيدور في بال الطَّرف الآخر أيضاً..

وإذا كان لإرادتنا الفضل في كل شيء، سينتهي كل شيء عندما نريد، وهذا سيُغضِب الطَّرف الآخر حتماً.

ماذا يكون الحل؟

من أغرب الأشياء التي تمرُّ بنا: أن يقدِّم لنا الطَّرف الآخر حرية القول، والفعل.. وتُسلب عندما نقول أو نفعل شيئاً ما ليس في قائمة إعجابه، فالحقيقة: أنَّ أحدنا يسعى دائماً للانتصار في كلِ شيءٍ..

والحقيقة الأهم: أنَّه عندما يغلب ألمنا ألمنا، سنقبل بكل شيءٍ، مهما كان حبنا له بَسيطاً، والعكسُ بالعَكسِ.. عندما يَغلب ألمنا ألمنا، سنَرفض أيَّ شيءٍ مهما كان حبّنا له كثيراً..

وعندما نقبل بشيءٍ رغم غلبة الألم.. سيحملنا الإرهاق على جناحَيه.. وفي أغلب الحالات، لن يعتبر الطَّرف الآخر أنَّ هذا شيئاً مُهِمَّاً.. وربما لن يشعر بوجودهِ أَصلاً..

وعندما نرفض شيئاً رغم غلبة الأمل: سيحملنا النَّدم على جناحيه، ونفعل كل ما بوسعنا فعله لنُخفي ذلك..

وربما يكون هذا دافعاً يجعلنا نقبل بما يجب علينا رفضه، وهذا ما يُعرَفُ بالوهم بعد ذلك..

أو نرفض ما يجبُ علينا قبوله، وهذا ما يُعرَفُ بالخَطأ..

في المجمل..

يكون الحل دائماً عبر المواجهة الشَّرسة، والحرب المفتوحة بيننا، وبين أوهامنا، وأخطاءنا، ومدى حبنا لذلك..

وتذكَّر دائماً: أنَّ التَّعامل مع النَّتيجة يَفتَرض التَّعامل مع السَّبب لضمان النَّجاح..

وعندما تحب أن تفعل شيئاً ما لا يحبه الآخرون، فافعل.. لأنَّكَ إن كنتَ مَلِكاً، أو كنتَ جندياً، ستتحمَّلُ عِبءَ الخَسارة في كلِ حَربٍ تَدخُلها إن خَسِرتَ فيها..

ولا تظن، أنَّ الثَّمن الذي يدفعه الجندي أقل من ثمنٍ يدفعه الملك. لأنَّ الفوارق الإنسانية بسيطة، وفي ذلك مقومات تلعب دوراً مهماً..

وكلنا في الحياة جنود، وما يُفَرِّقنا هو اختلاف الرّتب التي يختصرها عطاء الرَّب، وحكمته في ذلك..

ولِيَحْمِلَ صدرك ارتماءاتٍ قويَّةٍ، فأنت بحاجةٍ لسواعدِ من يرتمي مرفوعةً إلى السَّماء. وإلى شفاه قلبه ترتّل لك الأماني وترفع لك الدُّعاء.

* * *

– شغف.. هل أنتِ سعيدة؟

– سعيدةٌ بوجودك وردي.. وأدعو الرَّب أن يحميكَ دائماً من كل شيء، ويحفظ وجودَكَ.

– هل أطلب منكِ شيئاً؟.

– ولمَ لا تفعل؟ اطلب ما شِئتَ.

– عندما ترفعي سَاعديك إلى السَّماء، فارتجي الرَّب أن يحفظنا معاً، أو يحمينا معاً، ولا يُفَرِّق بيننا شيءٌ.

– وهل تفعل أنت ذلك؟

– بالتَّأكيد أفعله في كل وقت.

– سأفعله إذاً.. أخبرني ماذا تودُّ أن تُهدى اليوم؟

– في يوم ميلادٍ عظيمٍ كهذا.. أتمنَّى هدية عظيمة.

– مثل ماذا؟

– لا أعظم من وجودكِ حبيبتي.

– أخجلتَني ورد.

– دعكِ من الخجل.. ولنذهب لشراء هديَّتَكِ.. ماذا تحبين أن تُهديني؟.

– سأهديكَ هديةً عظيمةً كما شِئتَ.

– ولا مانع أن تحتوي هديتَكِ شيئاً مفيداً آخر.

– أيُّها الغبي.. ماذا تريد أكثر من إفادتي هذه؟

– سأترك ذلك لكِ، فأنتِ حبيبة الغبي.

– هاهاهاها.. أرجوكَ لا تفعل!

– لنشاهد في الأسواق، لا أدري ماذا أُحبُّ أن أُهدى حقاً.. سؤالٌ مُتعِب.

– أحبُّ هذا المكان كثيراً.. غالباً ما أشتري منه أشيائي.

– وهل ستشترين لي أشياءَكِ؟

– تباً لكَ.. لديه قسمٌ مُخصَّصٌ للرِّجال.

– هاهاهاه.. هيَّا فلندخل، ونشاهد.

– هيَّا.

– انظري، أظن أننا وُفِّقنا هناك عرضٌ على الأزياء الرجالية.. ثلاثة بسعر اثنين.. اختاري لي شيئاً أُجَرِّبه.

– مثل ماذا؟

– أي شيء تُحبينَهُ.

– انظر إلى هذه.. أظنُ أنّها ستكون مناسبة جداً.

– هاتها.. سأدخل إلى غرفة تبديل الملابس.. انتظري ندائي.

شغف.. انظري.

– أووه ورد.. تبدو رائعة.

– هل سأجذب أنظار الفتيات هكذا؟

– ورد..

– نعم.

– أودُّ ألا أكـذب عليـك.. إنَّهـا لا تليق بـكَ أبداً.. فلنختر شـيئاً آخراً حبيبي.. هيَّا.

– سأطلبها إذن.

– ورد!!!.

– انتظري.. المعذرة هل يُطَبَّق عرضُكم على هذه؟

– نعـم سـيدي.. ولكـن بـشرط أن تكـون متماثلـة ولديك هنـاك كل الألوان المتوفِّرة حالياً.

– أها.. أشكركَ.

– عرضٌ غريبٌ.. شغفي.

– أظن أنَّني لن أحتاج إلى دفع الكثير.. فعرضهم هذا بعيد عن الإغراء.

– لن تدفعي الكثير في كل الأحوال.. ولكن، انظري إنَّها حقَّاً تستحق.

– ربما نجد شيئاً آخراً أكثر جمالاً حبيبي.

– جمالها سيبقى طويلاً.. لأنَّها حازت على لمساتِكِ.

– هاهاهاه.. جمالها أنتَ ورد.

– يا إلهي.. بدأ الغزل.

– تباً لكَ اصمت.. أخبرني ما اللَّون الذي تريده؟

– وكيف أصمت وأخبركِ!.

– أخبرني، ثمَّ اصمت هههه.

– اختاري ثلاثة ألوان.. سأشتري الثَّانية لي، وأحصل على الهدية مجاناً.

– سأختار الأبيض أولاً.. ممم ثمَّ الأزرق.. ثمَّ الزَّهري أظنُّه جَيِّداً.

– جيد.. هيَّا بنا إذن.

– دعني أدفع ثمن الاثنين.

– لا شغف، سندفع معاً.

– لكنَّني أريدها هديةً لك.. كيف تدفع ثمن هديَّتك؟

– لا فرق بيننا حبيبتي.. يكفي أنّها اختيارَكِ.

– أرجوك.. وردي.

– لقد اتَّخذتُ القرار.. رجلٌ أنا أم ماذا؟

– لا أدري.

– ومن يدري؟

– لا أدري.

– سأجد غداً امرأة تدري وتخبرني.

– ستجد أعصابك مُقَطَّعة عزيزي.

– يههههه.. جميلٌ.. أين تودين أن نتناول غَدَاءَنا؟

- أنت الرَّجل.. وردي.. اختر أنت.

- فلنذهب إلى حارات المدينة القديمة.. أظن أنَّ الجو سيكون مناسباً هناك.

- المعذرة، هل يمكنك الوصول إلى الحارات القديمة في المدينة؟

- نعم سيدي.. تفضَّل.

- شكراً لك.

- هنا يوجد مطاعم كثيرة ماذا سنختار؟

- دعنا نفكِّر في الأمر!.. أذكر أنَّ هذا جيِّداً.

- لكنَّني لا أحبه.

- هذا دروب الهوى أعرفه جيِّداً.. ما رأيكِ؟

- إنَّها مُتعِبةٌ جدّاً.

- ما هي؟

- دروب الهوى.

- لا شغفي، أقصد المطعم المسمّى بذلك.

- آه.. لا بأس كما تشاء.

- أهلاً بكَ سيدي.

- أهلاً.

- هل تريدُ مكاناً لشخصين أم أكثر.

– لا شخصين فقط.

– تفضل إذاً.

– هل يُعجبكِ المكان عزيزتي.

– نعم، إنَّه جميلٌ.. وأنت؟

– وأنا جميلٌ أيضاً.

– لا أتساءل عن جمالك!.. أسألك عن المكان!

– كل الأمكنة التي تجمعني بكِ جميلةٌ.

– شكراً وردي.

– وردي... وردي.. وردي لا تغضب.

– هاهاهاه.. لن أغضب منكِ.. هل نطلب الطَّعام؟

– نعم.

– ماذا تُفضلين؟

– ما تُفَضِلهُ أنتَ؟.

– سأتولى أنا ذلك إذاً.

– من يُهاتفكِ؟.

– إنَّها جَوى.. سأذهب للخارج لأُكَلمها.

– اذهبي.

– تأخرتِ شغف.. هل هناك شيء؟

- لا، جَوى منزعجة قليلاً.. لمَ لم تأكل؟

- كان فاتح شَهيَّتي مَشغولاً.

- ها قد آتى.. هيَّا ابدأ.

- لنبدأ معاً.. تفضلي.

- شكراً.. لكن لمَ كل هذا الطَّعام؟

- كي تأكلينه.

- وهل أخبَرَكِ أحدٌ أنَّني أتناول كل هذا؟

- بالطَّبع لا.. لكن هذه المائدة تحتوي على كلّ شيءٍ يمكن أن يشتهيه إنسان.. لا إسرافاً، ولا بذخاً، بل فقط كي تَستحق أن تتناولي طعامَكِ عَليها.

- هاهاهاه.. أشكركَ حبيبي.

- أهلاً بكِ.. تعالي إلينا كلَّ يوم.

- ولن تملَّ مني؟

- لا أظن.

- لا تظن!.. ولماذا لا تظن؟

- لأنَّ ما يعتريني في حضرتكِ شيءٌ مُذهِلٌ حقاً.. قمَّة الفرح.. أشعر أنَّ قلبي يَكادُ يَطير.. أَسعى بكل ما لديَّ لأرسم ابتسامةً حقيقيَّة في عينيكِ.. أشعر أنِّي مسؤول عنكِ.. كما أُسْأَلُ عن نَفسي!

– لستَ الوحيد الذي يعيش السعادةَ في حَضرَتي.. لأنَّني أعيشُ رُبما أَضعافَها في حضرتك.

– أتمنّى ذلك.. أَكملي طعامَكِ.

– لا أشكر الرَّب.. شبعت.

– خذي هذه فَقط.

– لم يعد باستطاعتي تناولَ المزيد.

– أرجوكِ.

– حاضر.. سآخذُ جزءاً منها، وأَكمِل أنتَ الباقي.

– خذي ما تُريدين.

– شكراً.

– بالرَّفاه والبنين.

– هاهاهاه.

– مضحكٌ أنا.. أليسَ كذلك؟

– أنتَ للحياة.. للفرح.. جميلةٌ هي الحياة مع إنسان يُشبِهُكَ.. لأنَّكَ من كل شيءٍ تستطيع صناعة الفَرح.. قليلون هم من يستطيعون فعل ذلك.. ولكن، يقولون أنَّ هؤلاء لديهم حزنٌ كبيرٌ في أعماقِهم.. هل هذا صحيح؟

– غالباً.

– أخبرني إذاً عن حزنكَ؟

- عندما تكونين بجانبي.. لا أذكره أبداً.

- اذكـره الآن.. لأنَّنـي أريـد، وأحـب أن أعـرف كلَّ شيءٍ يـدور بداخِلِكَ.

- غادري إذاً.

- وردي!.

- حـزني هـو شـعوري بأنَّنـي وحيد.. رغـم كثـرة مَن حَـولي.. وهذا يعنـي بشـكلٍ أو بآخـرٍ، أنَّ هنـاك كثـرة في الرَّاحلـين أيضـاً.. ويشـير مصطلـح الرَّحيـل إلى فَقـدِ أعزَّاء.. أشـعرُ دائـماً، أنَّ ما أخذته مـن الحياة قليـلٌ بمقارَنتِـه بـما أسـتحق.. ربـما يكون هـذا غـروراً! وزاد عـلى ذلك غُربتي هذه..

وفي العـودة إليّ بشـكلٍ شـخصي.. كل مـا في داخـلي مـن مبـادئ، وأفـكار يُولِّـدُ حُزنـاً.. لأنّي ربـما أختلـف عـن محيطـي، ومجتمعـي.. واختـلافي عنـه يعني اسـتثنائيتي، وهذا مُتعِـبٌ جدَّاً.. كُلَّـما فَكَّرتُ بشيءٍ يظهـرُ لي أنَّ نتـاج حزنـه أكثر مـن فرحـهِ.. تضعني المواقـف في أرجوحة الصَّـح والخطـأ، أو في الصَّح والأصح، وهكذا تسـير الحيـاة.. راضين أم غاضبـين، نُسـايرها وتُسـايرنا، حتَّـى ننتهـي وتنتهي بنـا.. أُعاتـبُ كثيراً عـلى مـشروبي هـذا، وعلى تدخينـي الكَثيفَـين.. وفي قـرارة نفـسي، أعتَبِرُ أن ما نُحبّـه لا يُمكـن أن يُؤذينـا، وفي غيابـهِ تتـأذَّى أرواحنـا إن كان هو مؤذياً لأجسادِنا فِعلاً..

أمَّـا الحـب والنسـاء.. مسـاحةٌ كبـيرةٌ لهـم في داخـلي، كـما في حياتي.. تلقيـتُ صَدمـاتٍ كثـيرةً في صِغَـري، أو في بِدَايـاتي.. جَعَلتنـي أتفكّـر أكثر.. وأستخدِمُ مفاهيمَ أُخرى، وتعابير غريبة.

– مثل ماذا وردي؟

– سـأطرحُ عليـكَ مثـالاً، عـادةً من يمـرُّ في خـلافٍ بينَه وبـين امرأتِهِ عـلى اختـلافِ صِفَتِهـا. هنـاك من يأتي مواسـياً لـه.. وفي المواسـاة تطول فـترة الخِـلاف. ولـو سـألني لأخبَرتُـهُ أنَّـه عـلى مُفـتَرَق طـرق.. فيختار إيجـاد حـلٍ، أو يختـار الفراق، وهـذا غريبٌ عـن الناس وعـن طرقهم في حلِ المشكِلة..

لكنَّنـي أعتـبر، أنَّـه إذا ما فكَّـر في الفِـراق الفِعـلي سَـيلينُ فِكـرُهُ جِـدَّاً وهذا هو الحل!..

وإذا ما فَكَّـر بـه وأَحبّـهُ، فليَفعَـل ما يَشـاء.. علينـا ألا نتمسَّـك بأحدٍ لا يتمسَّـك بنـا.. وهـذا يكونُ حـلاً.. ليس لـكلّ الكلمات التي سـأقولها في تهدئة أحدٍ أهميةً كأهمية تخييرِهِ بينَ البقاء أو الرَّحيل..

سـيكون لطـرح الفـراق عليـه مفعـولٌ أكـبر يدفعـهُ إلى إيجـاد الحـل بأقصى سرعةٍ، إذا ما كان يحبّها فِعلاً..

وإذا وقفـتِ أمـام صديقـاً لـكِ، خَـسِرَ كلَ شيءٍ، ورجوتِـهِ ألا يحزن، سـتَزدادُ شَـكواهُ لـكِ وتتعمَّقُ بـهِ ويتعمَّـق بها. وهـذا ما يفعلـه أغلبنا.. وأقـول أنـا، بأنَّـكِ إذا قلتِ لـه: أن يَذهَبَ ويقتلَ نفسَـهُ سـيُخيفهُ الموت،

ويتحرَّك بـه الأمل، حـلاوة روحه.. سيشـعر أنَّ كل شيءٍ خَـسِرَه يُمكِنُه تَعويضُـهُ، وهـذا يُسَـهِّلُ الخـروجَ مـن الأَزمَـات. وهـا نحـن أحببنـا بعضنـا.. رغـم ارتباطـكِ بشـابٍ آخـر.. ونحب أن نقـضي وقتنـا معاً.. وغـداً سـتواجهين انتقـاداً كبيراً لأنَّـكِ تقضين وقتـاً جميلاً مع أحـدٍ يُقَدِّمُ لـكِ الرَّاحـة أثنـاء ذلـك.. سـتخرج الدُّنيـا تتكلَّـمُ عنـكِ دونَ معرفـة تفاصيـل قصَّتـكِ.. ربـما يُبعدونَـكِ عنّـي، ونخـسَرُ بعضنـا بسـببهم، سـيخبرونَكِ أنَّ ما تفعلينـه مـن العيـوب الكبـيرة، ولو فتحـت تاريخهم لوجـدتِ أشـياء، وأشـياءَ مـن العيـب، وأحيانـاً تجديـن العيـب كلَّـه في أشـيائِهم. ويأتونَـكِ مُبررين لكلِ الأشـياء التـي تَخصُّهُم. وعليـكِ اللَّوم منهـم، لأنَّـكِ تُبرريـن شـيئاً يخصُّـكِ. ولو جَـاءَ أحـدٌ منهم يتسـاءل عن سَـعَادَتِكَ وراحَتِكَ، ثم يُشـجعك، ويشـجع حصولكِ عليها.. سينجح في التَّقـرب منـكِ، وتصبحين سـنداً له.. دونـاً عن البقية، لأنَّـكِ تعتبرينه سنداً لكِ فيما ما فعل.. أليس هذا صحيحاً؟

– نعم.. أنت على حق.

– وفي كل الأحـوال، أعتقـد أنـا، بأنَّه لا يحـق لأحدٍ غـيرَكِ اختيار من تَشـائين أو ما تشـائين، حتَّـى ولـو كان اختيـارك خاطئاً.. لأنَّـكِ وحدَكِ من سيتحمَّل عبءَ فِقدانِ الرَّاحة والسَّعادة، أو بعضاً منهما..

وهـم مهما كانـت آراؤهم حول ذلـك لن تَجديهم في أغلـب الأوقات. وهـذا سـيُحمِّلكِ ندمَـاً مُشـابهاً لنـدمِ اختيـارٍ خاطـئٍ، فتكونـين أنـتِ الخاسر الوحيد..

ولـو حاولـتِ إخبارهـم بـشيءٍ ممـا يفعلـه جـاد، وينتـج عنـه تحـوُّل حبـكِ إلى كراهيـةٍ سـيبررون ذلـكَ عَفويـاً.. ويقولـون: بـأنَّ جـادَ لـه أسـبابه، وربـما يكـون على حق.. وأنتِ تشـعرين بـأنَّ أفعال جاد ليسـت مُحقّـة، وأنَّهـا أحـد أسـباب وجودنـا سـويَّة الآن.. ثـمَّ يعـودون مُرَددين عـلى مَسـامِعِكِ نظريـاتٍ عديـدةٍ، لجميعهـا نهايـةً واحـدةً: هـي بقـاء تحمُّلـك لجـاد، وإنهاء علاقَتـكِ بوَرد فَـوراً.. ولو أخبرتِهم، أنَّـكِ تحمَّلتِ الكثـير حتـى انتهـت قـدرات التَّحمـل لديـكِ، سيسـألونَكِ الصَّـبرَ؛ وأسـألكِ أنـا أليـس الصَّـبر تِلوَ الصَّـبر سـينتهي بـكِ إلى إنهـاء علاقَتَكِ بجاد، أو إنهاؤكِ أنتِ كُليّاً، وتهميش حياتِكِ وكل شيءٍ لديكِ؟

– نعـم.. لأنَّ جـاد عندمـا رآني أتحمَّـل؛ زادَ تسـلطه حتَّـى جَعَلنـي أَسعَى إلى الخَلاص..

– لماذا تضحك؟.. هل هناك فتاة خلفي؟

– لا.. لكـن سَـعيَكِ يُسـعِدُني.. أتمنّى أن تسـتطيعي فِعـلَ ذلكَ، حتَّى لو لم أكن أنا الذي سيحتل تلك المكانة.

– لكـن هـذا صعـبٌ جـدَّاً.. ليسَ هنـاكَ أحدٌ يقـف بجانبـي.. غِيرَتُه الجنونيـة تَدفعـه إلى الشَّـك.. وقـد نـال مـن كرامتـي، وبقيـتُ صامتـةً مُندَهشـة أمامـه لا أدري لمـاذا؟ كنـت أظن أنَّهـا أيَّاماً وسـتمضي.. لكنَّها كلَّما مَضَت يزدادُ الأمرُ سوءاً، وأُهان أكثر فأكثر..

– ربما هو من دفعني إليكَ.

– وهل يعني ذلك أنَّني لا أستحق اندفاعَكِ إليّ؟

– تباً لكَ.. هذا ما فهمته من الحديث؟

– بالطَّبع لا.. لكن أريد إخراجَكِ من حديثٍ يُشعِرُكَ بالحزن.. ربما وُجِدَ جاد في طريقكِ، وبهذه الطَّريقة كي تندفعي إلي.. فلا تحزني أرجوكِ.. إنَّها مَشيئةُ الرَّب.

– لستُ حزينةً، لأنَّكَ هنا ورد.

– في كل مرة، يكونُ لحديثي مَعَكِ تشجيعٌ على أن تتخَلي عن جَاد، يُعَذِّبني الضَّمير كثيراً، لكن أشعرُ حقَّاً أنَّ الحياة بينكما ستكونُ مُتعِبةً جدَّاً لكِ. أتمنَّى لو أنَّكِ تَستطيعينَ فِعلاً تَركَهُ.. وفي اليوم التَّالي لانتهاء تلك المأساة.. ستكونين لي.

– ومن قال أنَّني سأرضى بكَ؟

– في الحقيقة، لا أحد قال بأنَّني سأرضى بكِ!.

– هههه.. أظُنُّكَ سترضى وردي.

– وأنا أيضاً، أظنكِ ستَرفُضين شغفي.

– ولماذا أرفُضُكَ؟

– هههه.. هل رأيتِ أنَّكِ ستَقبَلينَ بي.

– تباً لكَ وردي.. كم تتلاعب بأحاديثك.

– أكثر من حبي لكِ.

– أكرهُكَ وردي.

– أعرفُ ذلك.

– وكيف عرفتِ؟

– من الطَّبيعي أن تكره النّجوم قمراً.

– أيُّها المغرور!!

– أيها المغرور شغفي تُريدُكَ.

– هاهاهاه.

– اضحكي دائماً.. خُلِقتِ أنتِ للحياة.. لتكوني أنتِ الحياة.

– فليحفظكَ الرَّبُ لي.

– وليحفظكِ لي أيضاً.. لا تَحزني.. ما فعلتِهِ لأجلِ جاد في بداياتِكُما شيءٌ مذهلٌ، وربما هذا ما دَفَعهُ ليكونَ على هذا الحال.. ويتصرفَ معكِ كأنَّكِ مُلكاً له.. أرجوكِ اهدئي.

– أعتذر وردي عن حديثٍ كئيبٍ كهذا في يوم ميلادكَ.

– لا تعتذري هي الدّنيا هكذا، نخطئ مرةً، ونُعاتَبُ على خطئنا مراتٍ ومراتٍ.. كثيرون من يقومون بأفعالٍ تُشبهُ أفعال جاد..

– أتدري شَغَفي؟

– ماذا؟

– وَجد تواجه الآن انتقاداً شَديداً من زميلها، بعد أن عرفتني وزادت علاقتنا قوةً. وصفها بأَبشعِ الأوصاف لسببٍ بَسيطٍ، هو أنَّها فضَّلت صديقاً على آخر.. بذرائعَ غريبةٍ يُطلَقُ اعتباراته عني، دون أن

يَعرف مَن أنا. ربما أخبره أحدٌ بشيءٍ ما.. لو كان صحيحاً ورأته وَجد لمشت دون إلقاء التَّحيَّة.. وغداً سيخسر صَديقَتهُ تلك التي يتمسَّك بها تمسُّكاً شَديداً.

- لماذا سيَخسَرها؟

- لأنَّه تصرَّف بحماقةٍ.. اعتبر أنَّهُ يحق له اختيار أصدقاء صَديقَته.. فجاء وألقى الضَّوء على مساوئي، دون أن يُثبت حَقَّاً تلك المساوئ التي لا أدري من أين جاءَ بها!.. وهو إن كانت مخطئةً سيخسرُ، وإذا كانت صحيحةً سيخسرُ أيضاً. لأنَّهُ اعتبر أنَّني لا أُجيد إخفاءَ شيءٍ ما..

أو أنّني أتصرف مع الجميع بطريقةٍ سيئةٍ، إذا كنتُ قد تصرَّفتُ مع أحدٍ بسوءٍ.. ورغم خسارتِه لها سيمشي أمامَها مرفوعَ الرَّأسِ.. ظنَّاً منه أنَّه على حق..

هكذا نحن يُصيبُنا الجنون، عندما نشعر أنَّ هناكَ أحدٌ ما، يستطيعُ أن يكونَ أهم منا في حياةِ من يَهمهم أمرُنا. وهذا الجنون يحوِّلُ المرحلةَ تلك إلى ما يُشبهُ الإجهاض..

ثمَّ نُعلِنُ، إمَّا أن نكون أو لا نكون.. وفي الغالب لا نكون..

أذكُرُها عندما قلتُ لها: إن كان وجودي قد سبَّب لها بعضَ الإشكال، فأنا أنسحبُ لأنَّني أريدُ لها الرَّاحة. فردَّت عليَّ بوجهٍ قاسٍ قائلة لي: بأن من يتوجَّب عليه الرَّحيل هو ذلك الصَّديق الذي لا تُعجبه تصرفاتها وأفعالها، وانتقاء أشخاصها.. وذاك تَشكيكاً بها على الصَّعيد الشَّخصي.

– هـي عـلى حق فعـلاً وردي.. لكن الفتـاة في إحـدى المراحل تضطر لفعل ما لا تريده.

– صحيح، ويكون هذا بالغالب لإرضاء المحيط والمجتمع.

– بشـاعتها كبـيرةٌ تلـك الأشـياء القسريـة.. أريـد أن أعـترف لـكَ بشيءٍ.

– أخبريني ما هو؟.

– منـذ زمـنٍ، وأنـا أقـع في مثل هـذه المواقـف في الجامعـة، ولا أدري ماذا أفعل.

– ممم.

– ما رأيك؟

– لي أكثر من رأي.

– أخبرني؟

– رأيـي كـورد؛ أنَّ كل كلامهـم ليـس مهـماً، لأنَّـه يعنـي أنَّنـا سـنفترق، ولسـت أحتمـل فكـرةً كهـذه. رغـم أنَّنـي أعلـم منـذ البداية أنَّنا سنفترق يوماً ما.

– لا تتكلم بمثل هذه الكلمات أرجوكَ.

– الـرأي الآخـر؛ بأنـه من الواجـب عليك أن تحافظي على سـمعتك، وفي سبيل هذا هناك تضحيات كثيرة.

– ما بك لماذا تسكت فجأة؟

– أشعر باليأس، عندما أعرف أنَّني لا أستطيع فعل شيء يُبقيكِ تحت سُلطة السَّعادة..

ربما هناك أشياء أقوى مني!.

– سعيدةٌ أنا بوجودك، وأتمنَّى ألا ينتهي هذا الوجود.

– أعرف أنَّه سينتهي، لذلك أشعر برغبةٍ جامحةٍ في أن أقدِّم لكِ كل ما أملك.

– وما الذي تستطيع أن تُقدِّمه لي؟.. غير مواساتي، ووقوفكَ بجانبي، وحبك الذي يُسعِدُني جدَّاً، ويُعذِّبني جداً.. هيَّا لنخرجَ من هنا لقد تأخَّر الوقت بنا.

– لك كل ما تُريدين.

– أريد ألا تدعني أمشي في عتمة الطرقات وحدي.

– لكِ كل ما تريدين.

* * *

لا شيءٌ يمكنه شَرح ما أُخفيه.. سوى كشف ستارٍ يُطوِّقُ غصّة فؤادي بكِ.. غَصّة فؤادي لكِ..

أنتِ التي كَشَفكِ العالم من لمعة عيوني.. واعترفَت بكِ مدامعي، في أول استجوابٍ للحياة..

وما استطاعت قواي إخفاء خطواتِكِ في داخلي..

أنتِ التي قررتُ بَذلَ عُمري في الدفاع عن الأنوثة لأجلها، وجعل

شواطئ حَياتي مَرسى لكلِ مَن عانت من معشر الرِّجال.. أو بسببهم.

لأكـون النَّمـوذج الفريـد، الـذي تتمنَّـاه كل امـرأة، في رجـلٍ يشـد عـلى يَدِهـا، ويقـوِّي مـن عَزيمتِهـا، ويحـرِّك قـوة أنوثتهـا ويَرعاهـا محبَّةً لا خوفاً، ولا رياءً..

لأجلِـكِ أنـتِ.. سأسـعى إلى إيصـال الفرحـة إلى كل امـرأةٍ حزينـةٍ، وأفعل كما يفعل بابا نويل في ليلة الميلاد..

شـغف؛ وعـلى ذكـر ليلـة الميـلاد، كان اليـوم يـومَ ميـلادٍ حقيقـي، عرفتُ فيه أنَّ الولادة ليست حِكرَاً على الأمَّهات.

وأنَّ مولـود الحـب ذو رونـقٍ لافـتٍ، وروعـةٍ لا يُضَاهيهـا لمعـان النُّجـوم.. بعـد أن وَلَدَتنـي شِـفَاهكِ مـرةً أُخـرى.. أغارت عـليَّ عيناكِ مُبـاشرةً، واغتالـت مُمانَعَتي، ورفعَ قلبـي راياته البيضاء مُستسـلماً مُتمتِّعاً بـكلِ مُحتـوى الـولادة مـن تعذيـبٍ، وبـكاءٍ، وألم، في حـضرة وجـودكِ المستحيل في تنسيقٍ شرقيٍّ حقيرٍ..

وتعظيماً لفؤادكِ الطَّاهر القابع خَلفَ النُّهود، سأخوضُ حرباً مفتوحةً ضد كل المبادئ والقيم، مُتنازِلاً عنها.. وفَاتحاً لها أبواب المواجهة على مصراعيها، رغم عِلمي بأنِّي الخَاسر الأكبر على الإطلاق..

لأنَّـكِ اسـتثناء يا محبوبتـي حتـىَّ الثُّمالـة.. أطمـحُ أن أكونَ اسـتثنائياً بـكِ.. لتكـونَ اسـتثنائيَّتي لـكِ، وتتعـرَّفَ الدُّنيـا عـلى مفهـوم اسـتثناءٍ جديدٍ معكِ.

* * *

مـن أروع ما يمكـن مُصَادَفتـه في الحيـاة؛ أن تملـكَ إنسـاناً لم تقصـد امتلاكَهُ أبداً.. أن تملكه لأنَّه

وهـب نفسـه لأجلِـكَ، بـدون ثمـن يتوجَّـبُ عليـكَ دفعَـه، في وقتِ خَسارَتِكَ لكلِ شَيءٍ..

مـن الحـظ الكَبير؛ أن يضخّـك أحدُهُم بالسَّـعادة، ويُغـرِّز في وجهكَ رسـومات فـرحٍ عفويَّـةٍ تتحـرَّك لا إراديـاً.. بـدون مُقابـل حقيقـي.. في لحظةٍ يكاد الحزن يُقَطِّع أَحشائِكَ..

إنَّـه شيءٌ مـن الحلم؛ أن تَحظى بشـخصٍ يدفـعُ معكَ ثمـن أخطائِكَ، كأنَّـه جِـذعٌ عَتيـقٌ وفيٌّ في شـجرة عَائِلَتِكَ، أو ضلـعٌ في صـدرِكَ، يُمارِس واجبه تجاه مَوطنهِ في لحظةِ انهيار الوطن..

ومن محض الخيال؛ أن يَلِد قَلبكَ أَحدهم، ويهبّ عليه كلّما شَعر بالجوع ليطعمه أجزاءً من جسده وروحه، في زمن الأفئدة اليتيمة الجائعة..

إنّهـا لهفـة السَّـماء ونجـدة الإلـه.. إنَّـه الحـب بحائـه المضمـوم، وبائِهِ المسـكِّن، يُلملِمُـكَ مـن الهجـران، ويُغذّيـكَ بالقـوةِ في أقسـى لحظـات الضّعـف، لتسـتمر في مواجهـة صراعـات الحيـاة.. وتنتقـل مـن نجـاحٍ لآخرٍ برشـاقةٍ تُحسَـدُ عليها. هنا سيشـعر ذاك الذي هَجَرَكَ يومـاً بالنَّدم، ويرجـع إليك مُناجيـاً قَلبَك أن تعود نتيجةً لقدرتِكَ عـلى قلب الطَّاولة.. وتصبـحُ أنـتَ صاحـب القيـادة في ملعـبٍ أرادك أن تخرِجَ منـه، أو تبقى

فيه مُجرَّداً من كلِّ شيءٍ في لحظة مَلَلِهِ أو شعورهِ، بأنَّكَ أصبحتَ مُستهلَكاً ومُدَّةَ صلاحِيتكَ قد انتهَت..

ونسيَ أنَّه ربما يشم رائحةَ عطرٍ جديدةٍ تفوح منك على مقربةٍ من أنفهِ، ولكن بأيادٍ جديدةٍ من أصدقائك ومن أَحَبَّكَ بصدقٍ.. ومن أبصر ما يحتويه قلبكَ جيداً..

كي يلمع نجمك غداً.. عليكَ أن تقتنع اليوم؛ بأنَّكَ تملك القدرة لأن تَكونَ نَجماً بحقٍ.

ولكن يا صغيري..

هناك أشياء ستعيشها قبل أن تموت، تُدركُ فيها أنَّ الدُّنيا من أقصاها لأقصاها.. لا شيء، ستعرف أنَّ هناكَ أشياء مُوجِعَة تُشبهُ الموت، وتأتي على هيئَتِهِ.. وتتلذَّذُ بكَ وترسم على وجهِكَ ملامحاً لستَ تَعرِفُها.. ولستَ تُدرِكها.. ولستَ تُغيرها.. ولستَ تُوقِّفها..

ستتعلم؛ أنَّ هناك لذةٌ في النِّهايات تُساوي لذَّة البدايات. وتكون حاضراً لتبتسم في نهاية اللِّقاء الأخير.. كما كُنتَ مُبتسماً في بداية اللِّقاء الأول.. لا تقلق يا عزيزي.. كل شيء سيكون على ما يرام.. لأنَّ عتبة التَّنبيه القصوى ستصل بك إلى ما بعد إدراكك مرةً واحدةً فقط، فتتخطَّى حدود صراخك. ولن يكون دَمعك كافياً للتَّعبير عنها. ولن يَقبل دَمُك اتِّخاذ قرار الرَّحيل.. ستُشاهد العمر آتياً ببذلتهِ البيضاء القديمة، يريد إذلالَك، ناسياً أو مُتناسياً ريعان الشَّباب.. فارتدِ شجاعتك، واخرج بشموخٍ.. فالقوة الحقيقية تكمن في أن

تكـون واضـع القانون، ولسـت مَلـكاً يتجـاوزه متى يشـاء. كـما العود، يكمـن كبريـاؤه في أوتـاره، دوناً عـن خشـباته أو عازفيه. فالثِّقـلُ الكبير يكمـن بشـخصكَ، وحضرتـكَ عـلى أرض المعركـة، وليـس بـأن تكون موجَّهـاً خلـف السِّـتار.. فالأبيـض رغـم كل جمالـه ولباقتـه يُعـاني الاختلاج إذا ما التقت عيناهُ بالسَّواد..

هنـاك لحظةٌ من اللَّحظات ستعيشـها وتعرف فيهـا؛ أنَّ الحزن الصَّغير لم يعـد يصـل إلى مسـتوى سـكَراتِكَ، وأنَّه هُنـاك لحظاتٌ، يكـون الحزن الكبـير فيهـا عـادة سريَّـة تمتهنهـا بعيداً عـن أعصـاب بصرية تحيـطُ بكَ. كـما يفعـل اللَّيـل بالغربـاء.. فلتغفـر للحيـاة قسـوة دروسَـها. ولا تكن شرقيَّـاً، يقرأُ شِـعراً خارجـاً عن القَانـون، ويمارِسُ الصَّمـت خَوفاً.. ولا تَحـزَن حُزنـاً صغـيراً.. فكلَّـما كـبُرَ الـشيء كلَّـما زادت أناقَتُـه.. وأهميَّتَه.. وتأثيره.. وأَثره..

سـتُخبِرك تلـك اللَّحظـات، أنَّ كل من وما تضعه عـلى قائمة الاهتمام ربـما يصبح مع مـرور الوقت مصدر إزعـاجٍ قاسٍ للغاية.. ثمَّ يسـألونك لِمَ الحزن؟ ويسـألونك لماذا تقسـو؟ ويسألونك، ويسـألونك؟ ويُعاتبونكَ عـلى كل شيء.. وينسـون أفعالهـم.. وهـم لا يعرفـون أنَّـكَ الصَّائم عن الفـرح، المهاجـر مـن الحب. وهـم لا يعرفـون، أنَّـك المتيَّـم الذي يحضر القمـر في حَضرتِهِ، وتشـهق النُّجـوم تِباعـاً.. وأنَّكَ اليتيم الـذي تغضَب السَّـماء لأَجلـهِ، وتَبكيه الغيوم بغزارةٍ.. سـتبحث عن أحـدٍ لتُخبره فقط؛ أنَّ الحيـاة قاسـيةٌ حـد الجنـون.. وأنَّ كل ما يقبـع في القفص بـين الصَّدر

والظّهـر يُعاني أشـد أنـواع التَّعذيـب.. وفي مـرور الحياة، سـتفهم فكرة، أنَّ العيـون تولـد الدَّمـع حتَّـى عَجزها.. ثـمَّ تَنـزِفُ دماً، وعندمـا تنزف العيـون دمـاً لا يفيـد شيءٌ ولا يـضر شيءٌ.. فادخل التَّحـدي حتى تلفظ نفسَكَ الأخير..

لا بـأس يا صغـيري.. في كل الأحوال، نحن موتـى في جيوب الحياة. وعـلى ميـزان الحياة، أن يكون عـادلاً متوازناً.. فواجـه النِّهايات وحدَك، كـما تُواجـه البدايات.. واتـرك قبلة شَـجاعتك على ثَغـرِ الحيـاة.. وأَنزلْ مـن عـلى قلبـكَ خَوفاً عليهـم، وتابـع الإبحار وحـدَكَ، عندما تشـعر أنَّ قلبَـكَ عـلى وشـك الغـرق، وعـلى أرض الـوداع ابتسـم، وازرع عـلى جبهاتهـم قُبـلاً، كأنَّهـم لـن يَـروكَ بَعدَهـا.. واتـرك تَـأوه الحَيـاة يُـضرِمُ اللَّهبَ في رئتيكَ فَقط.

* * *

- صباح الخير ورد.
- ما به صوتك شغفي؟
- لا شيء.. كيف حالك؟
- أخبريني ما بكِ أولاً؟
- لا تقلق حبيبي.. أنا بحالةٍ جيدةٍ.
- شغفي أرجوكِ.. قولي لي ما بك؟
- كنتُ أتكلَّم مع جاد.

– وماذا حَصل؟

– أزعجني كثيراً بكلامه.

– ماذا قال لكِ؟

– قال: أنَّني أتغيَّر عليه كثيراً، وأنّي لستُ تلكَ الفتاة التي أحبَّها.

– لا تبكي حبيبتي أرجوكِ.

– كيف لا أبكي ورد، تغيَّرتُ فعلاً، لكنَّه لا يدري أنَّه السَّبب الذي جعلني أُصبِحُ هكذا. هو من جعلني أبتعد عنه دونَ أقل شعور بذلك.

– اهدئي.. أين أنتِ الآن؟

– كنت أحضّر نفسي للذَّهاب إلى الجامعة، ولكن الآن لن أستطيع الذَّهاب.

– تعالي إلي.

– لا.. عليكَ أن تذهب إلى الجامعة.

– لا لن أذهب، هيا سأنتظِرُكَ هنا.

– ورد.. أرجوك، لا أريد أن أُعطِّلُك عن جامعتك.

– عن أي جامعة تتحدَّثين شغفي؟ أنتِ أهم من كل شيء، هيا لا تتأخَّري.. وأحضِري معكِ شَيئاً نَشربه هنا.

– حاضر حبيبي.. لن أتأخر.

– أهلاً شغفي، ادخلي.

– لماذا تأخرتَ.. ماذا كنتَ تفعل؟

– ها.. لم أكن أفعل شيئاً.

– ورد؟

– عيون ورد؟

– حبيبي؟

– أهلاً.. أهلاً.

– ماذا كنت تفعل؟ أخبرني هيّا؟

– في الحقيقة، كنتُ أستنشقُ بعضَ الهواء النَّقي من النّافذة.

– سأُلقي نظرةً عليه إذن.

– على من؟

– على الهواء النَّقي، حبيبي.

– لا شغفي، إنَّه غير صحي.

– نعم؟

– ها أقصد.. أنَّه هكذا.

– هكذا كيف وردي؟

– لا أدري، ولكن، أشعر أنَّه غير مناسبٍ لكِ أن تستنشقيه.

– وردي.

– أيوا.

- تعال حبيبي إلي.
- قلت في نفسي، أيُعقل أن تَشمين الهواء النَّقي وحدكِ؟
- لا حبيبي سنشمه سويةً، إن شاء الرب.
- مممم.
- قف هنا بجانبي، حبيبي لقد اشتقتُ إليكَ كَثيراً.
- أنا أيضاً، أشتاقكِ شَغَفي.
- وردي.. انظر إلى الأسفل.
- لماذا؟.. السَّماء أجمل من الأرض.. أنتِ انظري للأعلى.
- سأنظر كثيراً إلى السَّماء.. لكن، انظر أنتَ إلى الأسفل أولاً.
- حاضر.
- ماذا ترى؟
- حديقةٌ وزرعٌ أخضرٌ كثيفٌ.
- ألم تنسَ شيئاً؟ انظر جيِّداً حبيبي.
- نعم.. المزارع يسقي الأشجار والأولاد يلعبون في الجوار.
- وماذا عن الوردة الفضية تلك؟
- أين؟
- لم تعُد ترى الآن؟.. تلك حبيبي المستلقية في الطَّابق الأرضي!.
- آه.. تقصدين دَلع؟

– إنَّها دَلع!.. أعتذر حبيبي، لقد ظننتُ بكَ شيئاً آخر.. ومَن تكون دَلع أيضاً؟

– حبيبتي.

– حبيبتك؟.. وأنا ماذا أفعل هنا؟

– إنَّني أُناديكِ.

– ها تناديني.. ممم تفضَّل، أخبرني بما بعد النّداء؟

– إنَّها جارتنا فقط!.

– وكيف عرفتَ اسمها حبيبي؟.

– سمعتُ أحدهم يُناديها هَكَذا.

– ممم.

– وهل تستنشق الهواء النَّقي كل يوم؟

– في الواقع؛ أحياناً.. وأحياناً أستنشقه في اليوم عدة مراتٍ.

– عدة مراتٍ؟.. هذا جيد.. تعال إليَّ، أين تذهب؟

– سأُحضر العصير لكِ، لتهدأ أعصابكِ.

– أحضره هيا.

– تفضَّلي.

– شكراً لك حبيبي.. تعال إلى جانبي هيا، وانظر إلى الأسفل!.

– لماذا؟

- لتودِّع دَلع.
- صحيح، لمَ أسمَيتَها وردة فضيَّة؟
- لأجل فيزونها الفضِّي الرَّائع.
- ولمَ أُودعَها، هل ستموت؟
- لا حبيبي، ستموت أنت.
- يا إلهي، من أخبركِ بذلك، ومتى.. لمَ لم تُخبرينني بهذا من قبل؟
- الآن، أخبرتُ نَفسي بذلكَ، وأخبرتُكِ.
- ها.. جيِّد.
- ادخل أمامي، ادخل هيا.. أنتَ وهواؤك النَّقي.
- هاهاهاه.. حاضر حَبيبتي.
- مضحكةٌ أنا؟
- ليسَ كثيراً.
- تباً لكَ.. أووووه ورد، لقد أنسَيتَني جاد، شكراً لكَ.
- لا شكر على واجب.. حبيبتي.
- هل كنتَ تمزح بما يخص دَلع؟.
- لا لست أعرف عنها أبداً سوى اسمها.. وفيزونها النَّقي.
- جيد.
- وهل ستعرف عنها شيئاً.. عزيزي؟

– إن شاء الرب.

– إن شاء الرب، سأُعرِّفكَ على أشياء كثيرة.

– مثل ماذا شغفي؟

– الشَّمس التي تشرق في اللَّيل. النُّجوم التي تلعب في النَّهار.. وهكذا.

– ها فهمتكِ.. فهمت.

– وماذا فهمت عزيزي؟

– أنَّكِ ستأخذينني إلى الطرف المقابل من المعمورة.. حتَّى ينقلب اللَّيل نهاراً، والنَّهار ليلاً.

– هل أنت أذكى الشبان في العائلة؟

– لا.. هناك شبَّانٌ أذكى.

– يا سلام.

– ليس هنا.

– من هو؟

– سلام.

– هاهاهاها!.. ورد الأحمق، أنتَ حقاً رائع.

– أنتِ مُحرِّك رَوعَتي.

– ثانكس وردي.

– تَعالي إلي، فأنتِ مُحرِّك حياتي أيضاً.

- ضُمَّني إذن.
- يا حبيبتي.
- أتدري كم أحبكَ؟
- بالتَّأكيد.
- وكيف عرفتَ ذلك؟
- لا أدري.
- تبّاً لكَ.
- غير موافق.
- وردي.. هل أنت أهلاً لذلك؟
- ليس دائماً.. فالثِّقة لا تُعطى لأيٍّ كان.
- هل أنتَ أيٍّ كان؟
- ما رأيكِ أنتِ؟
- لا أدري.
- جيد.
- وردي، كيف يمكن للفتاة معرفة هذا؟
- الأيام تزيل الأقنعة يا عزيزتي.. وفي مرورها، يعيش الوفاء أو يموت، لتظهر الوجوه على حقيقتها.. فمن يضع كتفه المكسور لتستند عليه أنثاه هو أهل للثِّقة.

– ممم.. وأنتَ ماذا عنكَ؟

– أنـا أحتـاجُ صـدركِ أيضَـاً.. لأزرع فيه قبلـةَ حبٍ لا ينسـاها أبداً.. أتدري شغفي؟

– ماذا أدري أيّها العزيز؟

– لستُ أعرف مَن مَنكما أجمل. أنت أم الحب.. أم أنَّكما خُلقتما توأمان.

– خُلقنا نحن الاثنين لأجلك.

– أشعر أنَّني أتيت إلى هنا خصيصاً لأكون الضِّلع الثَّالث معكما.

– ربما.. تلك كانت الصّدفة الأجمل وردي.

– صحيح.. فما من صدفةٍ تحتويكِ إلا وتكون هي الأجمل.

– وردي.. أشـعر بخـوفٍ شـديدٍ بعيـداً عنـك.. ويـكاد ألم خيانتـي يقتلني، عندما أكون بين أحضانِكَ.

– لا أظنُـكِ تخونـين.. فللخيانـة أشـخاصٌ يسـتحقونها.. المؤلـون؛ يستحقون الخيانة.

– دائماً لديك المبرِّر.

– نعم.. دائماً لدي ما يُريحكِ.

– أرتاح معكَ.. وبكَ.. في وجهك بريقٌ مميَّزٌ يجذبُني.

– أنتِ البريق الذي في وجهي.

– وهل سيبقى؟

– ربما.. يتوقَّف ذلكَ عليكِ.

* * *

لـو تـدري يا حبيبتي، كـم أختصركِ عندمـا أُحدِّثهم عنـكِ.. لو كنتِ تعرفـين، كـم يَهيمـون بي في ظـلِّ هيامي بـكِ.. وكـم يُحبونَ فمـي عندما أضم شـفتيه باسـمكِ.. لـو كنت تعرفـين، كيـف تصلبهم عينـاي لأنَّكِ أنتِ لمعتها..

لـو كنـتِ تدريـن، كـم أودُّ أن أضـع رأسي عـلى يمينكِ، وأصـبّ فيه سواقي الشوق والأحزان.. لو وما تفعل لو يا عزيزتي في مثل هذا؟

وكلهـم يحبـون، وأنا أعيـش مأسـاتك.. كلهم يُقَـرِّرون، وأنـا أعيشُ قـرارَكِ.. كُلهـم يملكـون، وأنا الذي لسـتُ مُلـكاً لأحد غـيركِ.. وأنتِ مُلك غيري.. كلهم يقرؤون، وأنا يا روح العمر كاتبُكِ..

ولازلت أحاول، منذ أن عَرفتكِ.. إيجاد اختراعٍ يبرر لأنثى أن تَلِدَ من كل أجزائها.. ولازلتُ أحاول إقناعَ نفسي، أنَّ فؤادي المختوم بشمعكِ الأحمر يستحق حياة أفضل من هذه الحياة.. لازلتُ أبحث عن شيءٍ يُعلِّمني ماهيَّة تفاصيلكِ.. شيءٌ يدرسني جغرافيّة تضاريسكِ.. لازلتُ أحاول إقناع نفسي، أنَّكِ لستِ قطعة قمرٍ نزلت بمجرد الصدفة إلى الأرض.. لأنَّ انفصال قطعة القمر ووجودها في كوكب آخر يعني وجود العذاب بأشدّ ملامحه.. فما الذي بوسعي فِعلَه.. وعذابكِ، يا سيدة الزَّيت والزَّيتون يُعذِّبني.. ويضربني في الأعماق..

ماذا عليّ أنَّ أفعل أكثر، من أن ألعب دور الضَّحية عن قَصدٍ وعَمدٍ؟.. وأنا بكامل قوايَّ العقلية، وأن أكون ممثلاً بارِعاً، يَرسم أَشهى البدايات رغم مَعرِفَتي الكاملة بالنِّهاية المأساة..

أعلم جيِّداً، بأنِّي سأخرجُ غالباً من الباب الخلفيّ للحب، أو سأُترك في بَهْوِهِ وحيداً.. ولا يعنيني ما سيحصل آنذاك.. أو بعد ذلك.. أو أن أكون بالوناً يَزرع من حوله الفرحة.. ويُنفَخ بالألم.. ويخاف لحظة التَّحول إلى أشلاء.

الآن، تغمرني وحدتي، وغداً يموت أحدنا، إمَّا أنا أموت بغيابك.. أو هي تموت بحضرتك، وكلا الأمرين جميلٌ أو ترحلين، فيجتاح الموت كل شيء ليحتضر مِراراً دون أن يموت..

شغف..

أنظر إلى ظهرك أثناء خطوات ابتعادكِ الثَّقيل على قلبي؛ فتتمدّد شفتاي ابتساماً، وتدعو لكَ صامتةً.. في حوارٍ طويلٍ مع الرَّب.. ثمَّ تتحوَّل عيناي بتلقائية النّظر إلى الرَّكن الذي كنتِ تَشغلينه وتصب عليه الحب والحسد.. آنذاك، أتناول كأسي السَّوداء، وأشرب بكل لذّةِ الحياة ومُتعَتها، كأنَّ روحَك عادت تُحيطُ بي مُجدَّداً.. تلملم مني الحزن، وتسحب أجزائي المحتضرة..

فنحن يا حبيبتي، في سعينا للحلم نموت، نموت حتَّى ننسى الحلم.. وأنتِ حُلماً أعيشه مرةً بحقيقة الفراق يوماً ما.. وأعيشه مرةً أخرى في تحول الفراق إلى وهم البقاء.. كما القمر؛ يكتمل حتّى

آخره، ثمَّ يُولد نَاقِصاً، ثمَّ يكتَمِل. كما الورد؛ يَموت ويحيى، كما الشَّمس تُشرق وتمضي في الغروب..

أيُّ ضياعٍ هذا؟.. أيُّ تخبطٍ هذا؟.. أيُّ ليلٍ هذا؟.. أيُّ إحباطٍ هذا؟.. أيُّ عمرٍ هذا؟..

وكلُّ ما يُعدّه غدنا، هو وجبات الوجَع المزيَّن بالقَهر..

هل ستغفر لي الذُّكورة قذف نفسي في البركان لأجلكِ؟.. هل ستغفر لي الحياة احتفالي بالحزن، والاحتراق لأجل فرحةٍ أُحَضّرها لك؟.. هل سيغفر لي الحب توحّد فؤادي بكِ، وأنتِ راحلةٌ؟.. وهل سأغفر للحب احتضاري بكِ؟.. هل سيغفر لي الطِّب عِشقي له بسبب امرأةٍ، واستنزاف روحي؟.. كيف لا أعتني بكِ يا سيدة من الزَّيت، والزّيتون؟. والأيام لا تضمن أحداً، والوجع لا يعرف سنّاً، والألم صار يصيب الدِّماء ظنّاً منه بسلامة القلوب. والفراق توأم اللِّقاء.. والدَّمع رفيقُ الفَرح.. وكل متناقض ونقيضه يستمر.. وكل مُحب وحبيبه يفترق..

مُتعِبةٌ هي الحياة يا عزيزتي، عندما تقتصر على يومٍ مريض، ويوم طَبيب..

وتشجعكِ على قطع تذكرة للغياب، والمُضي بها إلى اللامبالاة.. إلى اللا ألم، بعيداً عن الجميع.. بعيداً عن الأشياء بعيداً عن أيّ وترٍ يُحرِّك بكِ الإحساس.. بعيداً عن أيّ سطر يُشعل بكِ فتيلَ الحنين.. بعيداً ربّما عن ما تحبينه، ومن تُحبينهم..

كيف تكون الحياة، عندما تمضي بدون من نحب وما نحب؟.. كيف تكون الحياة بلا الحب، والحب فيها قسريٌ بشدةٍ؟.. كيف تكون الأشياء عندما تفقد لذَّتها؟.. كيف يكون اللِّقاء عندما يختصره البرود والغصّة بتاريخه؟.. كيف نكون في كل شيءٍ ونحن لا نطمح لأصغر شيءٍ؟ كيف تكون الدُّنيا، عندما ننام بإحساسنا أنَّنا نملك العالم. ونصحو على مفاجئة العالم بأنَّنا لا نَعني له شيئاً؟..

كيف نستمر؟ والحياة تضعنا على شرفة الماضي في واقعٍ قذرٍ قبل مُستقبلٍ مجهولٍ؟.. كيف نستمر؟ والواجب أن نخرجَ من الماضي، ونبتعدَ عن الواقع القذر، ونمضي إلى المستقبل بثباتٍ، وهو مجهول..

شغف..

لو أنَّ للقلب شفاهٌ لقال لكِ أحبكِ.. لو أنَّ للقلب عيونٌ، لنظرَ إليكِ طويلاً.. لو أنَّ للقلب يدٌ، لما قبل تحريرك من قبضته.. وما تنفع لو، وهي التي تفتح عمل الشيطان؟.. ما تنفع الـلو، وهي على صلةٍ وثيقةٍ بالنَّدم..

كتبت لك كثيراً، يا سيدة العفاف.. كتبت رسالة حبي الأولى، والثّانية، والثّالثة، والرَّابعة.. وقلت: يا سارق الروح لا تمُت.. كي أعيش معك العناق، وأتعطَّر برائحة العرق.. وأشرق على الدّنيا كما الشّمس في الغسق.. ورجوت الخيل بالصمت، لأنَّك يا حبيبتي، تخافين الصَّهيل.. فتمضين أنتِ، ويبقى وراءك الفرح نحيلٌ. وقلت أنَّني وأشيائي والصَّدى.. والزَّهر والورد والنَّدى، لا شيء إذا ما طغى طيفُكِ على المدى..

قلت لك سراً وعلانيةً، شغف.. إنَّ حياتك مع جاد كشريك لكل شيء لا تُعدّ حياة.. وفي كل مرةٍ، كنت أقولها لكِ.. كنت أخوض في قرارة نفسي صراعاً عنيفاً لأني صاحب مصلحة في هجرك لجاد وفراقه. إنَّما الحقيقة تلك، أقولها لأني أشعر بها، وأنا لا أملك فيها شكاً.

قلتها، لأنَّكِ سيدة تستحقّ عطر رجولةٍ لا أنياب لها.. تستحقّ الغيرة الذكورية على كل شيءٍ، لا الشَّك في كل شيءٍ.. قلت لكِ كثيراً، اتركي جاد كي لا تطحنك أرحاء العيش معه، فلا يمكن لرجلٍ أن يخرج من دوامة الشَّك بأنثى بُعيدَ دخول الشك إلى أفكاره، أبكاكِ الشّك طويلاً يا عزيزتي، لهذا أبكتكِ الخيانة كثيراً..

فلا تحزني..

وإذا أردتِ جَرْحي.. أدْخلي أظافرَكِ بهدوءٍ في أيْسَرِ الصّدرْ.. لأعيشَ المُتعة جيداً.. واحرصي ألا يَمَسّكِ دَمي، فيعرفونَ أنَّكِ قاتلتي.

* * *

حبيبي..

منذ ليالٍ عدّة أصبح الليل صديقي، والسهاد يرافق عيني حتَّى ساعات الفجر الأولى..

كلُّ ليلٍ ينام جسدي، وتكون أفكاري في أوج نشاطها المنصبّ عليكَ، أو على حبكَ أو عليكما، أنتما الاثنان معاً.. ثمَّ ينتهي بي

الـصِّراع دون أن أجـد تفسـيراً لوجـودكَ، وشـجاعتكَ وحبـكَ الـذي استطاع كسر كل القيود لامرأةٍ شرقية المنشأ والتَّفاصيل..

أمَّـا اليـوم.. رغـم إزعـاج جـاد قبـل لقاءنـا وبعـده، أشـعر أنَّ هـذا لا يعنينـي أبـداً، وأسـترجع لحظة غضبـي الدَّاخـلي، عندما لفظت اسـم دَلع على شفتيك، كنتُ أشعر أني أريد أن أقطعها حقاً..

اليـوم وردي كانـت نـيران غـيرتي تشـتعل، وأنـا في جـوارك واقفـةٌ، جالسـةٌ، ومتكئـةٌ.. اليـوم وردي دخـل خنجـر الغيرة النّسـائية صدري، ودفعني إلى الجنون أكثر فأكثر..

آلاف الأسـئلة.. آلاف الجمـل.. كانـت تـدور في عقـلي أثنـاء ثانيتين لا أكثر..

أريـد أن أملـكك، أريـد أن أقتلـك، أن أسـجنك، أريـد التَّحكـم بعينيـك، كـي لا تنظـر إلى شيءٍ لا أحبـه.. وربـما إن حصـل ذلـك لـن أتـرككَ تنظـر إلى شيءٍ سـواي.. أريـد أن أتسـلَّم سـلطة أحشـائك، كي ترفـض أيَّ طعـامٍ ليـس من صنـع يدي، ولم يسـلك طريـق أصابعي قبل ثغـرك.. أريـد الكثـير يا عزيـزي، كأن أفتـح جسـدك في غرفـةٍ معقَّمـةٍ وأصـل شراييني بأوردتـك، وشراينك بـأوردتي، فلا تعـود تنفع لامرأةٍ سواي ويلبسنا العار معاً..

أريـد الكثـير حقـاً.. كأنْ أنتشـل منـكَ قلبـك، وأزرع فيـكَ قلبـي.. فنبقـى معـاً أحيـاء إلى اللانهايـة، لا تسـتطيع عشـق غيري، ولا يسـتطيع قلبي هجرك إلا إلى الموت..

وردي..

لا أشعر أبداً أنَّني سأكون لك وحدك في يومٍ ما، إنَّما أشعر أنَّكَ كل هذا العالم، أنَّك وحدك كرةٌ مستديرةٌ فيها البرّ، والبحر، والجو.. وأنا مطمئنةٌ، لأنَّني أينما كنت.. سأكون عليها.

وردي..

لا أعرف كيف دقَ باب قلبي هذا الحب بذاك الهلع؟.. لا أعرف لمَ قبلت، أن أفتح له كل الأبواب بدل أن أزيح له أحدهم؟ ولا أعرف كيف استطاع إقناعي بالهروب معه، حيث لا أدري، ولا يدري. ولا أعرف كيف ضخ في جسدي كل هذا الفيتامين والهرمون لأمشي بجواره أشهراً بكل جنونٍ ولا أعاني التَّعب..

وردي..

أتساءل ما بيني وبين نفسي، كيف تستطيع تحمل كل هذا الألم عندما تجلس إلى قلبي وتداويه، وتشجعه على الحياة في ظل الخراب الذي يزيده جاد يوماً بعد يومٍ. أتدري أشعر أنَّني أُحسَد عليك، حين أراقب العيون التي تلمحنا سويّاً في أيّ مكان..

لستَ أتمنى إلا أن نبقى تحت سقف الحياة معاً، يا عزيزي؛ لا يعرف أحدٌ عمق وجع امرأةٍ يُخيّب آمالها رجلٌ يملكها.. ويحقّق آمالها رجلٌ آخرٌ لا يملك منها إلا بعض الحضور..

لا أعرف حقاً، كيف تلبسني السّعادة، عندما أكون بحضرة

جنونـك الطَّاغـي عـلى كل شيءٍ، وتخلعنـي عندمـا أنطـوي بـين أفـكار الرَّحيل عنكَ..

في الحقيقـة؛ لا شيء أثمـن مـن أن أكون بـين ذراعيـكَ في لحظة هدوء شاسعة المدى.. ولا شيء أثقل من هجرانكَ أيها العزيز..

اليوم، أعترف لك بأنَّني وبعد أن عرفتكَ، أصبحتُ أترك الواقع مُتوسّداً فراشي بدون أدنى اهتمام.. وأمضي لأعيش الخيال الحياتيَ خارج منزلي، كما لو أنَّني مريضة منهكة الجسد تتناول بعض الدَّواء وتعود..

أحبك جداً وردي.

* * *

- أين كنت ورد؟
- كنتُ هنا!.. لماذا؟
- أخبرني أين كنتَ بصدق؟
- هل رأيتني في مكانٍ آخر؟
- هل كنتَ أنتَ في مكان آخر؟
- بالطبع لا.
- إذاً لماذا تسأل؟
- لأتأكد من الإجابة.
- أي إجابة؟
- التي سأجيبكِ بها.

- لم أركَ.. لكن أودّ أن أعرف.

- اجلسي إذاً.

- ها قد جلست، أخبرني الحقيقة.

- أتيت إلى هنا منذ ساعات.

- مممم.. وماذا تفعل هنا منذ ساعات.

- لا شيء.. كما أفعل الآن.

- وردي ما بك؟

- أشعر ببعض الضِّيق فقط.. ليس هناك شيئاً مهماً.

- ولكن شعورك هذا يهمني.

- لماذا يهمك؟

- لأنَّكَ حبيبي وردي.. يزعجني أن تشعر بالضّيق.

- مممم.

- ما بك؟.. ألا تود الحديث معي؟

- لا أدري شغفي.. مشيتُ قليلاً في المدينة فشعرتُ بالغربة.. شعرتُ بوحدتي.

- هل تشعر بها، وأنا هنا وردي.. لماذا؟

- الأصعب يا عزيزتي، أن تشعري بها في وقتٍ يفترض ألا تشعرين بها أبداً.. لكن لا أدري لماذا تملّكني هذا الشعور اليوم.

– اهدأ وردي أرجوكَ.. ها أنا هنا.

– عُذراً.. هل تودين أن تتناولي شيئاً سيدتي؟

– نعم.. أريد بعض القهوة السادة.

– سيدي؟

– أريد مشروبي المعتاد.. مرةً أخرى.

– حاضر.

– شكراً.

– ألـن تتوقَّف عـن إيذاء نفسـك ورد.. ألا يكفي ما شربتـه اليوم من الصّباح، وحتى الآن؟

– شغفي.. لا أستطيع الاستغناءَ عنه.. أشعر بالإحباط عندما أتجنَّبه.

– حبيبي.. لا أحب أن أراكَ حزيناً.

– لا أعرف لماذا أشعر بما أشعر به.. لكنَّه يكاد يخنقني.

– لا أدري ماذا أقول لكَ عزيزي.

– لا تقولي لي شيئاً.. يكفي أنَّني بحضرتكِ كي أَهدأ.

– لم أعتد عليكَ في هذا الحال.

– كثرة الكتمان مؤلمة جداً.

– ماذا تكتم أيها العزيز؟

– في بعـض اللَّحظـات توجعـكِ الدُّنيـا بـلا أسـباب.. وهـذا الوجع

يتمتَّع بخباثةٍ لا توصف، لهذا يسود الصَّمت في حضرته.

- كيف يزول وجع كهذا؟

- يزول بإزالة السَّبب.

- لكنَّك قلت أنَّه بلا أسباب.

- نعم ولهذا لن يزول.

- ما الحل إذاً؟

- لا نملك حلاً يا شغفي، نقبله وجعاً كبيراً، ونصمت بكبرياء، ثم نغمض أعيننا، ولا ننام.

- مممم.

- ما بكَ؟

- لا شيء.. أستمتع بحديثكَ.

- تستمتعين بوجعي.

- لا وردي، لا تقل هذا.. لكنَّكَ عندما تتحدَّث ممتعٌ جدّاً.

- جيد.

- هيا أكمل.

- أثناء ذلك الوجع تكونين أجمل.. يصبح وجهكِ أكثر واقعيةً.. تقتربين إلى الحياة أكثر. وعندها يصبح الحزن متعةً في وجعٍ كبيرٍ كهذا، تخرجين إلى الشارع بجبين موسوم بكثرة الجراح، وتلك الجراح تكون مفتوحة أمام النّاظرين.

– ممم.

– تصبحين مثيرةً للشَّفقة، ويصبح الموت لديك أمنية، بسبب فكرةٍ تلقَّيتها من أحد شخصيات هذه الحياة أو المارين فيها، ولكن سرعان ما يتوضّح لكَ عكس ذلك.

– كيف يتوضَّح ذلك؟

– يتوضَّح ذلك عبر ابتسامة تبتسمينها عن غير قصدٍ، عبر شيء تحبينه جداً فتتناولينه. مثل هذه التَّفاصيل الصَّغيرة تستطيع إعادة الحياة لكِ، وهي ذاتها تستطيع إبعادَكِ عن المتعة.

– أيعقل هذا؟

– نحن البشر مُغفَّلون جدَّاً، يا شغف.

– لماذا؟

– لأنَّنا نقتل الحب بالتَّملك. لأنَّنا نضرب موعداً كل يوم مع الذَّاكرة عوضاً عن النّسيان.. لأنَّنا نترك من يحبوننا على رفوف الحياة، ونُجلس على رفوف حياة من نحبُّهم. نحن البشر مضحكون جداً، يا شغف.. لأنَّنا لا نعترف بوجهنا الآخر ظنَّاً منا أنَّنا نُخفيه، وهو مرئيٌ جدَّاً.. لأنّ بعضنا ينتظر بعضنا.

– ثمّ؟

– نبقى ننتظر.

– أضحكتني وردي.

– هاهاهاه.. لقد أخبرتُكِ أنَّنا مُضحِكون.

– كيف يمكن أن نستمر في الحياة إذاً؟

– ولماذا نستمر في الحياة؟.. لماذا لا نترك الحياة تستمرُ بنا.

– لديكَ أفكارٌ غريبةٌ.

– إنَّ استمرارنا في الحياة متعبٌ.. بينما استمرارها بنا يضعنا في اللامبالاة، وعندما نشعر باللامبالاة تمر كل الأشياء بسهولةٍ.

– نعم هذا صحيح وردي.

– أتدري شغف.. في لحظات الضيق؛ نصبح أقرب إلى الواقع.

– لكن الأشخاص يتغيرون في هذا الواقع.

– وهذه أهمية أن نكون واقعيين في الحياة، هنا نكشف حقيقة من حولنا.. لا أحدٌ سيبقى طوال الوقت كما هو، لا أحدٌ ينتهي كما بدأ، ولا أحدٌ يبدأ ولا ينتهي. تتبدَّل الأدوار، ويتبدَّل الأشخاص، ليس هناك شيء يبقى ثابتاً، انظري حولكِ جيِّداً.. تأمَّلي المحيط ستُدركين ذلك.

– نعم.. لكن هذا موجعٌ جداً.. في لحظةٍ فجائيةٍ، ينهار ما بنيته في وقتٍ طويلٍ تذهب الآمال سُدى.. كأنَّك كنتَ في حلمٍ، واستيقظت فجأة منه.

– عليكِ أن تكوني ماهرةً في البناء.

– كيف؟.

– اتركي الطب.. واذهبي للهندسة لتتعلَّمي ذلك.

– هاهاهاهاه.. تبّاً لكَ.

– عليكِ أن تبني على أعمدة متعدِّدة، كي يبقى سقف حياتكِ واقفاً.

– هل تشعر بالتَّعب؟

– نعم.. قليلاً.

– فلنذهب إذاً.. لتُريِّح نفسكَ وتستطيع الاستيقاظ باكراً.

– لماذا أستيقظ باكراً؟

– كي أراكَ في الجامعة.

– هاهاهـاه.. أقنعتينـي.. حيـث أنَّ الأيام التي لا تحتـوي طيفكِ تفقد جمالها، وتمر سيِّئةً.

– لو تدري أيها العزيز، كم أتمنّى ألا تنتهي أيّامنا أبداً.

– لا شـك شـغف بأنَّ كل شيءٍ ينتهـي.. لذلك علينـا اقتناص فرص السّعادة.. وأنتِ سعادة اقتنصَها قلبي.

– وقد قُنص قلبي وردي.. فهو لكَ حتى بعد أن ننتهي.

* * *

في ذاك المسـاء.. لملمـتْ الطيـور أجنحتهـا، ووقفـت تتابـع الحـب. ابتسمت كل النُّجوم بشغفٍ، وضجَّ الفرح في كل شيء..

كانـا قطعتين من العشـق، أنزلتهما مظلاتٌ تائهـةٌ، ليلتقيا على الأرض في مشهدٍ من صناعة الصّدفة..

ذاك الغريـب، وتلـك المتألمة؛ وجهين لـوردةٍ غزيرة النّـدى، كان لابد أن تُسقى بالحبِ لتستمر في الحياة وتواجه تخبُّطها..

وفي ملحمة عشق خارج عن القانون كان على الفراق أن يدق أبوابهما كثيراً، لأنَّهما يُشكِّلان ملجأً من الذُّعر الحياتي المتمثِّل بالخيانة التي ما كانت شغف تستطيع صدَّها أو إيقافها، والوحدة التي طغت على كل شيءٍ في ورد..

هناك حيث يحتضر الخوف، ويحضر الحنان، ويصبح الشّيء فوق قرار المغادرة، ولا يمكن للغياب أن يكون طويلاً..

ما فعله ورد.. هو بالضَّبط ما كان ينقص جاد، وهو أيضاً ما له أثرٌ كبيرٌ لدى النِّساء، لتتأرجح شغف في أرجوحة العقل والقلب، لشدة ما تلقَّته من رجولة جاد الجائرة، ورجولة ورد الراعية، والفرق بين هذا وذاك شاسعٌ جداً.

تقوقعت كثيراً على نفسها، وأمضت أيّاماً تحت الغياب. مبررةً ذلك بقولها: لن نستطيع أن نكمل الحياة معاً لابد لنا من البُعد.. لا أستطيع تبرير وجودك أمام النّاس.. ولا أستطيع الصمود أمام كلماتهم الثّقيلة.

تكرَّر غيابها، لكنَّه ما كان ليستمر أكثر من بضعة أيام.. فمن الصعب جداً أن تتنازل حواء عن شيءٍ يعني لها الأمن والأمان. أو مكانٍ تستطيع الجلوس فيه مطمئنةً، فتلك الطَّمأنينة التي تسري بداخلها وحدها القادرة على نزع فؤادها..

كان لا بد لشغف أن تتخبّط في إحساسها؛ كونها امرأةٌ تحت الشك بالنّسبة لجاد، وامرأةٌ تحت الثِّقة بالنِّسبة لورد، الذي استطاع مسك

زمام قلبها رغم صغر سنّه، واحتلال مكان جاد صانعاً منه مكانةً عظيمةً. وكان من الطَّبيعي جداً، أن يميل قلبها بالحب لورد، مقدِّماً لدماغها إيعازاً دموياً يحمل ورد بدل جاد، مما جعلها تتَّخذ قرار التَّخلي عن جاد ضمنياً، وتسعى لتحقيقه واقعياً، فبين رجلٍ ورجلٍ يختلف كل شيء..

لم تكن لتغفو مرَّةً دون أن تطمئنّ عليه، أو تتساءل عنه في ثنايا صمتها. فلا بد للعاشق، أن يزور طيف عشقه قبل النَّوم، ويحطّ قليلاً في محطة الذِّكريات، ليتسارع نبضها شاهداً على حضرة العشق، وتبقى مخازن دمعها ممتلئةً، أو فارغةً، وحدها القادرة على أن تروي قصة العذاب الذي كانت تخوضه في ليالي حبها، وما يحصل على الفراش والوسائد آنذاك..

كانت تواسي قلبها بقولها: كل اللَّيالي مريرةً.

كان الصراع قاسياً عليها لتحاول الهرب بشتى الوسائل، ومن كل ما، ومن في طريقها، حتى وجوه الأصحاب.. شغف؛ تلك الفتاة التي أُجبرت على أن تقف على حافة الهاوية، وتخوض صراعاً مثل هذا الصراع، وهي في ربيع العمر هربت منها الروح، ولِحِقَت بها شغفاً. ففي كل مرّةٍ، كانت تجد أنَّ الهروبَ حلٌ إلى أحضان ذلك الشاب الروحية والجسدية. وجدت كلّ ما تحتاجه أنثى، كي تقوم بثورةٍ كاملةٍ، وتكون جاهزة لتدفع الثَّمن مهما كان غالياً أملاً بألا تبقى على قيد الحياة مُكبّلة..

لذلك ما كان ليُفارق أفكارها، وأحاديثها بينها وبين نفسها. في الجامعة: بهوِها وأركانها. في البيت: أبوابه وأسِرَّتهِ في الشارع: ليله ونهاره.

هكذا احتلّها كجيشٍ عازمٍ على إنهاء معاركه منتصراً، فأشعلت شمعة قلبها بيديه، وأطفأت نار وحدته بحضرتها. وأخذا يشقان طرق الأرض بعشقهما، ويزرعان أرواح بعضهما البعض باللَّيلك والورود..

وما كان عذاب ذاك الغريب أقل قساوة من تلك المتألمة، وما خوضه لذلك الانتحار إلا دليلاً واضحاً على شِدَّةِ الحب، فهل من حب يقتل أكثر من هذا..

كان لابد له من كتمان حبه في البدايات.. ثم كتمان غِيرَتِه.. ثم كتمان خوفه من النِّهاية؛ المأساة المنطقية لأمثال هذا الحب..

ورد؛ الرَّجل الذي تحدَّى قانون الرجولة.. متنازلاً عن كل المبادئ، والتَّقاليد العشقيَّة ليتمّم فرحة محبوبته ممارساً للجنون بأبهى صوره وأعنفها، ليكون لها الطَّبيب لا الجرح..

عانى كثيراً من ليالي حبٍ مغتصبٍ، حباً خُلِق مغتصَباً.. اغتصبه جاد في حضرته تارةً، وفي اجتثاث السَّعادة من قلب شغف تارةً..

في كل الأحوال.. كان ورد يقضي وقتاً طويلاً في جدولٍ من التَّناقض الحياتي في ظل حضورِها، وفي غيابها المفاجئ النَّاتج عن زيارة جاد لها بشكلٍ متكرِّرٍ.. بالإضافة إلى رؤيتها الواقعية التي كانت تُفضي إلى

أحاديث البعد الواجب بينهما، مما جعل ورد يخوض وجعاً كبيراً أثناء ذلك. فكان حزنه يغلب على فرحه، مع ذلك ما كان ليتراجع عن جنونه. فدخوله معركة مثل هذه، هو بالتَّأكيد ضربٌ من الجنون، مبرِّراً هذا بقوله: وما لذّة الحب إلا بحضرة جنونِه..

نجح ورد إلى حدٍ بعيدٍ في اجتثاث جاد من قلب شغفٍ، ووضع نفسه في مكانته، وبإتقان أخذ يتوسَّع في صدرها ولأجل ما يَكُنُّهُ لها، واحتراماً لتلك الأحاسيس كان يَلهث وراء فرحتها، ولم يُثنهِ عن ذلك كل ما كان موجعاً له. ورغم علمه أنَّ شغف ستمضي يوماً ما كان يقول لنفسه: فلتبقَ حتَّى نهايتنا القَدرية..

كانا يُشكِّلان ثُنائياً مُتجانساً في كلّ أجزائه، كأنّهما قطعتي قمر يُكمِّلان بعضهما البعض.. لذلك كانا يثيران حسدَ مَن حَولهما.. هذا ما جعلهما يدخلان نفقاً مظلماً للغاية، ويتعرضان كثيراً للآراء، التي غالباً ما كانت تنصبُّ على شغف من محيطِها.. وبالتَّحديد من زملائها الذين ما كانوا أبداً يعرفون الحقيقة باستثناء جَوى.. فيما كان ذلك معدوماً بالنسبة لورد لعدم اكتراثه، وقلّة من يستطيعون التأثير عليه..

خلف الكواليس كانت تدور أحاديثٌ كثيرةٌ.. خلف الكواليس كانت تدور أحاديثٌ سيئةٌ.. لشدَّة ما جمعهم من التَّعلق.. في علاقةٍ يعتبرها الكثيرون غبيةً لعدم انخراطهم في تَفاصيلها.. كان سيف الكلمات يُفتِّت حبهما الطّاهر ويجلد دماغيهما وقلبيهما البريئين..

ولكن ليس كلّ من درس الطب كان طبيباً ناجحاً، وليس كلّ من

خـاض الحـب تألّـق بقطـرات نـداه، وليـس كلّ مـن تكلّم نزلـت كلماته منـزل الأهميـة.. وليـس كلّ من يُحكـى عنه كان كـما يُقال.. تلـك حقائق لا بدّ لنا من تصديقها ولا بدّ لها أن تتوضح في عمرٍ ما..

جَـوى ووَجـد والشـتاء وليـالي إبريل والقمر، شـهود عيـان على تلك القصة آنذاك. وأنا وأنت، والورق نعرفها الآن.

جَـوى؛ كانـت لاعبـاً أساسـياً حينهـا، وسـاعدت في رسـم ملامـح الأجـواء التـي كانـت تُحيـط بصديقتهـا شـغف، وورد الـذي أصبـح صديقـاً لهـا بعد ذلـك، لتجدها شـغف وسـط تراجع بعـض الرفاق بعد شرخ وجـود ورد، وكثافـة تأثيره. ولأنَّهـا كانـت تشـارك شـغف في مسـكنها فكانت حاضرةً في كل شيء.. شـهدت غرابة شـغف، وصمتها الشَّـديد في البدايـات، ثـم تدفـق البـكاء عليهـا أثنـاء الليـل، لتدفعُهـا روحهـا الأنثوية إلى احتضان شـغف، ومسـاندتها.. كأنَّها تلعـب دور أُمٍ، في وقـتٍ كانـت شـغف بأمـسّ الحاجـة لذلـك وخاصـةً، في ظـلّ أمومة مشـوّهة بأنيـاب غِـيرةٍ قاتلـةٍ، وغيـاب منابـع الحنـان آنـذاك، بسـبب اسـتغلال جـاد لهـا، وميلهـا نحـوهُ.. مصدِّقـةً أقاويلـه المشـكِّكة بابنتها، فدمعـه الزَّائـف أمامهـا جعلهـا تسـير عـلى خُطى الشَّـك معـه، ليكتمل مَشـهد الحيـاة القاسـية مـن كل زوايـاه المؤلمـة، فمـن أيـنَ يأتيـكَ الصَّبر أيّتها الصَّغيرة البريئة النَّقيَّة؟.

وَجـد كان حضورهـا عـلى أرض تلـك المعركـة أقـل بسـبب طبيعتها المتحفِّظـة، لكنَّهـا كانـت سـنداً رئيسـياً لزميلهـا وخاصـةً بُعيـد لقائهـا

شغف، وانسجامها معها.. لتأخذ كل الثقة منهما..

كان ورد يلجأ إليها كثيراً، وكانت شيئاً أساسياً لتخفيف وطأة أيام غياب شغف عنه..

يقول ورد: لولاها لتغير الكثير. كانت مهمةً جداً بالنسبة لي، قدَّمت لي المساعدة في كل شيء، حقاً، إنَّها صديقةٌ يُعتمد عليها، وتَستحق الثّقة..

كذلك جَوى، كان وجودها ممتعاً، ساعدت في إضافة طابع الصَّداقة من حولنا. كانت طيبةً جداً، ومحبوبةً، ولها في قلوبنا مكانةً خاصةً بها.

الشِّتاء؛ كان الشَّاهد الأجمل، سماؤه البيضاء، ولياليه الباردة التي احتضر بردها أمام حضرة الحب..

كان الشتاء يغذيهما معاً، فالشتاء غذاء الحب.. كانَ لابدّ له أن يضيف لمساته آنذاك، ليكونَ الشتاء الأكثر دِفئاً لهما في ديسمبر، فبراير، مارس، إبريل، ماي وجون، شيءٌ لن يُنسى أبداً.. وفي جون، كان عليهما حمل حقائب الحب والمغادرة، كل منهما إلى مسقط رأسه بعد انتهاء عامهما الدِّراسي الأول له، والأخير لها، بنتيجةٍ فحواها أنَّ شغف وكما كان يتمنى ورد ويدعو دائماً، ستعود في العام الجديد، فقد شاء القدر ألا تنتهي هنا، وينتهي وجودها.

– شغف.. أتمنى حقاً ألا يُحالفكِ الحظ أثناء فترة الامتحان.

– لماذا؟

– كي تعودين مجدَّداً إلى هُنا.

– سأعود، وإن حالفني الحظ فهناك إجراءاتٌ كثيرةٌ عليّ القيام بها.. عليك أن تتمنى الخير لي.

– هههه.. لا يَسعُني قلبي على ذلك.

– تباً لكَ، أيّها الصَّغير.

– تباً لكِ، أيّتها القصيرة.

– هاهاهاه.. لا أعرف ما سيحدث آنذاك.. لكن سأحاول، وأبذل كل ما بوسعي كالعادة.

– وأنا أيضاً.

– واو.. هل قرَّرت أن تزيد مجهودك الدراسي، وأخيراً.

– بالطّبع لا.. لكني سأدعو بكل إيماني ألا تنتهي.

* * *

كانت ابتسامتها يا ورد، تعني أنّها تتمنى في قرارة نفسها كما تمنيتَ أنتَ لها، لكنَّها تركت ذلك، ليكون عن غير قصدٍ، معتمدةً على يقينها بأن القدر سيفعل ما يشاء في كلّ الأحوال. وجَرَت الرياح بما تشتهي السفن، دون أن تُمزّق الأشرعة..

ولأنّ الحُبَ يكونُ خُبْزاً أحياناً، علينا أنْ نؤمِن بشيءٍ منهْ، علينا أن نقف في ساحاته ونقاتل، ولو كان القتال لا يُفيد، علينا أن نحظى

بشرف التَّجربة على أقلّ تقديرٍ..

ولأنّ الحب يكونُ تُهمةً غالباً، علينا أن ندخل سجن جنونه، علينا آنذاك، أن نواجه محاربيه مهما كانوا أشدّاء.. ومهما كان نوع الأسلحة..

- سأحاول التَّخلص من جاد بأي وسيلةٍ.

- يتوجب عليك ذلك.. لا أظن أنَّ حياتكِ ستكون جيدةً معه.

- أشعر بذلك، ولكن لا أعرف؟.. هل سأستطيع؟

- كما استطعت منحه تلك الفرصة.. تستطيعين سَلبهُ إيَّاها.

- المشكلة تكمن في محيطنا ورد.. من سيحمل على عاتقه مساعدتي في ذلك.

- لا أحد.. هذه هي الحقيقة لا أحد.

صديقهُما المطر.. صديقهُما القمر.. على القرب.. على البعد.. ليكون لهما فصلاً خامساً يتميَّز بحضوره الدَّائم.. وكأساً يَصبّان فيه شوقهُما على مدى الليل، ومحطة أمنياتٍ يرميان عليها الأماني في كل وقتٍ. ولأنّه علامة العشق والملامح الوسيمة لا بد لكل عاشق من ذكره أثناء العشق، والتَّصبُّر به أثناء الألم، والاقتداء بوجههِ أثناء وصف المعشوق..

- لازلتِ جميلة.

- كأنَّني غبتُ كثيراً.

- لا يغيب القمر أبداً.

- أنتَ القمر وردي.

- لا بل أنتِ.

- لا أنتَ.

- أنتما الاثنان تُشكِّلان وجه القمر.. بالحب.

- هكذا يتراشق العاشقون بالعِشق.. فلا تدري أيَّهما يعشق الآخر أكثر، أي أنّكَ عندما تكون متيَّماً لن تقبل أن يكون المتيّم به أقلّ منكَ بشيءٍ، وتلك هي حضارة الحب التي يفتقدها الكثيرون..

أمَّا أنت والورق.. يقول ورد:

أحببتُ أن يكون الورق حافظاً لتلك القصة، لأنَّه الوحيد الذي لن يُعاني من نوبات النِّسيان البشرية، وذلك كان تخليداً لها وفعلَ قتلٍ..

فضحت أسرارها، داعياً كلّ من يهمّه الأمر للدُّخول إلى أعماق العِشق، مساعداً إيّاه على كشف المستور، والتَّفكير بتفاصيلٍ ربما كانت غائبة عن بصيرته..

أردتُ أن أخبر زملائي في الحب كيف تكون تضاريسه، وطقوسه، وخفقاته، وأنَّ التَّضحية فيه ليست إلا شيئاً من المجد، والموت من خلاله هو بالضَّبط انتقالٌ إلى حياة أخرى..

أردتُ أن أصنعَ تعاليماً خاصّةً ليعرف من لا يعرف أنّ الحب يَفرض نفسه كما يَفرض حضوره، عندما يكون حقيقياً أو بِكراً، وفي حضرتهِ يكون كلّ شيء جميلاً..

أيَّها الصديق الكاتب: أخبر أصدقاءنا العاشقين، أنَّ الحب يعني السَّخاء كما يعني الألم، يعني الحرب والسِّلم والدِّفء والبرد في امتزاجٍ حياتيٍّ رائعٍ. أخبرهم: ألا علاقة للتملُّك فيه، وأنَّ القلوب التي تحب ليس بوسعها أن تركب دراجة نارية، وتمضي بذريعة أنَّه لن يُكلّل بالنَّجاح..

أرجوكَ علّمهم ألا تُثنيهم مرارة الحبّ عن الحب، ولا نُصْحَ من سبقوهم بعقود، قُلْ لهم: إنَّ العشق هو إحدى معارك الحياة، والنَّصر فيها هو السَّيطرة على قلب. قُلْ لهم: إنّه حاسّةٌ سادسةٌ، يدٌ ثالثةٌ، إنّه متعةٌ تخصّ الإحساس.

علّمهم: أنَّ الرجولة لا تَعني السَّرير، وأنَّ الأنوثة ليست حلبةُ ماكياج..

فليكونوا حقيقيين، كلٌّ في مكانه، فالإنسان الحقيقي وحده من يحظى بمكانةٍ راقيةٍ، وخوض غمار الحياة بشجاعةٍ.

* * *

الـوداعُ.. يومـاً مـا، سـيجمعني الـوداعُ بكِ وسـأمضي وحـدي أحملُ زادَ الوحشـة، والعُزلـة.. فقفي هناكَ فـوقَ عتمةِ ذاك الصنـدوق، وقولي لي كلاماً جميلاً، وازرعي ورداً ليبقَ الترابُ سعيداً، ثم غادري..

الـوداعُ؛ لا بـدَّ لي مـن وداعـكِ في قدرٍ مـا، رغمَ أنَّـكِ كُلّي، أثـقُ أنَّكِ لن تكوني لي. فعشقُ الشَّمس يا سيدتي لا يُثني الشّمس عن الغروب..

الـوداعُ؛ سـأتركُ موسـيقاكِ أمانـةً في أروقـةِ المدينـة، حتى نعـودَ إليها أو أعود وأستمرُّ أنا في المشرقِ المطلِ على جنوبِ غرب الحب الشَّمالي..

ولأنَّنـا يا عزيـزتي، شرقيون في الأصـل، لا يمكنُ لنـا أنْ نُكمل الحياةَ حيثُ نرى الحياة، كأنَّ أقدارنا السَّيئة توجّه مراكبنا لِنبقَ بلا شواطئ..

كانـت رحلتـي قصـيرةً جـداً، كأنـمَّا الغيـم أراد إبعادي عنـك بأقصى سرعـةٍ ممكنـةٍ، ولا أدري لمـاذا؟ ما شَـعرت إلا أثنـاء نداء الهبـوطَ. كنت مثـل مـن يشـاهد واقعـاً عاجـزاً عـن تصديقـه، فأنـا هنـا لأربعة أشـهرٍ كاملةٍ، وربما تزيد..

لـن أخبرك عـن قاعات المطـار، كم كانـت ضيقةً، ولا عـن الطرقات كـم كانـت طويلـةً، ولا عـن الوقت الـذي كاد يأكلنـي. لكن متـى أراكِ مُجدَّداً؟ كيف سأعبر هذه الأزمان الحُبالى أو كيف تَعبرني؟.

ربما سـأقفُ عـلى مـسرحٍ كبـيرٍ، وأُغنـي للحاضرين عـن الحب حتى أُبكيهُـم جميعـاً. ثم أمضي في طريقي إليـكِ تاركاً لهم كلامهـم، وأفعالهم، وأفكارهم ودرساً من دروس العشق سيذكرونه حتّى نهاياتهم..

ربما سأُغني لكِ، وأغني بكِ، وأتغنّى، ثمّ أبكي اشتياقاً، ثم أنزفُ حُبَّاً حتى أنتهي.. ثم تلمّني لَوعَتي منهم إليكِ، وأنتِ البعيدة هناك على ضفاف المدى، والخمر الحلال، والوعد المنتظر، والظل في الظل..

ربما سأبقيك مجهولةً، وأتركُ لهم توقّعاتهم اليائسة عن معرفتك، كالغَرقى في متاهةٍ.. وهم لا يعلمون ألا كيدٌ عظيمٌ يتوقّعكِ، ولا تعدديةٌ ذكريةٌ زائغةٌ تستطيع إيجادكِ..

وأنتِ القريبة كما القلب وقلبه، والجدار وطلاءه، لكن متى تعيدين تحويلي بين ذراعيك إلى طفلٍ صغيرٍ، إلى وردةٍ يتسلَّقها النّدى ولا يشمها سواكِ..

شغف..

ربما لن أراكِ كما أتمنى، لكنَّني سعيتُ إليكِ كثيراً، حتى رضي قلبي عني. كنت أركض أجتاز الكلمات وألملم فتاتها كنت أحاول نسج النّصيب المزعوم لكل حبيب، أو الحبيب المزعوم لكل نصيب. نسجت كثيراً، ولا أدري اليوم من كان النّاسج، ومن هو المنسوج، ولمن نُسج؟

كنتُ أزرعك بين كل حرفٍ وحرفٍ، وخلف السطور رسمتكِ بهيئة نهدٍ، كي تثورين على الحبر، وتخفينه.. فأصبح أنا قارئ نهدٍ..

أنتِ لي حقاً..

حين يختفي بوح الشمس في الخجل.. حين يضيع النَّبض في مجرى الشّفاه في القُبَل، وحين يسكن الفرح في الطَّلل.

أنتِ لي غداً..

حين يُسقى الموت ببياض المقَل، وحين يركب الصّدق اعتراف الدّجل، ويتحدَّث اللِّسان المزروع في العضل..

شغف..

يوم هربتِ من حضور جاد، وجدتُ وَلَه تنتظرني بكل ما أوتي العالم من لباقةٍ، وأناقةٍ، وجمالٍ، ورقةٍ.. استقبلتِني بحفاوة ترابٍ يلف دماءَ شهيدٍ، ركبت بجانبها أشم رائحة الماضي، وأشتم نفسي على ما فعلته آنذاك. كانت تسترِق النَّظر إليَّ متعمِّدةً، وكنت أحاول الفرار من اللِّقاء عيناً لعين.

كانت تصعد أمامي بسكونٍ، وفجأةً، استدار شوقها، وقذف بها إلى صدري، لا أعرف كيف سقطَت حقائبي من يدي، ولا أستطيع تفسير توقف استيعابي أثناء ذلك.. تلك الثّواني كانت كافيةً لتعبِّر عن كل شيءٍ كان يسكن داخل وَلَه على مدى الغياب الطَّويل..

دخلت تعد لي الطَّعام، وتركَتني أسير الضَّجيج المنبعِث من التقائِكما في قلبي، لا أدري ما الذي كان يحدث حقاً كنت أفكر بكِ، بما تفعلينه أنتِ وجاد. وفي ذات الوقت، أنظر إلى وَلَه تحضر الأطباق بالفرح واحداً تلو الآخر..

حقاً، كنت شتاتاً في شتاتٍ. أحاول جمع أجزائي المنثورة من حولي، واعترفتُ بالفشل حين نادَتني وَلَه، وجلستْ أمامي على مائدةٍ طهتها

العيون لا الأنامل..

أمام البحر ذبلت الجفون، كنتُ منهكاً من تمدُّدي بين الماضي والحاضر، حدَّثتُ الماء كثيراً عنكِ، وفي نهاية الحديث، سقطَ رأس وَلَه على كتفي، وتغلغلت يدها في يدي، وراحت أنفاسها تسألني عن شرودي. كنت خائفاً كثيراً حتّى أنَّني كدتُ أرتعش. وهنا توقف الموج، واختفى الصَّوت القادم من الأفق. ثم غفى اللّيل بصمتٍ، ولا أذكر ما حصل بعد ذلك.. كان الصبح قد أتى متناولاً منك قطعةً، ومنها قطعةً، وجلس أمامي يستفزني. كان الوقت يمشي في داخلي على الكبرياء، حتى انتهى الوقت، وانتهى الكبرياء..

أمَّا الآن فأنا هناك بعيداً، وأتمنّى لو أنَّكِ تضعينني على صدرِكِ، وتتركيني في سباتٍ، أو تجلسي أمامي، ويجلس في ثناياي إغماء. والآن؛ أنتِ هناك بعيدةٌ، لكن كلانا تحت السّماء، وليس لنا رسولٌ سوى القمر، وليس لنا لا حياة ولا رثاء..

وأعرف جيداً، أنَّني سأبقى طويلاً في مذبحة انتظارك، ولن أسعى للهروب في فقر اللقاء، في شيءٍ يشبه الموت، وليس له شيءٌ من الدَّواء..

لا أعرف لماذا يُدَرِسون الطب ويعلموننا إيَّاه حرفاً فحرفٍ؟ وأمام الحرمان يفشل كل الأطباء، وينزف التَّعبير من الألف إلى الراء.. ويجف الحبر في أقلام الشعراء.. وفي الحقيقة ليس لنا لا حياة ولا رثاء.

* * *

كيف سيمضي كل هذا الوقت وردي.. والنار تكوي أضلعي خوفاً عليك وخوفاً من بُعدك.. فالأنثى العاشقة يهيّجها غياب أمانها..

أتدري؟ مضت الأيام سريعةً جداً، كأنَّني كنتُ في حلمٍ يمتد لست أو سبع ثوانٍ فقط، وخرجتُ منه مولودةً بقلبٍ جديدٍ وروحٍ صاغها العشق بتأنٍ..

وردي.. تركتكَ تمضي في رحلتكَ وأعرف أنَّ خواطري لن تترك منك أي تفصيل. كل ما فيك سيبقى يرافقني كل الوقت..

تركتكَ.. وأعرف أنَّني سأعيش الأيام القادمة في ذاكرة الأيام الماضية.

وسيبقى خيالك ظل جسدي في كل تحرك أقوم به، وروحك مجلسي حين أجلس، وحين لا أجلس.. ووجهكَ مرسى بصري، وبصيرتي.

فالأنثى، أيها العزيز حين تحب؛ يُصَب الحب في أبهرِها، ويسري في كامل أجزائها، يُغذّيها كما الدِّماء.

وأنتَ آلاء أيسري حتى في غيابكَ، وما أنا فتاةٌ تنكر نعمةً مثلك، وأنتَ المتمدد في رئتي الوحيدة، ورئة مثل هذه يكفي بعضها لكل الحياة.. أنت الذي لطالما كنت طبيبي، أصبحتَ اليوم مرضي المستعصي، وأي مرضٍ هذا، الذي يضخ الحياة في ثنايا امرأةٍ مكتوبةٍ على سجلات الأموات. أنت العار الذي ألبسه الآن بكامل إرادتي.. وأي عارٍ هذا، الذي يزيد جبهتي فخراً وعلواً. أنت الحديث الناطق بلا كلماتٍ، وبلا صوتٍ، وأي حديثٍ مثل هذا يُفهم...

لماذا سمحت لك الأقدار، أن تتركني أنام جائعةً؟ هل نسي القدر أنَّكَ خبزي، وقوتَ يومي؟ أم أنَّه تناسى ليتركَني أسيرة إيلام جادٍ بلسانه، وجنونه..

اليوم أكتبُ لكَ على الورق، وأنتَ لستَ في حوزةِ عَينيَّ، لأنّكَ أخبرتَني يوماً، أنَّ الحقيقة تُكتبُ على الورق فقط بلا تغيير. ولأنَّني هنا فقط، أستطيع العيش بحريةٍ، والتَّحدث بكل الكلمات التي تجرِّم أي فتاة شرقية تقولها، ولو كان قولها همساً. ولأنَّك أيُّها العزيز، ذاك الوطن الذي أعيش فيه، وأفتقده في وقتٍ واحدٍ.. في سرٍ يعرفه الورق فقط على استثناء السَّماء.. ولأنَّني هنا فقط، لا أحتاج إلى إخفاء تمزقي، أو التّظاهر بالسعادة، وادِّعاء أنَّ الفرح هو الذي يبلل جفني لا فقدك، وفَقد مساءك وأجزائك، وتفاصيلك ولحظاتك..

اليوم أترك وحدي في المأساة بلا دفء صدرِكَ، بلا جهدك الكبير لرسم ابتسامتي، وبلا توصيتي على نفسي في كل حينٍ، وأنتَ المجتهد الوحيد في هذا حباً. أنتَ الوحيد الذي أبكيكَ بِحُرقَةٍ، ويغص فؤادي فرحاً وألماً عند ذكركَ.

أحبك أحبك ورد..

أعدكَ ألا أنساكَ، لأنَّكَ أنت الذي علمتني معنى العشق، أنتَ الذي علمتني كيف يكون الرجل رجلاً بحقٍ.. وأنَّ الأناقة هي أناقة قلوبٍ، وأرواحٍ، وأحاسيسٍ، ولا دخل لكل قمصاننا، وأظافرنا، وحلينا النِّسائي في ذلك. أنتَ الذي صببتَ عليّ

التَّضحيـة كشـلالات نِعَـمٍ تسـقط مـن السَّـماء، وعلَّمتنـي كيـف تكون التَّضحيــة، وكيــف يحتــضر المســتحيل في حــضرة الحــب، وكيــف يحتـضر الحـب في حـضرة المسـتحيل، وكيـف يسـتمران في الحيـاة معـاً، ويموتان معاً، كالشريان والوريد..

أعـدكَ أن أبقـى عـلى أعتـاب قلبـي أحميه مـن موجات نسـيانكَ حتى اللانهاية. وآثم إن ظننتُ أنَّك تنسى.

أعـدكَ أن تبقـى دائـماً أول ابتهـالٍ في صلواتي، وأول تمتمـةٍ أقوم بها في الصبح، وأثناء الغروب، وآخر ترتيلٍ تضيع صحوتي فيه..

أتـدري؟ كان الألم يسـيل مـن جفنيـكَ، مـن وجهـكَ، من جسـدكَ، مـن كل أجزائـكَ. كانـت عينـاك تفضـح عذابـكَ كـما تفضـح حبـكَ، وكنت أعيشُ عذاب العذابِ أضعافاً..

كنـتَ تنـزف أنتَ وينزف لأجلـك كل المحيط من شـوارعٍ، وأرصفةٍ، وجـدرانٍ، وأحجـارٍ.. كنـت أراكَ تسـقط أمامـي كورقـة خريـفٍ، ومـا استطعتُ يوماً إنقاذ سقوطكَ..

ورد.. كيـف كنـتَ تسـتطيع إخفـاء كل نجواك هـذه؟ لتظهـر أمامي قائـداً لغـزوات السـعادة، حتـى أوهمتَنـي أنَّـكَ مراهـقٌ تعبـث في الحياة قبل أن تتركني أتوغَّل في كواليسكَ..

كيـف اسـتطعتَ بلـع دمعـك وتركته يكـوي الحنجرة، حتـى دون أن تـترك لي وسـائدك نديةً لألثم دمعـك وألملم أحزانَك. أيّ شـجاعةٍ هذه؟

أيّ قـوةٍ جعلتـك تفعـل كل هـذا تحـت مسـمى التَّضحيـة لأجـل فتـاةٍ، ما اسـتطاعت منحَـك أكثـر مـن إحساسـها، وبعـض وقتهـا، وكل ألمها العـاصر بهـا.. وكل مفاصل التعذيـب في الغرام. كنتُ أشـعر أنَّكَ تهوى التَّحول إلى رمادٍ لتكون مثلي، ومَثَلاً لي كي يهون عليّ ذلك.

أعشقكَ.. بل أنا أكثر من مجرد عاشقة، أصبحتُ حمامةً تحوم في عالمكَ فقط، وإن كنت أهجرك أياماً، فتلك الأيام لم تكن محسوبةً في تعداد الأيام بل كانت مثل غربةٍ يشق ثناياها حنين العودة إلى الوطن..

و أنـتَ الوطـن ورد، أنـت الوطـن الحقيقـي، أنـت غرفـة عنايتـي المشدَّدة، وأنا أسعى لأبقى مريضةً كل العمر..

أنا بكل بساطةٍ حبيبتك، وهل من دنيا تستطيع احتواء غروري بعد هذا؟ أو يملأ قلبي رجلٌ سواك، أو تُغرِّد امرأةٌ بالإغريقية سواي..

فـإن ظننـتَ أنَّنـي مفارقـةٌ هـواك، فـإني أعتـذر للهـوى باسـمي وباسـمك، وأرضـخ لـكل خناجـره بـلا مقاومـةٍ. وأعلـم أنَّه لـو أذاب الـروح سـأبقى حيَّـةً بروحـكَ أنـت وردي.. وسـأبقى أشـم رائحـة قمصانَك المعطَّرة تأتي إليّ من عبق الذَّاكرة، ونشرب القهوة معاً..

خذ ما شـئت، ولكن لا تمضِ في سـبيلكَ، لا تخرج من ثنايا حشـوتي، فأنـتَ فيهـا الحيـاة. اليوم يمـضي كلٌّ منَّا إلى مسـقطِ رأسـه، تاركاً رأسـه هناك في خوابي العشق. وأتمنَّى أن نعودَ إليها معاً.

* * *

دعـكَ الآن وخُـذ قِسـطاً مـن المـوت، وامـضِ، كرجلٍ بكـى ولاموه على البُكاءِ.. كامرأةٍ حبلى وممنوعةٍ عن الولادة..

كل الحاضريـن هنـاك في أعماقـكَ يملكـون في دواخلهـم أشـياءَ معينـةً أجبَرَتهـم عـلى الحضـور، كلهـم في لحظـةٍ ما يُفكِّـرون أنَّهـم أفضـل كأبنـاء جيـلٍ، أو أبنـاء حيـاةٍ. وفي لحظـةٍ أخـرى يرحلـون، وهـذا سـخط الحيـاة علينـا لسـوء ما نفعلـه ومـا لا نفعلـه. لأخطائنـا السَّـاذجة، ولأنَّهـم اعتـبروا أنفسـهم أنَّهـم يملكـون سُـلطة الحسـاب التـي تخولهـم نعتـكَ بالصِّفـات المطلقـة في مشـهدٍ صَـادم جـدّاً.. وهـم يظنـون أنَّ رحيلهـم سـيوقف الدُّنيـا، ولا يعلمـون أنَّ الـرب ينـزل كل مسـاءٍ عـن عرشـه، ويتجـول في قلـوب المظلومـين، والوحيديـن، والمتألمـين يهديهـم الفـرح الممـزوج بالصَّـبر والعزيمـة، ويمنحهـم تلـك القدرة العجيبة على الاستمرار..

هـل ستنسـى أنَّهم كانـوا هنـا؟ بالطَّبع لا، لا ولـن، لن تنسـى آثارهم الجميلـة أو السَّـيئة، سـيبقون في زوايـا ذاكرتـكَ، لأنَّـك لا تملـك قـدرة الإله على الغفران، أو على تحمُّل الفَقد..

لكـن لا تحـزن، نعـم ربما أنـت صاحب السُّـمعة السَّـيئة، أنـت المتهم بالسـوء وانعـدام الرجولـة فيـك، أو الأنوثة عـلى حدٍ سـواء. وصاحب الذَّنـب في النُّفـور، وأنـت المطعـون في الخُلـق، والـشَّرف، والكبريـاء، وربـما أكثـر. وأنـت الـذي سيسـألك الـرب يوماً عنهـم.. هل أُسـامح؟ وسيَترك الخيار لكَ، لهذا لا تحزن..

كلهم ينظرون إليكَ بما مَلكت أعينهم من جمالٍ أو حقدٍ، أو بما ملكت قلوبهم من روعةٍ أو فقرٍ، أو بما ملكت حياتهم من عبثيةٍ أو حياةٍ..

فامضِ واترك لكل من يرى نفسه أفضل، أفضليَّته. إنما غداً تُكشف القلوب، وتُعرف الأسباب، ويعود الحق لصاحبه لا محالة..

وغالباً تبقى وحيداً، وتأكل وحيداً، وتشرب وحيداً، أنت ودُخانَك المتألّم في ظلّ الغائبين الحاضرين على الوسائدِ في الدَّمع.. فالسَّلامُ على من يُذكر هناك، وهو لا يدري..

وتبقى تصارع اللَّيل، ووحشته، وظلمته، وظلمه، وعلى حافة اللَّيل تنهار قواك، كأنَّك وُلدتَ للتو، وما بقي لك في الحياة إلا ساعةً واحدةً فقط..

هم أنفسهم سيشربون القهوة في فناجين العَزاء مُرّةً كمرار تفاصيل حضورهم، وغيابهم، وهجرهم أثناء احتياجكَ لهم وانتظارهم أيضاً..

كمرارة جسدك الذي استلقى مع الموت مراراً، وما وجد يداً تُمدّ إليه، أو تعبث به، أو حتى تقتله لتُنهي العذاب.

هم أنفسهم سيفهمون، أنَّ ما فعلوه كان جُرماً كما الكبائر؛ حين لا يبقى منك سوى الصور، والصوت المسجّل، والذِّكريات.

تمل أحياناً من إحياء أحلامٍ قد قُتِلَت، ومن مُجاملة الآخرين أيضاً. هنا حطَّت بك الأقدار، هنا مات الموت وانقضى، هنا بُذلت الحياة من قلبك، وتُرك يحتضر كسمكةٍ في جفافٍ، ليكون رسالةً إلى هذا

العالم، إلى البشرية بمن فيها من أحياءٍ، وأمواتٍ، وأممٍ.. تحمل تفاصيل خبرٍ يتكلَّم عنك أنت الضَّائع بين سكينة الحب، وضجيج البُعد، وحسرة الحاجة، وذاك الحوار الصَّاخب الدَّائر بينهم..

ثم نمضي في هجرنا القَسري، وحبنا القَسري. مسيَّرين في الخيار.. أحياءٌ في ثنايا أمواتٍ.. وموتى بتفاصيل أحياءٍ نتأمَّل محيطنا، وننتظره.. ويتأملنا محيطنا، وينتظرنا.. ونحن وهو بلا فعلٍ، أو رد فعلٍ..

ثم نمضي.. وخلف كواليسنا الكثير من كل شيءٍ.. والقليل من كل شيءٍ.. ساعين لحياةٍ تشبه إحدى الحيوات التي رأيناها، أو عرفناها بطريقةٍ ما.. وظنّنا أو اقتنعنا أنَّها خُلِقت لنا، وخلقنا لها.. في حكايةٍ من حكايات الطموح الموروث عبر الأجيال، تلك الأجيال التي فشلت باكتشاف أنيابه..

واليوم، تجلس أنت هناك خلف قضبان التَّوحد صامتاً.. في خيالك تجتمع البشرية كلها، ثم تموت على تتالي أفرادها بثوانٍ معدودةٍ.. وآخر الأحياء هناك، هو وحده الذي استطاع وضع بصماته على أصغر جزيئاتك، هو وحده الذي تمكَّن من سلبك من نفسكَ.. وهو الذي يُوجِّه له ذاك السَّلام الأكبر شغفاً..

ليس حديثاً عن اليأس.. إنَّما للحقيقة ظلالٌ لا يمكن تفاديها، أو إهمالها.. ولأنَّنا محكومون بالتَّعامل معها، يتوجّب علينا معرفة تفاصيلها جيِّداً.. وعليكَ أن تكون متأكِّداً، من أنَّ كلَّ فاعلٍ يفعل فعلاً في قلبك سيردّ له فعله يوماً ما، وبطريقةٍ ما يختارها الرَّب وهذا

يكفي.. لأنَّ الحياة كخشبات المسارح فيها الأدوار مُتبدِّلة باستمرار..

و الحب في الحياة كمخرج مسرحيةٍ يقف خلف الكواليس، يلعب بالأدوار، ويحدِّد الحوار، ويأخذ كل القرارات اللّازمة، وخطئه ولو كان وحيداً يكون قاتلاً.. ولأنَّه حبٌ.. يكون قَتله مُغرياً.

* * *

شغفي..

في مجرى الغروب أشتهي صدرَك أغزوه بدمعي، وأَصبّ عليه كل الرَّصاص العالق في الكلمات، في عنقي.. وأشكو لكِ لساناً لا ينطق اسماً سوى اسمكِ، حين ينادي وحين لا يُنادي.. وعيناً تراكِ في وجوه الآخرين، تراكِ حتَّى في ضجيج المرايا، رغم ضعف النَّظر فيها. وخيالاً عابثاً يُهيَّأ لي أنّكِ هنا تحتَلِّين زاوية، أو ربما تستعمرين كل الزَّوايا.. وأسألكِ عن خاطر ضلعي المكسور في بُعدكِ. لأنَّكِ أقرب له مني، وأكثر عِلماً بحاله..

شغفي..

لا أعرفُ كم تزداد حلاوة الإيمان حلاوةً حين يكون صدركِ أرضاً للعبادة.. واطمئني.. فالكفر مغفورٌ حين يكون الإلحاد في عينيكِ أنتِ..

فاتركيني أصنعُ وطناً جديداً شعبهُ الحب، وأرضهُ الحب، ودستورهُ الحب، بلا مبادئ.. بلا قيم، فيه الأخلاق منسوجةٌ من عبق الجنون لتُناسب عينيك فقط..

اتركيني أمضي في حُزني.. واتركي لي اليأس يُبعثرني.. لتضيء لكِ أشلائي ليلَكِ الطَّويل.. ويبقى انتحاري بكِ لحناً يُسْكِرُ النُّجومَ طرَباً..

اتركيني أدقُّ رأسي في كل جدران العشق مِراراً حتى يَنفجرُ النّخاعُ.. وأخرجُ إلى الدُّنيا مُلطَّخاً بحضارةِ الجنونِ.. ومفتوح الرَّأس.. ذاك الرَّأس الذي أصبحتِ أنتِ شُغلَه الشَّاغل، حين كان الحظ حَظاً كبيراً وسمح لي بأن أغتسل مِراراً بِحُبٍ يَصبّهُ وجهكِ..

أنا المجنون في كل مفاصلي.. في كل أغشيتي.. وعظامي ودمائي.. نعم.. سأقولها للدُّنيا قَاطبةً.. أنا ذاك الفتى الذي لا يملكُ حدَّاً لِجنونه.. أنا ذاك الفتى المجنونُ بكِ.. الذي يتلذَّذُ آكلاً الهذيانَ ومتآكلاً فيه، وهل يكفي الهذيان امرأةً مثلكِ يا حبيبتي؟..

اتركيني أرفض الأقدار في بُكائي.. كما رفضتني بجبروتها.. ولا ذنب لي سوى أنّي الصَّغير الذي أحب بشجاعةٍ حبَّاً كبيراً.. فكان كأنَّه مأساةٌ ثلاثيةُ الأَبعاد..

شغف..

مَن هؤلاء؟ أين أنتِ؟.. أين أنا؟ لماذا أراكِ حين أراكِ، وأراكِ أكثر حين لا أراكِ؟ لماذا يجمعني القدرُ بكِ، ويَمضي ثمَّ يُعاقِبني بكِ، ويبقى لا يمضي؟ لماذا كان لابتسامك القديم في لقائنا الأول فعل قتلٍ؟ ولماذا كان قلبي القتيل؟ لا أدري..

شغف..

إني أهـواكِ.. وهواكِ يُساوي أسلحة العالم مُجتمعةً.. في عِراكٍ ناريٍّ عظيمٍ في ساحةٍ صغيرةٍ جداً في الجناح الأيسر في صدري..

والآن؛ أجلس بين أولئك السَّاهرين الوحيدين المُغرّبين.. يُعذبني اللّيل.. يكوي أضلعي البعد.. والحزن يمر من أمامي مُتعجرفاً.. ولا يردّ عليَّ السّلام..

ثم يأتي الصَّباح يليق بي، ساطعاً بحجم وجعي، صافياً كمرار قهوةٍ صباحيةٍ.. وكبيراً كما دمعي، وبُعدنا يأتي رائعاً كتفاصيلكِ المفعمة بالبراءة..

لا أدري بأي جنونٍ سمحتُ لنفسي أن أتناول وجبة فرحٍ كبيرةٍ مثلكِ، وأنا أعرف أنّ الثَّمن سيكون أضعافاً، وربما يكون عمراً كاملاً.. لكنّي أعرف، وأذكر جيدا أنَّني لم أفكر في هذا أبداً.

لكنَّني كنتُ أتساءل دائماً هل أترك نفسي في غيابها؟ هل أُنهي بحثي عن تفاصيلي، وأدع قلم الرَّصاص ينام بلا أيّ رسوماتٍ؟ هل أترك ذاك الحبر المُنهك دون أن يَذرف حُبّاً بكِ، ولو كان على ورقٍ؟..

واليوم، كما في نهاية كل يومٍ، نهاية كل عمرٍ بعيداً عنكِ، رأسي على وسادةٍ مُغلق العينين وحيداً في ظُلماتي ووحشتي ماضياً في سُبات..

هـل نعود؟ يجـب أن نعود، لا يمكـن أن يموت حبنا بهـذه الطَّريقة أو ينتهـي تلـك النهايـة التـي لم نكن نتمناهـا، رغم أنّهـا لنا، ورغـم معرفتنا الكاملـة بمأسـاتها. أردنـا أن نكـون معـاً، ولا أدري لمـن سـتكون الغلبة لنا أم لنهاياتنا!..

أراكِ غـداً؟ لا داع لهـذا.. فأنـتِ لا تغيبـين عـن بـصري وبصـيرتي، أفتقـدُكِ؟ نعـم أفتقـدك الآن، وسـأفتقدُكِ كثـيراً وليس لديّ مُشـكلةٌ في أن أرمـي نفـسي في طغيـان فقدكِ.. بـل وأضرم النَّـار في جسـدي لتأكله حتَّى الرَّماد..

عندمـا عرفتُـكِ كنتُ سـعيداً جداً.. وما كنـت أعرف أنَّ لديّ متسـعٌ مـن الوقت، سـأحاول النَّـوم فيه مذبوحـاً ولن أسـتطيع، ما كنت أعرف أنَّني سأكون اختصاراً لكل الضَّحايا في مجزرة شوقٍ..

أودّعـكِ؟ كـم هـي قاسـيةٌ فكـرة وداعٍ تجمعنـي بـكِ.. أي جهـدٍ هـذا، الـذي يسـتطيع إبقائـي عـلى قيـد الحيـاة بعـدك.. أي أنثـى تلـك، التـي تسـتطيع مَحْـوَكِ مـن كل أجزائـي، وأنـا لا أسـتمر في الحيـاة إلا أملاً في لُقياكِ..

هنـا.. تـدور تفاصيـلٌ كثـيرةٌ.. الجميـع يحـاول التَّعـرف عليـك مفصّلـةً، ولازلـتُ أكتـم سرّ التَّفاصيـل، وأخفيهـا لكنَّهـم يسـألون عنـكِ كثـيراً، ففـي وجهـي شيءٌ كالسـحر منـكِ.. مـن عبـور أصابعـكِ، ومرورهـا عليـه.. ومـا اسـتطعتُ إخفـاءه يومـاً.. ولمَ أخفيه، وأنتِ حبيبتي..

وأنظر إليهم، وأبتسم.. وفي ظل تكرار أسئلتهم المربكة أجلس على سطح قلبي، وأبحث عن إجابةٍ.. ثم نعجز نحن الاثنان عن وصفكِ بحرفٍ، بلهفةٍ، بوترٍ، أو موسيقى.. وكنّا دائماً نعود من أبجديتنا خالي الوفاض بصدمةٍ لها طعم الصّباح الفيروزي المعطّر، والمعتّق كالخمر الحلال..

شغفي..

أليس جُرماً أنْ يكونَ لكِ عيد حبٍ واحدٍ فقطْ في كل سنةٍ؟ وأنتِ تُعادلين أكثرَ من ألفِ يومٍ في سنةٍ. أليسَ غريباً ألا يكون النَّظرُ إليكِ عِبادةً؟ أليس مستحيلاً أن يفوح من جسدكِ العربي أثر الياسمين، كعطرٍ شرقيٍّ يجتاح عالماً غريباً، ويغزو الدنيا بأكملها بلا هزيمةٍ.

أحبكِ شغفي.

* * *

وردي..

كيف حالكَ؟ هل تأكل طعامك بشهيتك المعتادة، وتلتحف في نومك فلا يصيبك برد الصيف فيمرضك؟ هل تعتني بنفسك حقاً كما وعدتني، وكأنَّكَ أنا؟

تراك تعلم، أنَّني أشتاقك من الشوق المنتهي، منذ أول نفسٍ صباحي، وحتى التَّنهد الأخير في اللَّيل.. وكذلك أثناء نومي..

تراكَ تعلم، أنَّ صمتي حديثٌ طويلٌ مفعمٌ بك، وبغزلك، وبفقدِكَ.. وتعلم، أنَّني أصبحتُ أصمتُ كثيراً..

تراهم يعلمون أنَّني أكذب عليهم في كل إجابةٍ أجيبهم بها؟ وأنَّ كل أحاديثي كاذبةٌ.. والحقيقة، هي ما أقوله عندما لا أقول شيئاً. عندما يسود الصَّمت في حنجرتي، وتبقى الحروف لا تُقال..

وجهي الجذّاب.. جسدي الرَّشيق.. فمي المُبتسم.. قلبي الأنيق.. عنقي المُعطّر.. وأنتِ السِّر، وهم لا يعلمون..

وخاطري حين تمرّ عليه تبوح عيني بالأسرار.. تارةً في لمعةِ هيامها، وتارةً في دمعةِ اشتياقها. وأنا كفراشةٍ تفترش ورق وردةٍ وغصنها، كنازحةٍ في ربوع الوطن أتنقل بين الحالتين..

عارٌ عليّ حبكَ.. وعارٌ عليّ اللاحب. فأين المفر؟.. أين أذهب أمامكَ، أيها الفتى الشرقي المدلّل المشرق على شرفات نهديّ من نافذة الفؤاد، فأراكَ نجماً متألّقاً رغم حضور القمر..

أذكر يوم قلت لي: أنَّني مميزةٌ عن سواي من النِّساء.. حينها قلت: أنَّ الرب خلقني من بروتيناتٍ مختلفةٍ جداً.. اليوم، أريد إخبارك أيها العزيز، أنَّكَ أنت أيضاً خُلقت من بروتينٍ مميزٍ جعلك مختلفاً عن كل رجال الأرض..

أجل أنت الغائب الحاضر في نخاع الدُّنيا، وكل أجهزتها العضوية واللا عضوية، كقبلةٍ مسروقةٍ والشفاه في غفلةٍ كروعة لحنٍ معزوفٍ على وترٍ فتي..

أنتَ هنا في لحظةٍ أعيشها كل لحظةٍ.. وفي كلمةٍ أكتبها في كل كلمةٍ..

أنـتَ الحيـاة في الحياة.. أنت هنـا.. في نظرةٍ أنظرهـا في كل نظرةٍ، وأخاف إن أطالوا النَّظر في عيني أن يكتشفوا وجودك في سري..

هنـا.. يحـدث الكثـير يا عزيـزي، أصبحـتُ مقتنعـةً تمامـاً، أنَّنـي لا أستطيع الاستمرار في رحلة جاد، لستُ أقوى على هذا..

أحـاول الهروب منه بشـتى الوسـائل، لم يعد ذاك الرجـل الذي عرفته سابقاً، ولكن لا أحد يستطيع فهم ما في داخلي.

ورد: أنـت المفـترق، أنـت مثـالٌ جـاء يخـبرني الحقيقـة التـي لم أكـن لأراها يوماً، فأمسِك بيدي، وأوصلني حتى إن لم أكن لك..

أتعلـم؟ أحسـدها جـداً، تلـك التـي تسـتطيع أن تبقى معـك، وتبقى لـك، تغفـو عـلى حنانك، وتصحـو على جنونـك، لا أظن أنَّ هنـاك أنثى في الشرق تبحث عن أكثر منك، إذا عرفتكَ جيداً أيها العزيز..

أشـتاقكَ أيهـا الصَّبي المتعثِّر الوحيد البائس، أشـتاق لمشـيتك الحزينة، لروحكَ التي تحاول الطيران في أقسى لحظاتها.

لا أدري وردي ما هـي تلـك القـدرة التي تسـمح لإنسـانٍ بـأن يحتلَ إنسـاناً؟ لا أعـرف ممَ صُنـع الحـب؟ لكنَّني أعرف جيـداً أنَّنـي متورطةٌ فيـكَ حتَّـى الجـذور، فكأنَّـما بُصيـلات شـعري تُصبِّـح كل يـومٍ عـلى ندائك، وتُنهي يومها في ندائها لك..

وردي.. أنـا وكل مـا في داخـلي لم نعـد نريد إكـمال الحيـاة بدونكَ أيها العزيـز.. لكـن لا أعرف ما سـيحصل غداً.. أفكـر في ذلك كثـيراً، تكاد

عينـي لا تنـام.. أخـاف أن أفقـدك يومـاً، أن أفقـد ظلـك المرتخـي عـلى وجهي فيعود إليّ قُبحي..

وردي أيها الأحمق، أحبك جداً.. أتعلم، أنَّني أراك الآن كطوق فرحٍ ملتفٍ حول قلبي.. رغم أنَّكَ الكارثة فيه.. وفي كل امرأةٍ تعرفك.. أتعلم أنَّك شابٌ لن يستطيع النّسيان التَّعرف عليه.. أتوقّع ذلك كثيراً..

أنتَ المدمج في مياه الحب، شيءٌ لا يمكن نسيانه أبداً، ولا يمكن تكراره أيضاً. تهبّ عليّ كنسائم الربيع الحنون تحملني وتلقيني في السعادة.. هذا هو الحب، الذي أخبرتَني عنه مِراراً.. فلا أظن أنَّ طيفك سيغادرني يوماً ما.. ستبقى تداعب أجواء حياتي طويلاً، وأعدك ألا يملك قلبي، ولا يملك عقلي، ولا تمل أضلعي من ترتيل اسمك كآيةٍ أنزلتها السَّماء عليّ، كنعمةٍ قدمها الرَّب لي.. كشيءٍ من حُسن هذه الدُّنيا القليل.

سأدعو كثيراً، أن تكونَ لي.

* * *

مشـيت اليـوم كثـيراً، شـغفي.. كنـتُ أشـعر بوحـدتي المترعرعـة في وطنـي، كانـت بحجم هـذه البـلاد.. حاولت إيجـاد أحداً أحدثـه عمّا في داخلي بلا مللٍ، وبالطَّبع فشلت بجدارة..

تناولـت الكثـير مـن الطَّعـام بغـير جـوعٍ، ولم أشـبع.. رافقتنـي في رحلتـي اليائسـة كأسي السـوداء كعادتهـا، وأحـاط بي دُخـاني كعادتـهِ أيضاً..

اشـتريت لـكِ وردةً.. لكنَّنـي تعثَّـرت فوقعـتْ مـن يـدي، وداسـها طفـلٌ يلهـو بفـرحٍ فكَـسر أضلعها. نهضـتُ مجدَّداً وعـدتُ لبائـع الورد، واشـتريت وردةً أخـرى، ورحـت أُكمِلُ المَـشْيَ.. أوقفتني امـرأةٌ عجوزٌ، وقالـت: بُنـي أعطني هـذه الوردة قليـلاً! كنت أظـن أنَّها سـتعيدها إلي، وأكملَـتْ: سـأحتفظ بهـا هديـةً منـك، أذكرُ فيهـا أيـام الصّبـا، فبكيتُ. أدهَشـها بكائـي المفاجـئ، واختنقت الأبجديـة في حلقي، فما اسـتطعتُ إخبارهـا عـن السَّـبب. تركتهـا، وعدت مرةً أخـرى إلى بائع الـورد، فلم أجد وردةً ثالثةً.. حاول إعطائي نوعاً آخراً، لكن قلبي أبى..

خرجتُ أركض أبحثُ عنكِ.. ألوح برأسي لعلّي أجدكِ فجأةً.. أحدّق في وجوه المارّة، أراقب نوافذ السَّيارات.. أخرجتُ هواتفي لعلَّها تأتي بالخبر.. وطال بي انتظاري وبحثي، حتى غلبتني الحسرة، فجلستُ على حافة الرَّصيف أستجمع قِواي، لألملم خُطاي العائدة إليكِ في العَوْدِ..

كنـت أشـعر بـشيءٍ غريـبٍ يأكلنـي، كأنْ أنتهـي بعـد قليـلٍ، أو أنـام جائعـاً مُختلجـاً بـلا وعـيٍّ، لكـن بأثـرٍ ما بـين المـوت المُسـتحي والحيـاة الشـجاعة أتمـزّق.. كأن أكـون في سـفينةٍ يقودها قرصـانٌ فاقـدٌ للذَّاكرة، لتفـارق الرِّحلـة الرَّاحلـون ولا ينجـوا منهـم أحـد.. ولا أهتـم بنجاتي، فمن يعرفُكِ يكمل إيمانه، ومن يُقبِّلك يدخل الجنة...

نعـم، بكيـتُ كثيراً، رغـم أنَّكِ أوصيتنـي ألا أبكي أبـداً.. لكن لم أكن أتوقـع أنّ البـكاء في ما كنـت فيـه لا يفيـد، كنـت كالمسـاكين كالأيتـام.. كدندات البيانو أثناء وداعٍ..

راحت روحكِ في ثنايا الغياب.. وتركَت خلفها طفلاً يسبح بالدَّمع، حزيناً ينتظر فرحة اللِّقاء، مُشرَّداً يبحث عن مكانه.. ونازحاً يجهش في البكاء حنيناً.. مجتمعين في صدر رجلٍ..

ستبقَين في داخلي سِرّاً يُضعِف قلبي، ويُبكي عيني.. ستبقين في كل شيءٍ يخصني، لكنَّني سأفرح.. ولا أعرف كيف!..

عندما قلتِ أنَّني سأفرح سألني فؤادكِ الموجود في صدري: كيف يمكن أن تفرح؟.. صمتُ للحظةٍ، ثم أجبته أنَّكِ هنا تحت هذه السماء وطيفكِ أيضاً، وروحكِ حولي دائماً، ستُنقِذني من الحزن حتماً، وهذا ما كنتِ تُرددينه على مَسامعي في لقاءنا الأخير..

في نهاية المطاف عدتُ إلى منزلي.. منزلي الهادئ، رغم حضور أصحابه.. وقفت قليلاً على شرفته، رأيتُ القمر ورُدَّت إليَّ روحي، فضحكتُ كأنَّه خَبَّرَكِ.. أسرعتُ أحضّر دخاني، وأحضِر كأسي.. وعلى حاسبي المحمول جلستُ أراقب كرة القدم التي أحب.. هنا تعلَّمتُ أشياءً رائعةً.. عرفتُ كيف يستطيع الإنسان نقل ما في خياله إلى الواقع.. وكيف عليه أن يضع تكتيكاً، ويوظّف الإمكانات بشكلها الصَّحيح ليتفادى الخسارة..

اليوم؛ كنت أركض لألقاكِ حيث الأمس.. وما وجدتُ منكِ إلا طيفك يملأ مُخيّلتي.. فأين أنت أيتها اليتيمة في قلبي.. أين أجد وجهك؟ كي أستطيع تمسيده، فيعيد لأصابعي الحياة..

أين وجهك المورد، يملأ الصبح ويحلو به المساء؟ أين كل ما كان في الأمس يا حبيبتي، لا يغيب، أليس من حقي أن أُطالب بعودة

التَّاريخ لتعود الروح. أليس من حقي، إيجاد طريقةٍ ليعود الماضي، فيجمعنا كما نجتمع في براكينٍ من الذّكريات..

شغفي..

ليس للأيام لا طعمٌ ولا لونٌ ولا رائحةٌ في هذا الغياب.. أمَّا أنا، لا أطمح لأكثر من حفرةٍ تمرُّين عليها صدفةً ليس ضعفاً.. وليس يأساً.. لكنَّه الملل المُنهك من مَللهِ.. فكيف تعود الحيوات إلى طبائعها، وأنتِ خلفَ قضبان الغياب قابعةٌ..

اليوم؛ كلهم كانوا وحيدين.. نظرتُ كثيراً في وجوه المارّة.. دققتُ في المقاهي، وحسبت كمية الدخان الصَّادر عن أفواههم بلا متعةٍ.. كنتُ أراقب تعلقهم في أجهزتهم النَّقالة.. وأتساءل عن ما يتمنون أو ينتظرون.. تساءلت عن ما يجول في أحلامهم، فأدركت الحقيقة المُخبّأة خلف ملابسهم البريئة.. وأدركتُ أنّ صباحكِ العربي المعطَّر بالياسمين.. أكثر العقاقير المهدِّئة نجاحاً يا سيدتي الشَّرقية الأحلى. ولو سُئلت عن الحب قبل أن أعرفك جيداً، لضحكتِ كثيراً يا عزيزتي، أو أجبتهم بجملٍ مبعثرةٍ.. فاليوم، لم أعد أعي جيداً، أتى الحب منكِ، أم أنَّكِ أتيتِ من الحب، أم أنتما الاثنان خلقتما من ضلعٍ واحدةٍ..

اليوم؛ أقبل اللَّيل ملتحياً بكِ، يُضيء قناديل العشق في المدينة، أقبل مُبجلاً بكل معاني الشَّوق يا عزيزتي. الشوق؛ الذي فشلت الكيمياء على مرّ العصور في إيجاد تفاعلٍ يحلّ عقدته، إذا ما شعر فيه

إنسـانٌ. فكيـف أجـد، وأنـا مجـرّد عاشـقٍ حَـلاً لشـوقٍ يولـد مـن رحمِ فـؤادٍ يـدقّ في حـضرة وجودكِ أنـتِ فقط.. كيـف يمكننـي أن أقفز فوق اشـتياقي إليـكِ، وأُكمـل الحيـاة بدونـه.. وأظـنُ أنَّ هنـاك أمامي مُتَّسـعٌ من العمر لأشتاق..

اليـوم، عرفـتُ أنَّ الحيـاة يَنقصها أنـتِ لِتكتمل.. كأنَّـكِ جيم الجمال، وراء الروعة، وعينها.

شغفي..

أيَّتها الفتاة المستحيلة، هل هناكَ فتاةٌ مستحيلةٌ سواكِ؟..

كيف أجتاحكِ؟

وأنا أمام فَمِكِ فقط

أفشلُ

أجلسُ كثيراً أنظرُ

وأشتهي كلمةً

أو تميل إليَّ بالصُدفةِ

مُقَلُ

ثم أعود أدراجَ الريحِ

وأتمدَّدُ أتحسَّرُ

و ينأى عنّي

أملُ
وأنامُ ولا أنامُ
ويركضُ بي حُلْمٌ
وأركضُ بالحُلمِ
وأتعثَّرُ
وأفكّرُ كيفَ أنقلُ
إلى أضلُعكِ
خَبَرُ
أنَّني هُنا
في ظلّ الخَصْرِ
يَستبيحُ دمائي
شَلَلُ
وتمرّين على أيْمني
ويَندى الجفنُ حسرةً
وتمرّين على أيسري
وأَبقى في الرُكنِ
مُهمَلُ

* * *

وأجلسُ أراقبُ
خُطاكِ
لعلّي في حظٍ ما
أحظى بشرفِ تقبيلِ
يَداكِ
فاتركيني أغادر الحياة
بشرفِ التَّجربة
في أنْ أرسم
وجنتيكِ
أو أعزف موسيقى الكعب
من قدميكِ
أو أموت كالطّفل جائعاً
مستلقياً
فوق نهديك
دعيني أحاول أن أكون
دخاناً
يولد ألف مرة
من شفتيك

ثم أضيع في موجات
الدُّخانِ
ويجلس ينكرني مكاني
هل كان الزَّمن زمناً
أم تخون الأزمان فقط
في محياكِ

* * *

وارفعي رأسك وانظري
واكتفي بنظرةٍ واحدةٍ
من عينٍ واحدةٍ
ليبدأ السُكْر
ويعصف في الأحشاء
غرامُ
ورتلي الأغنيات صامتة
وتمايلي
كما يميل في الطّرب
حمامُ
فأصبح أصطاد الأنجم

وأمسي في الصَّلوات
إمامُ
وأدخل إلى الحزن
أفجر الحزن
والأيامُ
وأترك بقايا النوافير
مبعثرة
فما شأني أنا
إن كان يهيم بك
غمامُ
وتأتي الريح من تلقائك
كأنَّما تشتهي التَّفصيل مُفصَّلاً
كما تُشتهى الحقيقة
كما أشتهيك
ثم أنامُ
وأستمر مُحدِّقاً
لعلي أجمعكِ والحقيقة
والمنامُ

انظري إليَّ بعينٍ واحدةٍ
لأكون استثنائياً
وتبقى السَّماوات
وتفوح الحيوات
ويبقى العطر يغار
والبشرية من دونكِ
حطام

شوق

* * *

عليكَ ألا تكون طبيعياً، أو حقيقياً دائماً.. عليكَ أن تفهم أنَّ هناك أُناسٌ سيفهمون فرط محبتكَ لشخصهم بشكلٍ سيءٍ، وربما يعتبر سلامُكَ، أو اندماجكَ بحديثٍ ما، هو محاولةٌ غير منطقية بالنسبة لهم للتَّقرب، وهم لا يعلمون، أنَّ عفويتكَ في تلك اللَّحظة، كانت طاغيةً على كل شيءٍ..

عليكَ أن تعلم جيداً، أنَّ الجميع يتحدَّثون عنكَ في الباطن، وأنتَ لا تعرف ماهية هذه الأحاديث فتوقَّع كل شيء.

الكبار هم كبار القلب، والعقل، ولا دخل للأعمار بذلك. فامضِ دون أن تنظر خلفك، واتركهم أحياءً كما يحبون.

وتذكَّر أنَّ أصدقاءك في الحياة هم نصائحٌ.. نصائحٌ على هيئةٍ بشريةٍ فقط لا أكثر..

سيطغى ارتباكك في الحياة على بعض أحاديثك معهم.. وهذا سيفهم أيضاً، بشكلٍ غريبٍ بالنِّسبة لهم، بل وفي الغالب، يزيد عن الغرابة.. واعلم جيداً، أنَّ تلك الأحاديث تنتقل، فتماسك وتهيَّأ، وتحضَّر..

ولا تظن، أنَّ هناك من سيقفز فوق قواعد الحياة، أو ينتصر على قانون الجاذبية لأجلكَ.. حتى ضجيج المرايا يكون حلماً، وتبقى الأحلام أحلاماً ينفيها الواقع تحت غضب الحقيقة..

غداً، سيأتون إليك في الذّكريات، راضين مُحبّين، كما تمنيتهم أن يبقوا. وفي أول انصاتٍ للحياة ستفهم أنَّ:

كلّ ما يتمنّــاه المــرء يقتلــه
تجري الرياح وليست تجري السفنُ
يخذلــكَ مــن حَنونــاً ظننتــهُ
فلا يُفيدكَ بعد الخُذلان من سكنوا
اجمــع قلبــك وهــواه وأملــه
لن يُنسيكَ تعلّلٌ ولا نديمٌ ولا وطنُ
وألقــي بــه إنّ اللَّهــب يأكلــه
ليس يكفيكَ الفؤاد في الهوى ثمنُ
غــداً تُــدرك ما لســتَ تُدركــه
يَغدرك الفاعلُ، وكنتَ تَدريه يؤتمنُ
ســلامٌ عــلى الماريــن هنــاك
قد عبروا القلب وكسروه وما فَطِنوا

توقَّع كل شيءٍ.. ومن الجميع.. لا أحدٌ في الاستثناء، إلا من يبقى مستمراً في إثبات استثنائيَّتِهِ بالكلمات والأفعال والروح..

يا سيدي.. الرَّاحلون كُثر، والخائنون كُثر، وهم أنفسهم الخائفون أيضاً..

ثمّة أوجاعٍ قدريَّة المنشأ لا يمكن تَفاديها.. ثمة أوجاعٍ نقوم بها.. وندخل فيها بكل إرادة الحياة، ولا ندري بأي وجعٍ سنكون.. الحياة مسرحٌ كبيرٌ للوداع..

لماذا؟..

هـو السـؤال الوحيـد العـصي على الجـواب، المـتردِّد في الأذهـان دائماً بلا انقطاع، والسَّاكنُ مَطلعِ اللسان، لِيُقال قبل وبعد أي قول آخر..

لماذا؟..

لمـاذا الوطـن؟.. لمـاذا الوجـع؟.. لمـاذا الضحـك؟.. لمـاذا الحـب؟.. لماذا الحياة؟

هنـا في خمسـة أحـرفٍ فقط، يـدور العـالم وينتفـض. هنا تقـعُ البشرية في مـأزقٍ كعنـق زجاجـةٍ، هنـا تُذكـر الأسـماء بحـسرةٍ، وتمـرّ الذِّكريات على عجلٍ، ويبدو الشوق كسكينٍ زُرع في عَضل..

هكذا سـتمضي.. سـيمضي.. سـنمضي.. إلى لقـاءٍ في عـالمٍ مجهولٍ ولا ندري لماذا؟

هكذا سـيمحو التَّاريخ نفسـه بنفسـه، وننسـى ونُنسـى. لمـاذا الحزن؟ لماذا البُعد؟ وكيف جاء كل هذا، ولماذا جاء

لماذا؟.

هـو سـؤال الظَّالمـين والمظلومـين.. والفاقديـن والمفقوديـن.. هـو السـؤال الـذي لا يمكـن الاسـتغناء عنـه، وهـو السـؤال الأكثـر عِبئـاً، وعبثـاً في كل شيءٍ.. ويحـدث أن تمـر في لحظـاتٍ لا يفيد معهـا لماذا؟ ولا أي تسـاؤل آخـر؟.. يحـدث أن تتغيَّر الحيـاة فيما لا تشـتهي، ولا تتمنى.. لتبقى أمامها بكامل جمودك، وبرودك..

فكيف يمكن أن تنسى أنانيتهم، أن تنسى مزاحهم وأكاذيبهم؟..

كيف يمكنك استيعاب أنَّكَ اللاشيء، بعدما جعلوك كل شيء. هل يغفر الرَّب لتلك العقول؟ هل يذهب الهجر هكذا سُدى؟ هل ستغفر لهم بيعهم لأجل صحوة العقل مثلاً؟ حتى لو كانت عقولهم مُحقَّة؟ وغداً. يخبرونك أنَّ ما فعلوه كان لأجلكَ أنت، حفاظاً على مشاعركِ المرهفة فعلوا كل هذا بك. وفي الواقع الأكبر، ستبقى بلا أجوبةٍ عندما تسأل لماذا؟

وإن كنت تمر على أفكارهم، فهم يفكِّرون بكَ في ما يخصهم. هم يُفكِّرون في الجزء الذي أرادوا التّفكير فيه من حياتك فقط.. بلا أي نُبلٍ، وهذا ليس من الأشياء التي تخص الحب.. انتبه، فالذي يَكرَهك يفكِّر بك أيضاً، بل أكثر ممن يحبك في بعض الأحيان، وحتماً لا تدري لماذا؟

هنا بين الغرور والأمل.. لماذا؟ هنا بين الغرور والأمل، نقع صرعى أخطاءنا غير المقصودة.. وبالضَّبط، خطؤنا غير المقصود، هو الخطأ الذي ندفع فيه ثمناً كبيراً. وهو بالضَّبط، الخطأ القاتل للحياة.. ولا ندري لماذا؟ رغم أنَّنا نخطئ كثيراً، وفي بعض الأحيان، نتعمّد الخطأ لكن التَّكلفة تكون أقلَّ مما نتوقَّع..

يا لها من غرابةٍ في هذا العالم!..

* * *

- وردي.. كيف أنت؟
- شغفي أشتاقكِ جدّاً.. هل أنتَ بخير؟
- نعم أنا بخير، وأنتَ؟
- يكفي صوتك لأكون بخير، شغفي.
- حبيبي، لقد اشتقتُ إليكَ كثيراً.
- غبيةٌ هي الأيام بدونك، شغفي.
- وبدونكَ أيضاً.. أخبرني كيف تقضي أيامك؟
- لا شيء.. أحبكِ فقط وأنتِ؟.
- وأنـا أيضاً، أقـضي وقتي أعشـقكَ.. ويوقظني جـاد في كل مرةٍ على هذا النِّزاع الذي يدور بيننا.
- وماذا يحصل بينكما؟.
- تكبر الفجوة يوماً بعد يومٍ، وأحاول التَّخلص منه كثيراً.
- ألم تنجحي بعد!!.
- أُخبركَ سِرَّاً.
- نعم أخبريني.
- منـذ عدة أيام، اسـتطعت إقناعـه في أنَّنا قد انتهينـا، ولم يعد يُكلِّمني كعادته، أتمنّى أن أكون قد نجحت.
- وأنا أيضاً، أتمنَّى أن تنجحي.

– لم يأتِ إلى هنا منذ ذلك الحين.. وآخر جملة قالها لي: كما تشائين.

– وهل أنتِ أفضل الآن؟.

– أشعر براحةٍ كبيرةٍ.. أحبكَ جداً ورد.. فأنتَ كل قلبي.

– ما بكَ لماذا سكتَ صوتكِ؟.

– فاجأتني.

– بماذا؟.

– لا أستطيع التَّخيّل أنّكِ لي الآن.. لي وحدي فقط.

– لا أفكر كثيراً في هذا.

– لماذا لا تفكرين؟.

– لأنّي أعجز عن تصديقه.

– أجل.. ربما الأحلام تتحقَّق.

– ربما.

– شغفي، لقد طال الغياب جدَّاً.. لا أدري كيف سأحتمل ما بقي من الأشهر الأربع هذه.

– عليكَ أن تحتمل، إذا شئتَ أن نلتقي.

– هل يمكنني ألا أشاء شغفي.. يكاد قلبي يتوقف.

– بالطبع لا.

– لمَ لا.. بل يمكنني ذلك.

- سيشاؤكَ الموت، إن شئتَ ذلك.
- لا يمكنني ذلك فأنتِ حبيبتي.
- هذا أفضل.. أخبرني ماذا تفعل؟.
- مممممم. لا أفعل شيئاً.. أقف هكذا بلا حراك.
- ما بك؟.
- لا أدري.
- ومن يدري إذاً.. أخبرني ما بك؟.
- لا أُصدِّق هذا الخبر!.
- وهل أكذبُ عليكَ؟.
- لا بالطبع.. ولكن ربما تُمازحينني.
- أمازحكَ في هذا ورد!.
- ربما.
- لا أمزح معكَ.. فأنا أيضاً، أكاد لا أصدِّق أنَّ هذا سيحصل فعلاً.
- لا أظنه سيحصل.
- لكن لِمَ لمْ يأتي، أو يتكلم.
- لا أدري؟.. لربما كان يُخطِّط لأمرٍ ما.
- لا أظن ورد.. منذ وصولي إلى منزلنا، ونحن على هذه الحال، لكن هذه المرة الأولى التي يبتعد فيها إلى هذا الحد.

– علينا ألا نغفو في الأحلام.. فنحن لا نعرف الحقيقة.

– أجل.. هذا صحيحٌ.. لكنّني أشعر بالرَّاحة كما أخبرتكَ.. كأنَّه كان يجلس على قلبي.

– أتمنَّى أن تبقي مرتاحةً دائماً، شغفي.

– في حضرتكَ أيها العزيز.. أخبرني عنكَ الآن.. فأنا مشتاقة لكَ كثيراً، ولأحاديثكَ أيها الأحمق.

– لِمَ هذه الإضافة؟. كان الكلام جميلاً.

– هاهاهاه.. أحببتها لك.

– أقنعتِني الآن.

– ألم تقتنع في هذا، ورد؟.

– بالطّبع.. كيف لا يقنعني هذا الإقناع المذهل.

– أشكر الرب.

– شكراً حبيبتي.

– على ماذا؟.

– على عملية إقناعي المتعِبة.

– هاهاهاه.. لا بأس، لا بأس، سأنال منكَ يوماً.

– هاهاهاه.. أنا لا أقوم بأي شيءٍ مفيدٍ، سوى أنَّني أفكِّر بكِ كل الوقت، لا أعرف كيف تأتين إليّ، من أي الأبواب تدخل روحكِ، شغف؟.. أجلس أتأمل اللَّيل.. وكأسي الأسود يكبر شيئاً فشيئاً.

– جميلٌ.. لازلتَ تتكلم كما الشعراء.. ولازال كلامك جميلاً، حتى عندما تعبر عن أشياءٍ صغيرةٍ وحزينةٍ.

– أنا لست شاعراً، يا حبيبتي، ولستُ كاتباً.. هو التَّعبيرُ الذي يَخصّكِ يولدُ مُدهشاً.. ولا أعرف ما السر في ذلك. كأنَّما للسماء أمرٌ نزل في هذا، أنا لستُ شيئاً إن لم تكوني.

– أنتَ كاتب العمر كله.. وشاعر الروح، ووطنها.. فكيف لا أكون.. وأنتَ كل أشيائي.

– ستبقى أشياؤكِ لكِ، عمراً بعد العمر وأكثر.

– وسأبقى مخلصةً وفيةً لأشيائي، مهما كان المكتوب فوق الجَبين يا ورد.

– سأكتبكِ دستوراً لعشقٍ أبديٍّ لا حدود له.. وأدعك مرسومةً بريشةٍ من الأحرف بين كفي هذا العالم.. فخبركِ الأنثوَي الفتّان، لا يمكن تركه دون أن يكون أسطورةً.

– اكتبني ورد.. اكتبني حتى أختنق في أحرفك، أو تصبغ أحرفك بياض بشرتي، فأكون لك فقط، أو أكون بينك وبين أحرفك شهيدة هوى، يا هواي العزيز.

– سأكتبكِ، حتّى ينفجر العشق من بين أصابعكِ.. فاتركي الهوى يستشهد في حضرتك يا حبيبتي.

– إذا كان للهوى قدر موتٍ.. فإنَّ القدر ينفذ حكمه في غيابكَ عني.

– وهل أغيب عنكِ؟.

رغم أنَّك سيد الأذهان، والأحلام، والخيال.. إلا أنَّ غياب واقعكَ متعبٌ جداً.

– إياكِ أن تظني، أنَّ لغياب واقعكِ وقعٌ أقل من غياب واقعي.

– أحبك جداً، ورد.

– وأنا أيضاً، شغفي كثيراً.

– كن بخير لأجلي.

– طالما أني أحبك، سأكون كذلك فاطمئني.

– شكراً وردي على كل هذا الحب.

– وُلد هذا الحب لكِ، وسيبقى لكِ، فلا تشكريني.. ولا تطيلي الغياب، إنَّني أنتظركِ دائماً.

– أنت تعلم أنَّ هذا ليس بيدي.. لكنَّني بالتأكيد سأفعل ما بوسعي.

* * *

هل كان حديثنا حديثاً واقعياً، أم أنَّني أعيش الحلم.. أم خرجت إلى أجواء هوليوود..

وقفت على حافّة الليل.. أغنيكِ للحياة.. وأُغنيها لكِ.. وقفتُ أبلع دمعي البارد المولود بغير بُكاء.. وقفتُ أنظر إلى السَّماء متأمِّلاً.. وأدعو الرَّب أن يكون خبركِ حقيقةً، فهل أصبح الحلمُ حقيقةً

شغف؟.. هل تجتمع بقايانا، مثلما اجتمعت أرواحنا.. بلا وداعٍ..

أكاد لا أصدِّق هذا.. بل حقاً لا أستطيع تصديقه.. ففيك تتّحد كل الطَّوائف، والمذاهب، والأديان، ويجتمع الياسمين مُزهراً في وجنتيكِ، وفي جبينكِ الشَّرقي تَحْبُكُ الحكايات نفسها لتروي العالم بالأمل.. فكيف أحبك بقلبٍ واحدٍ فقط؟..

أنتِ، رسالة السَّماء المختصرة عن الكتب التي تعيش في السّجون، عن النساء اللاتي أحببن حتى الكُره.. عن شعبٍ، صبر كثيراً على الرَّصاص. أنت أبلغ من رائحة الخبز على مائدة عائلةٍ فقيرةٍ.. أنتِ أروع من وردةٍ نبتت في صحراء قاحلةٍ، أو من قصيدةٍ مطلعها الحرف التّاسع بعد العشرين..

لا أعرف، ما حجم هذه السَّعادة التي تجتاح قلبي؟.. ولا أعرف، ما الذي يعطيك كل هذه القدرة على إحيائه؟.. أنتِ وحدَكِ شغف من يستطيع فعل كل شيءٍ على الرَّحب والسِّع..

شغف..

لن يكفي الحب والهوى، والكلف، والعشق، والشغف، والجوى، والتيم، والتبل، والتّدلّه، والهيام على وصف ما أشعر به.. أظن أنَّ عليَّ اختراع درجةٍ أعلى من أعلى درجات الحب لأجلكِ.. وأُوّحد الفصول الأربعة في فصلٍ واحدٍ هو أنتِ، لأكون هواماً، أي أنَّني أعيش الحب من أول درجةٍ فيه وحتى الأخيرة..

أو أصعد إيفرست، وأعزف لك من هناك معزوفة ياني الشهيرة (حلم رجلٍ).. أو أكتب لكِ رسالةً تشبه كلام الدّرويش في جداريته: (الكلام ثلاثي الأبعاد)..

أو أطبق قوانين الفيزياء في الكيمياء.. وأسكب حمض الهيدروبروميك، والبيركلوريك، والنتريك على الدُّنيا لتفقد سحر الجاذبية.. أو أتناول ما قاله فيثاغورس، وأضعه كقاعدةٍ في الفلسفة.. أم أنتظر ألفريد أدلر ليقنعني..

ماذا أفعل يا حبيبتي؟.. لأستطيع استيعاب أنّكِ حبيبتي.. حبيبةٌ لي وحدي..

للحياة في الحب نكهةٌ أخرى، لا يعرفها أكثر الشَّاربين سُكراً يا حبيبتي، كالهذيان في حرارة جسدٍ تفوق الألف درجةٍ كقمرٍ يغار من نجمةٍ.. أَيهاب القمر من سواكِ شغفي؟.. بالحتم لا..

فأنتِ متعة المتاع في السّفر الطَّويل.. والضّوء الدَّاكن في ظلمات المسير.. وتكفي قبلةٌ واحدةٌ مطبوعةٌ على أي زاويةٍ في وجهي، أو مُرسلةٌ برياحنا الشمالية للاستمرار..

وأنتِ كل شيءٍ مدهشٌ.. كل ما يفوق الرَّوعة في الحياة.. أنتِ كالطُّهر النَّائم بين الأحرف في كتب السَّماء.. كاللَّيلك المبعثر في أزقة المساء.. فليحفظكِ الرَّب.. وليرعاكِ القلب يا شغفي.

أيَّتها الفتاة المختبئة بين جلدي، وملابسي، أيَّتها المكتوبة على جدران

هذا العالم، والمعلّقة كالثّريا على سَقفه.. أيّتها المرأة المستريحة على الكلمات وفي بحّة الصوت المبحوح كالضَّوء في الظّلام أحبك جداً.

* * *

ثم يأتيك الفرح، على هيئة خبرٍ يلفّه صوت المحبوب لينزل عليك كالصَّاعقة.. يقسم ظهرك، ويركّن الجسد مثبتاً إيَّاه بلا حِراك.. ويضرب قلبك بحاشيته لشدّة الخفق، ويقوم المحيط من جموده ليرقص اليانجكو، حتَّى يصل الفرح إلى أصحاب رقصة اليانجكو في الصّين..

لبّي دعوة الفرح وادخل إليه، واستعمر، ادخل إليه بكل ما ملكت يداك، وقلبك، وعقلك.. بكل ما لديك من جيوشٍ.. وكن عصياً على الخروج..

ولأنَّ الفرح يا عزيزي، لا يأتي كثيراً.. عليكَ أن تدخل، وتعبث، وترقص، وتغني.. وتطلق عنان الروح.. فالعديد من الأيام تمر، ولا يتغيّر فيها سوى تاريخها الرقمي، وغداً يخونك فرحك.. وحين يخون الفرح يكون قاسياً للغاية..

ولأنَّكَ ستدفع ثمنه حتماً، يجب ألا تفوتك لحظاته.. فامضِ بمتاعك إليه واستقبله بحذر.. لا شيء في هذه الحياة يملك صلاحيةً مدى العمر.. بعض الأشياء تصدأ، والبعض الآخر يعاني الاهتراء، والانقلاب، والغدر.. والبُعد يلملم الباقي الوفي.. والحياة تتكفَّل بصياغة المبررات تحت مُسمّى: « هذه هي الحياة»..

ليالي الفَرح، هي الوقت المحبَّب للذِّكريات، والأحزان.. كأنَّها تجتمع معك، لتُلبي تلك الدَّعوة أيضاً.. أو ربما عزَّ عليها مغادرتِكَ إيّاها بعض الوقت، فرجعت تحاول استعادتكَ لها..

أغلب ما تحتويه الدُّنيا، يقوم على مبدأ التّوازن حتى الجسد.. ولكن على استثناء الفرح والحزن.. تكون الغلبة للحزن.. فما تشعر به من الحزن، هو أضعاف ما تشعر به من فرحٍ ويبقى السؤال، لماذا؟..

ليس لنا في ذلك أي مبررٍ، إلا أنَّ قدراتنا البشرية على صناعة الألم تفوق تلك المسؤولة عن صناعة السَّعادة. وخاصةً، عندما يكون المحيط مؤهلاً قوياً لذلك.. فمع كل عزيزٍ يُفقد، هناك فجوةٌ تتكوَّن داخل الروح تشبه دسام الفؤاد، تعبر منها المشاعر الموجِعة.. مع كل عزيزٍ يُفقد، هناك عددٌ من خلايانا البشرية تموت، ويبقى مكانها فارغاً مدى الحياة..

وكذلك عندما تُكسر الأحلام، وتنتهي.. وعندما تأكلنا المشاعر، وتفيض في داخلنا.. وعندما تقوم صدمات الحياة بترويضنا.. هكذا نموت قبل أن نموت.. ولكنَّنا نستمر إلى أن نموت..

في مسرح الشرق.. لا يمكن أن تكون حراً.. ولهذا لا يمكن للأشياء أن تكتمل.. ولا يكفي الإصرار على الحياة لكي تقوم بالتَّغيير الذي تريده.. هذا غيضٌ من فيضٍ، الحقائق التي لا بد من تصديقها، والعمل بها أحياناً.

عندما يكتب الكاتب البدايات في قصة حبٍ، يكتب أمنياته التي أراد لها أن تكون حقيقةً.. وحين يدخل في النِّهايات يكتب الحقيقة، التي تمنَّى

لها أن تكون مجرد رغبةٍ لحظيةٍ لا يهم تحقيقها بل، ويكون مرفوضاً.. ولا يُمكن لأحدٍ، كشف تلك التَّفاصيل التي حصلت فعلاً.. هو وحده من يعرف حقيقة تلك التَّفاصيل، ومصدرها التي خُلقت منه.. وهو وحده يعرف احتمالات السيناريو المطروحة لبقية تلك القصة.. وفي الواقع: نحن في قصص حيواتنا نلعب دور هذا الكاتب، أي أنَّنا لا نقول الحقيقة في بداياتنا، ما نتحدَّث عنه هو ما نتمنَّاه، أو كنا نتمناه.. وفي النّهايات نقول الحقيقة، ونخفي أمنياتنا..

وما تفعله في حياتك يشبه تماماً تلك النَّظرة الفكرية التي تنظرها، عندما تقرأ تلك الكلمات المكتوبة بعنايةٍ ودقةٍ متناهيةٍ.. المكتوبة بالرَّسم.. أي أنَّ صدى القراءة، والفعل الحياتي متشابهان جداً..

عندما يكتب الكاتب نفسه في قصةٍ.. لا يكتب الحقيقة، هناك بعض التَّفاصيل تبقى مخفيةً، ولا يمكن اكتشاف اختفائها. كالزَّاد الذي يلف على أيادٍ كثيرةٍ، وتبقى تجهله..

أحياناً؛ يولد الحلم محقَّقاً، يأتي السيناريو خارقاً، وفوق كل التَّوقعات.. تلك هي اللَّحظة، التي يجب ألا تضيع منك رغم أنَّك لا تستطيع استيعابها.. تكاد تبكي لشدة الفرح.. ففي الدنيا ليس هناك ما يدعى المستحيل..

ورد.. شغف.. هيا بنا إلى اللّقاء.

- ما بكِ؟.

- سقط قلبي مني.

– لماذا؟.

– لفرط شوقي، وحلاوة وجهكَ.

– لقد أصبحتُ وسيماً جداً، منذ أن أحببتُكِ، وأزداد وسامةً مع مرور الأيام.

– لقد كان حبكَ غذائي رغم البعد.. ولولاه لما بقيت على قيد الحياة.

– يكاد قلبي يخرج من مكانه لشدة نبضه.

– لم تغب عن عيني.. كنت أراكَ في كل لحظةٍ.. كنتَ ظلّي.

– كانت اللَّحظات تَذكركِ وتَشتِمُني عندما أتظاهر بنسيانكِ.. كل شيء هناك كان متحالفاً معكِ.

– كما كان كل ما في داخلي متحالفاً معكَ.

– يا إلهي.. كم كان بعدكِ صعباً.

– ليس أكثر من بعدكَ عني.

– لا أستطيع استيعاب أنَّنا هنا الآن.. كنت أخاف كثيراً ألا نلتقي.

– ها نحن هنا الآن.

– ولازال وجهكِ يفيض بالسحر.

– يفيض بسحر عشقكَ، وردي.. تفضَّل هذه الهدية لك.

– شكراً شغفي.. إنَّه جميلٌ جدَّاً، ويحمل أروع كلمةٍ يمكن أن تُهدى.. هيا أطلقي عليه اسماً.

- ممم.. روحي.
- جميلٌ جداً.
- جمالكَ.
- تفضلي شغفي، هذه هداياكِ.
- كل هذا لي.
- بالطَّبع.. ومن يستحق كل هذا سواكِ.
- سأقوم بذبحك، إن كان هناك غيري يستحق.
- هاهاهاهاه.
- كيف كانت أيامكَ أخبرني؟.
- كانت لذيذةً جدّاً.. فأنتِ حقاً، كنتِ تشغلين كل شيءٍ من حولي.. وبهذا السر كان كل شيءٍ مذهلاً.
- مممممم.
- كأنَّما روحك كانت تحيط بي.. وتصبّ عليّ الفرح.
- وأهلكَ كيف حالهم؟.
- لا بأس.. تمر الأيام رغم ثقلها.. قد أخبرتهم عنكِ.
- وماذا أخبرتهم؟
- أخبرتهم أني أملك صديقةً تشبه القمر، أو يشبهها القمر لا أدري.
- صديقةٌ!!!.

– هههه.. نعم صديقةٌ.. هم سيفهمون ما خلف الكلمات.

– أكمل.

– لا يعرفون سوى اسمكِ.

– لماذا؟

– هـذا أفضـل.. الجميـع كانـوا يحاولون معرفـة التّفاصيـل الأخرى، لكنَّهم فشلوا جميعاً في ذلك.

– لماذا تفعل هذا؟ هل هناك ما تخجل به؟

– بالطبع لا.. ولكن لم أملكِ بعد.

– مممممم.

– حين أملكِ، سأحملك خبراً مذهلاً إلى العالم برمّتهِ.

– سيكون الجمال في هذا، أنَّكَ حامل الخبر.

– وأنتِ كيف كانت أيامكِ؟

– كنت أعيش النِّزاع دائماً مع جاد، ومع أهلي أيضاً بسببه.

– وماذا كان يريد؟

– حاولـت أن أجعله يتخلى عني.. فشـلت كثـيراً، إلى أن جاء الوقت، وابتعد عني بعض الشيء كما أخبرتكَ سابقاً.

– وكيف أنتم الآن؟

– نتعامل مع بعضنا البعض برسميةٍ بالغةٍ فقط.

– هذا جيد بالنِّسبة لكِ؟

– نعـم.. أشـعر حقـاً، أنَّنـا لا نملـك القـدرة عـلى الاسـتمرار لوقتٍ طويـلٍ حتَّـى بعـد الـزواج.. مـن الآن، أسـتمر معه بـلا رغبة.. أسـتمر باللامُبالاة، فماذا سيحصل بعد ذلك؟

– أشعر بكِ جداً.. لكنّي لا أملك حلاً.. فالحل بين يديكِ أنتِ.

– أعلم ذلك، وتُعجبني أنتَ بدَهائِكَ.

– هههـه.. إنَّنـا نجـبر كثـيراً عـلى ما لا نرغـب بـه شـغفي.. وهـذا ما أخاف عليكِ منه فقط.

– ربـما.. هـذا مخيـفٌ حقـاً.. ولكـن ليـس بوسـعنا إلا أن نحتمـل ما سيحصل، مهما كان صعباً.

– بالتَّأكيد، ولكن علينا أن نقوم بما نستطيع لنخفف من صعوبته.

– أقدّر خوفكَ كثيراً، وأشكركَ عليه.

– لا تشـكريني عليـه.. فهذا الخـوف يخرج من تلقـاء نفسي، لا أملك القدرة على التّحكم به أو إخفائِه.

– أعرف هذا جيداً.

– أخـاف ذلـك اليوم.. يـوم، أرسـمكِ بالكلمات فقـط، دون أن ألمح تفاصيلَكِ.. يوم، لا يحق لي التّفكير بكِ.

– لا أظـن ذلـك، ولكـن مهـما حصـل، سـتبقى أنـتَ الحبيـب الذي أحببتـه بـكل أجـزاء جسـدي، بكل ما ملكـت يـداي، ومـا كان مخفياً في حشوتي، حتّى مائي ودمائي.

– لا تدعي عينيكِ تبكي شغفي.. سأذكرك بكل ما أوتيت من النِّسيان والتَّناسي، وبكل ما جاء تحت سُلطة الحب.

– فُقداني لكَ، هو نهاية الحياة التي ستستمر، ولكن بلا حياةٍ.

– لا أظن أنّكِ ستفتقدينني مهما حصل.

– أتمنى ذلك.

– إن لم نستطع أن نُكمل معاً.. سأكون حاضراً في كل منحدرات احتياجكِ لي.. شغف، أتمنّى حقاً، أنّه باستطاعتنا أن نكون معاً، لكن اليقين في الحياة ليس مُلكاً لي.

– أعرف هذا جيداً.. ستبقى في داخلي مهما طال العيش، لن يستطيع رجلٌ إخراجك من فؤادي.

– يُفرحني هذا.

– لقد وصلت جَوى.

– أهلاً جَوى، كيف حالكِ؟

– أهلاً ورد.. أشعر بشوقٍ رهيبٍ لكما.. كيف حالكَ أنت؟

– جيد، ونحن أيضاً، نفتقدكِ كثيراً.

– كيف حالكِ شَغف؟

– لا أكملي حديثكِ مع ورد!

– هاهاهاه.. ولمَ لا أفعل؟

– ما الذي يضحككِ؟

- تلك الفكرة التي قلتِها أنتِ.
- ظننتُ أنَّني لستُ هنا.
- لا شغفي، أنتِ هنا بالطبع، ولكن جَوى هي حبيبتي الثّانية.
- يُسعدني كلامكَ حبيبي.
- لماذا؟
- لأنَّني ربما سأصبح مجرمةً في القريب العاجل.
- وكيف ذلك؟
- سأقتلكَ، وأقتل جَوى معكَ.
- وبأي ذنبٍ؟
- بذنب حبكَ، وذنب أنَّها حبيبتكَ الثّانية.
- لا شغفي، لا يمكن أن يأخذ مكانكِ أحدٌ!.
- بالطَّبع شغف، ما يقوله ورد صحيحٌ، أنا أيضاً أحبكِ كثيراً.
- وأنا أحبكِ وأحبه، إنَّني أمازحكم فقط.
- أخبرينا جَوى، كيف كانت رحلَتَكِ؟
- كانـت جميلـةً جداً.. كان ينقصنـي وجودكما فقـط. رجعت إلى هنا، وأنا أحمل سلام أمي لكما، كما حملته منكم إليها في ذهابي.
- هذا جميلٌ.
- بالطّبع ورد، هذا جميلٌ.. وكيف كان وقتكِ هناك جَوى؟

– كان وقتاً عادياً.. أكثره كان في المنزل.. وأنتما؟

– ونحن أيضاً جَوى على هذا الحال.

– صحيحٌ، كما قال ورد.. تذكرت ورد.. كيف حال وَجد؟

– لا أعرف بالضَّبط.. لا نستطيع الحديث، أظنكِ تعلمين عن تلك الأجواء التي تعيشها وَجد في منزلها.

– نعم أعلم، وأنا أيضاً لم أستطع التَّحدث معها.

– من المُحزن جداً، أن تُراقب فتاةٌ بهذه الشدة رغم أنَّها لا تخطئ أبداً.

– بالطَّبع عزيزي.. لكن هذه العقول لازالت موجودةٌ بكثرةٍ. ولا يمكن التَّعامل معها.

– دعنا من تلك العقول، وأخبروني متى سنبدأ الدّوام في الجامعة؟

– الجامعة تؤجل الدَّوام كل يومٍ.. وأظن أنَّنا لن نداوم في المقر الرَّئيسي!!.

– ماذا سنفعل إذن؟

– سننتقل إلى مكان آخر يكون أكثر أمناً.. لا أعرف موقعه بالضَّبط، حتى الآن لم يخبرنا أحدٌ، إنَّها مجرد توقعاتٍ.

– مممم.

– سننتظر خبراً منهم بكل الأحوال يا جَوى.

– وماذا سنفعل في هذا الوقت؟

- لا شيء.. سنحاول الاستمتاع بوقتنا فقط.

- هههه.. إنَّ الذهاب إلى السوق المجاور، أصبح مخيفاً، فأيُّ متعةٍ هذه ورد!

- لا تقلقي، سأكون حاضراً معكِ، ومع شغف متى شئتما.

- ممم.. أريد الذَّهاب إلى السوق، وأيضاً مدينة الألعاب.

- مدينة الألعاب؟

- نعم.

- حسناً سنذهب.. وأنت شغفي، إلى أين تريدين الذَّهاب؟

- أنا سعيدةٌ بوجودكَ وردي، وهذا يكفي.

- رهيبةٌ تلك الكلمات، عندما يقولها فمكِ.

- لِمَ الصّمت وردي؟

- حين أصمت أمامكِ فجأة.. تفيضين أنتِ في داخلي.. أشعر بكِ في كلّي، فلا أستطيع بعدها أن أملك من نفسي شيئاً.

* * *

- كيف أكتبكِ؟

كيف يمكن وصف حبل مشيمةٍ يُغذي طفلاً، أصبح في العشرين من عمره.. كيف يمكن للحبر الذي ارتجف في رسم اسمكِ يا حبيبتي، أن يقوم بوصف جسدٍ يضخّ الأوكسجين في جسدٍ آخرٍ كرئةٍ مختلفةٍ ونادرةٍ، جاء بها القدر لتسكن قلب الفؤاد..

كيف أكتبكِ؟

وأنتِ النّسخة الفريدة التي أبدع الخالق في إيجادها.. وأنا رجلٌ بسيطٌ لا أملك قدرة الإله، وليس بوسعي إلا أن أصمت أمامكِ، لا لأنَّ السكوت من ذهبٍ، بل لأنّي على يقينٍ، أنَّ كل لغات العالم ستفشل في التَّعبير عنكِ، فلا يحزنكِ صمتي.. ولا يحزنكِ بكائي إذا بكيت، ففي دمعي حلمٌ يتحقَّق، وخيالٌ جاء من كوكبٍ آخرٍ، واستطاع إيجاد نفسه هنا على الأرض معنا..

اليوم، أعترف ألا امرأة هزمتني سواكِ.. لا امرأة رفعت راياتها فوق صدري سواكِ.. ولا امرأة زرعت فستانها في حدائق تكبري، وكبريائي سواكِ..

وأعترف أنَّني عندما أراكِ أشتاق لكِ أكثر.. لم أكن أعرف، أنَّ الشوق سيبكيني، كما كان يُبكيني فَقدي لقطع الشوكولا، عندما كنت صغيراً..

فالبسي كعبكِ العالي، واتركيه يعلو بك.. عن سخط هذا العالم.. عن فقرهِ، عن جبروته.. اتركيه يردّ على الأسئلة وينقض النّقد.. فليس هناك أقوى من كعبكِ العالي يا حبيبتي، عندما يتحدَّث..

وتألَّقي كوردةٍ، زُرعت في جدارٍ.. ونضجت.. ثم قبّلي يدكِ، فلا شيءٌ كيَدكِ يستحق التَّقبيل.. وتدلّلي كنجمةٍ وُلدت من بطن القمر.. ومالت بخصرها فأجرمت.. تدلَّلي لأنَّكِ أنثى، ولأنَّ الدلال خُلِق للإناث فقط..

حين أذكر أنّكِ لي، أشعر وكأنَّ العالم كله في قبضة يدي.. فأعصره ليتحرَّر من الحزن الذي أسره، والخوف الذي نزل عليه، ليبقى حيّاً بِروحِ الحب بروحكِ أنت، يا أيَّتها الحب.. حين أذكر أنَّكِ لي، يضخ فؤادي أضعاف حجم الدَّم.. شيءٌ غريبٌ يسري في جسدي كاملاً يربكني، فلا أدري ماذا أفعل..

في عينيكِ فقط.. يذكر التَّاريخ عظمتهُ وتتوحَّد الأمم في عجزِها على الوصف، يستلقي الحرف ببرودٍ، تضيع الأبجدية، وتنتحر القوافي عشقاً..

هناكَ على عُنقكِ تُقام الحروب، ويُودعُ القادة جُندهم وأنفسهم، وبكل شموخٍ تنتصر تضاريس أرض المعركة..

ربما غداً، تلمّني النّساء من مأساة هواكِ، أو يلمّ أشلائي التّراب.. فاسمحي لي، أن أبقى في التّراب على قيد حبكِ. وأبقى في حضرة أحلى النِّساء عاشقاً لكِ وحدكِ.. ففي وجهيَ بريقٌ من مُحيّاكِ.. يتحدَّى نساء العالم الأكبر.. كأنَّكِ فتاةٌ وُلدتْ لتختصر سحر هذا العالم، وقوته، وأنوثته في ركنٍ واحدٍ فقط.. وأنا لازلت، أشتهي بعض سعادة تلك الأشياء التي تحظى بأول نظراتك الصَّباحية بعد نومٍ عميقٍ..

فاتركي الألوان تصنعكِ.. تأكلكِ.. فأنتِ في الألوان اللّون..

وإذا ما دعاكِ الرَّحيل، أرجوك شغفي، اتركي لي مرآتكِ التي تنظرين إليها دائماً، فأنا أحتاج للنّبيذ كثيراً.. أو شيئاً من ثيابكِ يحمل

عبقـكِ يـردّ لي الـروح.. كصباحـي الـذي يعـرف معنـى اقترابـكِ.. ابتسـامكِ.. وهمسـكِ لي بـشيءٍ تحبين قولـه كثـيراً.. فترافقني السَّـعادة.. حتّـى عندمـا تكونـين فيـه خيـالاً في خيـالٍ.. كأنَّ الـشَّرق يمـوج في الغـرب.. والجنوب يرقـص بما احتواه الشَّـمال، وأنتِ هنـاك بينهم جميعاً مركز العالم بكل أجزائه..

شغف.. أريدكِ خارج القانون.. فنساء القانون يَمُتْنَ أكثر.. لا تتَّبعي الفصول، ولا تنصتي للفواصل.. أرجوكِ ابتعدي عن غباءٍ كهذا..

أنا الذي لم أكن أصدِّق، أنَّني سأفقدكِ يوماً ما..

الآن.. لا أصـدق أنَّـكِ لي، هكـذا بقلبك، ووجهـك، وأضلعكِ دون أن تنقـص ضِلعـاً واحـدةً.. أيُّ قـدرٍ هـذا، يا شـغفي؟ لـو كنـت أعرف الطَّريـق إلى السـماء لذهبـت، أسـألها كيـف اسـتطاع الـرب إيجـادك بهذا التَّكويـن؟.. كيـف لم يضعـكِ بـين ما يثبـت حقـاً، أنَّ هنـاكَ سـماءٌ وأنَّ هنـاكَ ربٌّ؟.. لمـاذا لا تكـوني ديناً فيسـمح لي أن أعبدكِ؟.. لمـاذا لم أُخلق أنـا بألـف قلـبٍ.. بـل بعـشرات الآلاف مـن القلـوب.. كـي أسـتطيع احتواء حبَّكِ.. لماذا؟

لماذا؟؟..

لماذا؟؟؟..

* * *

أعطني قلوباً، واتركني أزرع حباً كهذا الحب.. بل وأكمل الحياة مُزارعاً، فالحب الذي يولد في القلب يعيش طويلاً، وربما لا ينتهي إلا بنهاية مَسكنه.. أعطني الصِّدق، والوفاء، والورد، لأقدِّم لكِ ابتسامةً لا يمحوها اليأس مهما كان شديداً.. ففي فلسفة هذا العالم لا شيء دون مقابل.. حتَّى الحلم..

الحب هو ذاك الجزء الذي لا يصدَّق من الحياة.. هو ذاك الحادث الذي يحصل فعلاً، ولكن بلا سبب، أو بسبب لا تعرفه.. لا تدري كيف أو لماذا ولا تتساءل أيضاً؟.. الحب، هو أن تَترَك الصَّمت يتحدَّث، بعد أن تنتهي الكلمات التي لا تنتهي في الأفق الذي يحدِّد مداه البحر ناعم الأمواج..

وأجمل ما في الحب هو ارتباكه، وعفويته، وذاك التَّعبير الصَّادر بلا تفكيرٍ.. حين تكون عاشقاً، لن يخيفك أي شيءٍ ولن يُكسر إحساسَك.. وتُصبح أنت البشريّ الطَّائر، ومقطعٌ من النَّثر يُقرَأ شِعراً..

حين تكون عاشقاً، يصبح الدَّمع لذيذاً، ويصبح كل ما فيك حقيقياً أكثر..

ولكن.. عندما تُحب، عليكَ أن تعرف الحقيقة، وتختبر الواقع جيداً. عليك أن تعرف، أنَّ حبيبك الذي يملك كل ما في داخلك يمكن أن يرحل.. ويأخذ أملاكه معه.. الحب هو الأمان.. ولا أمان في الحب، لأنَّ اللقاء هو صدفةٌ منسوجةٌ بيد القدر، وكذلك الرَّحيل أيضاً ينسجه القدر، وبين هذين القَدَرين ستبقى..

عليكَ أن تعرف جيداً، أنَّ كل يومٍ في العشق يقابله يومٌ في الفراغ وربما أكثر..

تمر الأيام هكذا، وفي مرورها ستفهم ألا شيء عصيٌّ على الانهيار، حتَّى الأشياء التي ظننتها في الماضي باقية لا تسقط.. ستشعر نفسك، أنَّك بلا أحدٍ، بلا هويةٍ، ويتساوى الجميع في عينك، ولا صدر هنا يحمل دمعك المُتهاوي لشدة الألم الذي فتكَ بكَ وطول الكتمان..

ولأنَّكَ لن تستطيع شرح المأساة، سيدفعهم الفضول، أو الحب، أو الشماتة، أو الحسد إلى السؤال في وقتٍ لا تُجدي فيه الأسئلة، ولا يوجد فيه أجوبة..

ستترك لهم رسالةً كل ما كُتِبَ فيها:

أنا لم أكن أعيش كما كنتم تتخيَّلون، كانت حياتي ممزَّقةً جدَّاً كأوراقكم التي ترمونها في سِلال المهملات، ربما لن يصدقك أحدٌ، ولكن ستأكل الغرابة ملامح وجوههم عندما يعرفون الحقيقة..

تلك الحقيقة المخفية كعادتها بثمنٍ باهظٍ جدَّاً..

ستحاول كثيراً الإبقاء عليهم كالتُّحف بين الذِّكريات الجميلة، وستفشل كثيراً في ذلك.. فساعةٌ واحدةٌ من الألم، تكفي للقضاء على يومٍ كاملٍ من السَّعادة بل وربما أكثر..

وعلى عكس ما تعتقد..

أخطاؤكَ البسيطة تُحاسب عليها أكثر.. تربكك أكثر.. وتدفع لها

ثمناً كبيراً يتجاوز أحياناً ثمن أخطائكَ الكبيرة.. كما أشياؤك الصغيرة التي يهزكَ فقدانها أكثر من الأشياء الكبيرة التي تَفقِدها.. تلك فلسفة حياتية لا يمكن الاقتناع بها إلا عندما تعيشها في واقع غريب ومع مرور الوقت تصبح من الحقائق المسلَّم بها..

لا سعادة في هذه الحياة، سوى الوقت المسروق بالعبث في فوضى الشقاء.. ولا يوجد ملائكةٌ هنا، فأرض الملائكة هي السماء، أمَّا هذه الأرض فهي للبشر فقط.. لأخطائهم وزلّاتهم وكل صفاتهم..

يا بنيَّ في العُزلة ألمٌ.. وفي حضرة البشر ألمٌ آخرٌ.. فاختر في أي ألمٍ تودّ أن تكون!.. وكن مستعداً للمواجهة، ففي فلسفة هذا العالم لا شيء دون مقابل، حتَّى الحلم..

ثم ننام في الخامسة فجراً، بعد عراكٍ طويلٍ مع الأرق، ونصحو في تمامِ اللَّحظة المجهولة تماماً، لنلتقي مع العبثية السَّمراء.. وهدوء الفوضى الحاضرة في كل شيءٍ.. ننام وكل واحدٍ منا يحمل كل أركان المأساة.. هل بكينا؟.. لا لم نبكِ، لأنَّ البكاء فعلٌ اعتياديٌ جداً.. نحن أكبر من أن نبكي.. وما نحمله أكبر من البكاء..

لن نحتاج لأكثر من عصفورٍ يغرّد بحنانٍ.. لنشعر بالحنان، الذي تراكم في هذه الدُّنيا دون أن نشعر به ونصدق ما قاله البعض لنا..

أو ربما لنصحو مستعدين لمواجهة تلك الصَّدمة، إنَّ دنيانا خاويةٌ من الحنان، بل ومن المحبة، ومن كل المبادئ التي يمكن أن تتحقَّق عبرها الأماني، والأحلام، والآمال..

ثم نبحث عن النَّقاء الحقيقي، عن الصَّفاء النَّادر، والوفاء الكبير، عن ضلعٍ نعلّق عليه قناديل الوجع السَّاهرة.. عن أي شيءٍ يقدّم لنا السَّعادة، والنسيان، والتَّناسي، حين تفترش الآلام صدورنا، ومخادعنا والوسائد، عن حضنٍ يكون الوطن لتعيش أكياس دمعنا محضونةً، لنظهر أمام جموع النَّاس أبطالاً، ويبقى الفَرح ينضح من وجوهنا الماهرة في التَّعبير المزيف..

نعم يا سيدي.. نحن الباحثون عن الرَّاحة، ونحن من يعيش ذروة التَّعب أثناء بحثنا، ونحن أيضاً من يعيش الصَّدمة في فشل بحثنا..

سنعود يوماً إلى الحياة.. لا بد من طريقةٍ نعود بها.

* * *

ثم سأذهب إلى فراشي.. أضع رأسي على وسادتي، وأخبركِ بكل ما يحصل في داخلي، وفي خارجي، سأخبركِ عن تفاصيل الأثاث الذي يحيط بي، وغباره المنتشر في كل مكانٍ..

عن ذلك الجمود العارم، الذي يسكنني يا حبيبتي، وأسكنه هنا، حيث كان من المفترض أن نحتفل في يوم ميلادكِ.. سأخبرك عن صندوق الهدايا الذي أعدَّته حسرتي بانتظار موعدك، دون أن يعلم أنَّه فات..

سأخبرك عن وحدتي، ووحشتي، وعن سحابات الدَّمع التي تُغطي وجنتيّ.. عن حِيرة المقاعد وهي تنتظر حضوركِ.. وتساؤلها عن تلك القطعة السَّماوية، التي كانوا على موعدٍ معها، ولم تحضر..

يوما ماً.. سنجلس ورأسكِ مُستلقياً على كتفي بكبرياءٍ..

وأخبركِ أنَّني توقَّعت كل شيءٍ، إلا أن أجلس وحدي أمام كرسيٍّ فارغٍ مُحتفلاً بميلاد حبيبتي في المقهى، الذي اعتدنا أن نكون فيه معاً على الطَّاولة السَّابعة..

سأخبرك عن موسيقى البيانو التي أعدَّت لحضرتكِ.. وعن أوتار الكمان التي حضرت لأجلكِ.. وبحثت عنكِ كثيراً ولم تجدكِ، حتى وافتها المنيّة، وعن الكلمات التي جفَّ حبرها وهي تكتبُ لكِ..

سأنقل لكِ حديث الهدايا.. وسؤالها: لمن سنُهدى؟.. وسؤال القلوب الحمراء المرسومة على غطاء الوسادة الأبيض.. لمن رُسمنا؟ وغضبُ ذلك العِقد، وسؤاله عن النّهد الموعود أين هو؟

سأخبركِ كيف جلست أرتمي بين الخيبات..

سأخبرك معنى اللّاشيء واللاحياة، فقد أصبحتُ أستاذاً في اللَّامبالاة.. سأحدث العالم عن العين التي تراه أسوداً، أو لا تراه أبداً، وعن الفؤاد العاشق الذي سكت فجأةً، حتى عن الحب على أثر حادثٍ مروّعٍ جداً..

هنا يا حبيبتي، وقف النَّادل أمامي، وبين شفتيه سؤالٌ قاله انحدار جفنه: هل نبدأ يا سيدي؟

وما لبثت عيناي كي تجيبه بتبلّلها: ابدأ بالحفل كاملاً بكل تفاصيله المحضَّرة، وضع قالب الحفل هنا ليأكله قلبي، فحبيبة الحفل حاضرةً عبر القلب فقط...

أيـن أذهـب بكل هذه الحـيرة، وبكل هـذا الضَّيـاع.. بزحـام الأفكار والسـؤال المـتردِّد ماذا تفعلين الآن مـع جاد؟.. بماذا تشـعرين؟.. وكيف حالك يا عزيزتي؟

كـم أودّ أن أسرق لـك الحياة من الحياة، وأضعها في صدرك ليعيشـها، فالصَّدر الذي يكون منهجاً للحب يستحق أن يعيش الحياة..

هل ارتديتِ فُستانَكِ أم أنَّه ارتداكِ؟..

ليكون رائعاً مذهلاً مدهشاً.. يلاعبني كالسَّاحر.. ويدغدغ قلبي..

فأنـت يا حبيبتـي مختلفة التَّكوين، كشـمسٍ تمشي عـلى الأرض.. كآيةٍ ممـا نزل مـن السـماء تنشـر العبـير المعطّر.. كشـلالٍ من العشـق يهـدر من حوله كل النِّساء..

أريـد أن أخـبركِ وأخبر العالم أيضاً، أنَّ الحـزن الآن يَلدُني من جديدٍ.. عـلى سريـرٍ مـن الألم.. وأنَّ هناك طفلاً يولـد الآن ويَحتـضر.. فتعالي إلينا لنحتفل معاً، أو تقومين بواجب العزاء..

ولا تحزني، لو سمعتِ أنَّني أقول أنَّكِ كأمّي، فلا أحدٌ كأمي.. حتَّى أمي.. ولكن كيف لرجلٍ ربَّاه الشَّرق يا حبيبتي، أن يحتمل وجود أمه، وحبيبته، ودنياه كلها مع رجلٍ آخرٍ؟ أيُّ ألمٍ هذا الذي يستطيع وصف ألمه؟.. أيُّ حياةٍ تلك التي تبقى بعد ذلك، وكيف تُعاش؟..

مـاذا أفعل أمـام نافذةٍ تُطلـين عليها باكيـةً؟ وماذا يُفيـد دمعي آنذاك، وأنـا أحـترق في مـا أرى.. أيُّ طـبٍ هذا الذي يُشـفيني من أثـار دمعك،

وحزنـك، والقهـر العابـث بأشـيائك؟.. وكيـف أصبـح طبيبـاً، وأنـا المريض بكِ وليس لمرضكِ علاجٌ!..

ماذا أخبركِ عن الهجر.. وعن المهجور؟

عـن من عـاش الفراق قبـل الفراق، بل عاشـه في توهج اللِّقـاء، ولذة انتظاره؟ عاشه وهو على علمٍ بانكساره..

عن من أخذ النَّاي وغنّى بصمتٍ يفوق صدى الأصوات؟ عن الشَّوق الذي يعبث بي حتى النّخاع حين أذكركِ كما الآن، وحين لا أذكركِ كما لم يحصل في أي وقتٍ مضى.. ولن يحصل في كل الأوقات القادمة..

كيـف أخبر شـعراء العـالم أنَّ كل أشـعارهم لا تسـاوي شـيئاً.. لأنَّها بكل بساطةٍ لم تُكتب بكِ، أو على الأقل لم تُكتب لكِ..

في حضرة كل الحاضرين أنتِ.. في صوت كل الصَّامتين أنتِ.. في الرؤى.. في كل ما يُرى يا حبيبتي.. في الآفاق كنتِ.. ولازلتِ.. وستبقين.

* * *

تـأتي العواصـف أحيانـاً بأحـد أشـكال الضَّيـاع.. تغيـب الأذهـان فيهـا.. يصيبـك الشيء الـذي لم تتوقعه تحديـداً.. ومن الطَّبيعـي جدَّاً، أن تفـترش الأفـكار وتبكي، لكـن الغرابة تكمـن في أنَّكَ لـن تبكي في تلك اللَّحظة لهول الصَّدمة..

وللحظـةٍ، تشـعر وكأنَّ الحياة توقَّفت هنـا عند هـذا التَّفصيل الصَّغير أو ذاك.. يعتريـك الألم حتّـى تـكاد تختنـق.. وتصبـح الدُّنيا خاليـةً حتّى

مـن الأشـخاص المتجولـين حولـك، وأصـوات البائعـين في حـارات المدينة في مشهدٍ من مشاهد السينما..

وتمـضي لتكمـل بحثَـكَ عـن حيلـةٍ تخـرج فيهـا مـن مشـهدك هـذا، محـاولاً أن تلعـب في وقـتٍ واحـدٍ دور المُخـرج والكاتـب، والممثـل والكومبـارس إذا لـزم الأمر.. وتمـر على صفحات حياتـك كلها، وتقف مندهشـاً عنـد الحـوارات التـي كانـت حـاضرةً في المـاضي.. في تلـك اللَّحظـة، سـتفهم أنَّ الكثـير مـن الكلـمات تُقـال بـلا هـدفٍ.. تُقـال في المعنى اللَّحظي لها.. تُقال وتُنسى فقط لا أكثر..

كنـت مُخطئـاً، عندمـا ظننـتَ أنَّـكَ لـن تكـون وحيـداً.. أنَّك سـتعبر الليالي فرحاً، ولن تشعر لِلحظة بمرورها الثَّقيل على الروح..

والآن، تمسك الكتب، ومن خلفها تزور الروايات، تبحث في كل الصفحات عن سطرٍ من أسطر الخذلان يحكي عنك، أو عن وجعكَ.. لتزرع دمعك خلف أحرفه، وتختبئ في طيَّاته.. عائداً إلى ذاكرةٍ مليئةٍ به.. جالساً بين الفعل والفاعل والمفعول به، محتاراً بين مصدر الفعل، ودافع الفاعل، ومستقبل المفعول به.. ولا تدري ماذا تفعل!

كلَّما تقدَّمت في العمر.. كلَّما صَغرْت أكثر.. وصغر الطفل الذي يعيش في داخلك أكثر، تخرج تبحث في وطنك عن وطن.. عن ضلعٍ تُعلِّق عليه رنينك.. عن ماءٍ يُطهِّركَ.. عن حبٍ يطهوكَ.. فأين تجده يا سيدي؟.. وأنت تعيش في خضاب الماضي.. وتشعر بألا مكان لك هنا، فتمضي تبحث عن أي شيءٍ يقتُلك.. يقتلك الآن، ليس غداً.. ولن تجده..

ستبقى معلَّقاً في مشنقة التَّفكير، كطفلٍ ضاع في عبث مدينةٍ حتى يُنقذك النَّوم، أو تعود بك سلاسل الهدوء إلى زنزانة اللامبالاة، وفي حضرة اللامبالاة ستُصبح الحياة أجمل، وتتساءل في نفسكَ عن أشخاصٍ كثر وردت أسماؤهم في قوائم المحبين أو المعجبين ربما. وتعلم فيما بعد، أنَّ الجميع انصرفوا في مشاغل حيواتهم، وأنَّه لا بد لك من أن تدخل المأساة مجرَّداً من حبك للحياة، ومن كل أوراقك التي تستخدمها في حروبك عادةً.. وتعود المعارك إلى ذروتها، وأنت تُعارك نفسك محاولاً أن تبقى أو تستمر على قيد الصِّراع.. لكنَّكَ أنت من يختار الحياة وطريقة عيشها.. فاختر ما يناسِبك أنت..

الجميع يملكون طريقةً واحدةً في معاملتهم مع البقية، لا يتغيَّرون إلا أثناء حبٍ، وفي لحظة غياب الحب يعودون كما هم، وهذا ما يُفسِّر البدايات الرَّائعة، فوجود الأشياء الجديدة في الحياة يجعلها أجمل، لكنَّك تملّها مع مرور الزمن ثم تُكسر هي، وتُكسر أنتَ معها.. فارتدِ أناقتَكَ، واخرج بكل ما ملكت يداك كأنَّك لن تعود، أو ربما تعود كما الملوك..

الحزن العميق يا صديقي، الألم المُفرط، الصَّدمات الكبيرة، رجفان الفؤاد وشقوقه، كلها منصات للتَّتويج بالإبداع..

ابحث عن الهدوء، خُذ إحدى الزوايا، وانفصل عن الحياة وعن الواقع، تمدّد على حُلمٍ أو خيالٍ. اخرِجْ الجميع من دوائرك.. ففي النِّهايات ستكون وحدك مُحاطاً بالجماد فقط.. امسح بَلَلَكَ، وامضِ يا عزيزي، كن قوياً ولا تنتظر أو كن قوياً إلى الحد الذي يجعلك تنتظر

حتى اللانهاية.. كن قوياً يا صغيري، واقتحم أزقة ألمكَ بشجاعةٍ، وتألّم فبعض الألم يُعيد الحياة..

وفي الهدوء.. ستشرب حنيناً، وتأكل حنيناً، وتنام على حنينٍ، وتصحو على حنينٍ..

في الهدوء.. يُصيبكَ الحنينُ كمرضٍ مُستعصٍ يُفتت أحشاؤك كلَّها، لكنَّك في نهاية الأمر، وبعد عذابٍ لا أدري مداه ستستطيع أن تنام، وربما تنام بعمقٍ كبيرٍ.. هذه هي الحياة.. وكل ما هو آتٍ هو ماضٍ أيضاً، وكل ما هو ماضٍ غداً يأتيك مُبتسماً في الذّكرى..

وتعود أنت كجبلٍ شاهقٍ ينظر إلى السَّماء ويرتجي.. كمن تعلّق بأحد الأعمال الدرامية، وقد انتهت حلقته الأخيرة للتَّو.. كقلبٍ كُسر وجلس ينظر إلى المدينة المتحسِّرة.. ورغم كل هذا ستعود يوماً ما.

* * *

مشيت كثيراً.. كنت أبحث عنكِ، عن صدفةٍ تجمعني بكِ.. مشيت بلا توقفٍ، ووددتُ لو أراكِ بلا أي سببٍ يدفعني لذلكَ.. إلا أنَّني أحب نفسي كثيراً، عندما تكونُ في حضرتكِ أنتِ، وحتى عندما تسعى إلى أن تكون في حضرتكِ أنتِ..

ربما كنت أبحثُ عن امرأةٍ تقرأ لي شعري الذي كتبتهُ لكِ، وتلملم فُتات نثري المنثور تحت زوايا حاجبيك المدورة. لا أريد أكثر من أن أنام في عينيك بسلام.. لا أريد أكثر من أن أكون خاتماً، أو جزءاً من الحَلَق المُعلّق على أذنيك.. جزءاً من المساء الذي يحتضنكِ، أو حتى لوحةً رُكنت على جدار غرفتكِ وهناكَ نسيها الزَّمن..

وكونكِ المخدّر الوحيدُ الذي يستطيعُ إيقافي وتخديري.. أبحثُ عنكِ في كل لحظةٍ أمرّ بها.. في كل كأسٍ.. في كل تفصيلٍ.. وفي كل شيءٍ..

كنت أحاول انتظار الفجر، رغم أنّني أعلم تمام العلم أنّه سيموت في أول لحظات الشَّفق. كنتُ أشعر بالغُربة في حينٍ كانت الغرابة تملؤني.. والمارّون هناك يُحدِّقون بي كثيراً، لكن حقاً، لا يمكن لأحدٍ أن يعرف ما يدور في الأحشاء. شعرتُ بالخوف كخوفِ روايةٍ ماتَ كاتبها، ونسي أن يضع اسمه عليها أو التّوقيع..

أعرف أنّه عليَّ أن أمضي.. لا أدري إلى أين أو كيف أو لماذا؟.. كل ما أعرفه أنَّه الآن، عليّ أن أمضي لأصارع وحدتي، وأدخل التَّحدي مع الحسرة، وأكمل حياتي أبحث عن أحدِ نصفي الذي غادرني على سبيل القدر، ثم أموت وحيداً دون أن أجد شيئاً يَمُدَّني بالقوة، أموت

منتحراً بالعُزلة كما يموت العظماء في الحب، ولن أحترق يوماً بعد هذا، اطمئِنّي فالرَّماد لا يحترق..

اليوم ترتدي الحياة ثوبها الأسود حُزناً وتألّقاً، وأعيش كما يعيش البحر في ذكرى ضفةٍ يُحبها تجلس أمامه كل الوقت، ولا يستطيع الالتفاف حولها وتقبيلها..

أكتب لكِ وأنتِ الوحيدة التي لا يمكن لها قراءة المكتوب الآن، وأخشى عليكِ من الكلمات، من أن تكتشفي حقيقة أجزائي المُفتّتة، أو قُرب انهياري، ونهايتي التي أشعر بها كثيراً، أو ربما انتحاري على ضفاف الكتمان بكل هدوءٍ وأملٍ..

لم أكن لأتخيل نفسي بكل هذا البرود يوماً.. حتَّى أنَّني أزور قبري، وأَرمِي عليه التَّحية دون أي رغبةٍ مني في الموت، أو في الحياة..

لم أكن أقصد أبداً مُقاومة السقوط، فالسقوط في عينيكِ كالشَّرف، وما أنا بأحمقٍ فأرفضه، وأتركه في سبيله دون أن يضع شيئاً ما في قلبي، حتى لو كان سيفاً، أو وشماً أتفاخر به أينما ذهبت، ولكن لم أكن لأطمح أن تكوني لي زوجةً، فأنتِ بالنِّسبة لقلبي أكثر من امرأةٍ أختارها لأكمل معها ما بقي لي في الحياة.. بل امرأةٍ أختارها لأعطيها ما بقي لي من الفرح.. كان هذا طموحي أو ربما حلمي، لكنَّه الحلم غير المشروع.. فلا الأديان تقبل بنا، ولا المجتمعات على تعددها يمكن أن تفهمنا، لكنَّه الحب.. ووحدها قوانين الحب تأخذنا بعين الاعتبار.. الحب يا حبيبتي، هو من أعاد ترتيبنا، ومنح قلبينا الشهيق..

فلنشرب كأساً من الجنون ونلتقي.. لنشرب نخبَ هذه الأمّة العَرْجاء ونلتقي.. لنشرب بَلَلَ الأجفان ونلتقي.. ونضع قبلات استهزائنا على خد النَّدم.. فلنلتقي نحن الذين لا يمكن أن نلتقي..

اليوم يا شغفي، أشعر بأنَّني أنتقل من الحياة إلى الموت، لأكمل الحياة هناك، وأفكِّر في الحياة ما بعد الموت.. الموت الحقيقي.. فأنا أريدكِ هناك لا هنا..

لم يعد يعنيني شيءٌ، إنما سأكمل ما بدأت به على سبيل الواجب لا أكثر، وأتعمَّد قتل نفسي بكل الطرق المتاحة، ويوماً ما سأعترف أنَّني عن سابق إصرارٍ وتصميمٍ أنا الذي قتلت نفسي، وصفعت قلبي حتَّى أدمَيتَه، ووضعت في أبهري أدرينالين الحب.. فلا يلومكِ لائمٌ، ولا يمسَّكِ شيءٌ، فأنت خطّ قلبيّ يُمنع المسَاس به منعاً باتاً، هذه وصيَّتي لكل من مرّ على الصّفحات، أو سمع الخبر..

وأعترف أيضاً.. أنَّني خرجت لأرمي نفسي في أحضان كل نساء العالم.. باحثاً عن نسيانكِ.. وشربت ألف قارورةٍ من النَّبيذ لأُنهي سكرتي في عينيكِ، وأُكمل بحثي عن نسيانكِ.. وأعترف أيضاً، أنَّني فشلت كثيراً.. فشلت جداً.. فشلت عن جدارةٍ، واستحقاقٍ، ورغبةٍ بالفشل..

وأعترف أيضاً أنَّني على الرغم من معرفتي الكاملة، بأنّي سأكون حريق حبٍ كبيرٍ فقد أشعلت في نفسي كل أعواد الثقاب التي ملكتها.. وأوقدتُ فوق الترقوةِ شمعاً.. وأدخلت نفسي غرفة العمليات طالباً من الأطباء استئصال جنوني بكِ، أو زرع الديناميت

في كبدي، ورئتيَّ، وبعد التّخدير، قاموا بنقلي إلى مستشفى المختلّين عقلياً، ولا أعرف لماذا؟..

وأعترف أيضاً.. أنَّني هربت من هناك، بعد أن سألني الطَّبيب عن ماذا حل بي؟.. هل هناك مجنونٌ بامرأةٍ كحبيبتي، يستطيع معرفة ما به يا سيدي الطَّبيب؟..

وعدت أبحث عنك، عن صدفةٍ تجمعني بكِ، مشيت بلا توقفٍ، وددت لو أراكِ بلا أي سببٍ يدفعني لذلك.. إلا أنَّني أحب نفسي كثيراً عندما تكونُ في حضرتكِ أنتِ.. وحتَّى عندما تسعى إلى أن تكون في حضرتكِ أنتِ..

لم يكن ذنبنا يا حبيبتي، أنَّهم اغتصبوا الوطن، لقد كان الحب يغتصبنا، ونحن بكامل قوانا العقلية.. ولا أنَّ كل نصوص العشق قد رفضت قانوناً، فقد كانت كل القوانين ترفضنا، ونحن بكل ما خلق الإله من لهفةٍ. والليل استمر رغم أنف الشَّمس. نحن فقط أحببنا، ونسينا أنَّنا في الشرق. والليل هو نهار الحب في الشرق يا عزيزتي، فلا تحزني..

كنتُ أحارب الشَّوق في الشَّرق، وأطبع دمعي على ورقٍ، وأتركه في الشوارع أينما مررت. كان المساء جميلاً، لأنَّه مرَّ عليك مرور العاشقين، كعادة كل الأشياء التي تمرّ عليكِ بعد مرورها الأول..

يا سيدتي.. لا معنى للحياة الآن.. أظن أنَّني أخبرتك بهذا من قبل، وأعيدُ عليكِ الخبر للتَّأكيد والتَّوكيد..

كانت الحركة المرورية هناك طبيعية جداً، وأيضاً الأسواق، والمارّة، لكن الغريب أو ربما المميز هو أن أراكِ فجأةً في الأضواء مثلاً..! في عين الأم النَّاظرة لطفلها مثلاً!.. في كل طريقٍ يُفضي إلى الحياة، أو أي شيءٍ يعني الحياة بشكلٍ أو بآخرٍ..

نعم شغف، هذه الحياة التي أبكَتنا كثيراً حين كنّا معاً، وحين لم نكن.. هذه الحياة التي انهارت قوانا فيها كثيراً.. وما كنَّا نعرف أو حتى نتوقَّع أن تفعل بنا كل هذا.. هذه الحياة فقدت معناها عندما فَقَدتُكِ..

شغف.. أعرف جيداً أنَّ معركتي الكبرى مع الأشواق قد بدأت الآن، وأعرف جيداً أنَّني سأخرج من هذه الحرب مهزوماً، وأظن أنَّها المرة الأولى التي سأكون فيها سعيداً على الرَّغم من الهزيمة..

حين قرَّرنا السفر والتقيتُكِ ليلاً.. لم أكن أعرف أنَّها ستكون المرة الأخيرة التي ألتقيك بها.. لم أفكِّر أبداً أنَّنا سنكمل الحياة كالموتى، ولن نلتقي، ولن تمنحني يديكِ الدِّفء بعد ذلك، ولن تقدِّم لي عيناك جرعات الحياة..

لو كنتُ أعرف لقتلت نفسي في تلك اللَّحظة، وكنتِ أنتِ آخر من نظرتُ إليه، وآخر من نظر إليّ.. كنتُ أشعر بالفرح، لأنّي سألتقي عائلتي قليلاً، وأعود إليكِ.. لم أكن أعرف، أنَّ ذاك الفرح سيكون آخر فرحٍ أعيشه على قيد حضرتكِ.. أذكر جيداً كيف كنّا، نحن الاثنان نُخفي الدَّمع.. أذكر جيداً كيف كنتِ تقفين، وكيف كنتُ أنظر إليكِ، وأنتِ تقولين: ها أنا الآن أطول منكَ وردي..

يومها اكتفيتُ بكِ.. كنتِ تُساوين كل هذا العالم.. كل فناجين القهوة السادة في تعديلها للمزاج، وعرفت أنَّني كنتُ مخطئاً، عندما قلت: أنَّ وجهك كالقمر، لأنَّ وجهكِ أجمل من القمر..

رجوت الروح كثيراً حتى تتركك لشأنكِ.. أطعمت الفؤاد علقماً حتى يسكت عنكِ، ورحت أشقّ صدر اللَّيل لينجب حياةً لكِ.. كنتُ حزيناً لأنَّ الفرحة في ذمة الله..

وجلستُ وحدي على طاولة الشَّراب، أستمع لتمتمات الكؤوس.. تلمني سحب الدُّخان يُخيل لي أنَّكِ هنا.. وأشمُ عطر النينا من زوايا صدرك الدَّافئ..

ويعبر العابرون ممرات صدري، قادمون في البداية وقادمون من النِّهايات.. ومغادرون في النّهاية ومغادرون من البدايات.

وكي لا أكون غبياً، أجبر السَّلام إلى الراحلين على الولادة مبتسماً أثناء الوداع، من شفتي فؤادٍ أذهله رحيل أسماءٍ كبيرةٍ.. ليست تتوقع تركة رحيلها، وتبقى الحقيقة غامضةً..

كنتُ أعلم، أنَّ رحيلكِ يملك قدرةً تدميريةً عاليةً لهذا، جعلتك أحد أحجار الشطرنج في النِّهايات تاركاً منصب الملك شاغراً، وأظن اليوم، أنَّني تصرَّفتُ بحكمةٍ بالغةٍ.. كانت نتاجاً لواقعٍ عرفت فيه، أنِّي وبالرغم من مُلكيَّتي لقلبكِ، وإحساسَكِ ليس لي حقٌ في البقية..

وفي اليـوم عينـه، كل شيءٍ عـاد إلى سـكونه.. إلى صمتـه.. إلى مَلَلِـهِ.. وزاد عـلى كل ذلـك الألم بعـض الألم، وفتق جديد في بطـن الفؤاد يجتاحه الجاهلون لمنطق الشَّـطرنج ناسـين أنَّ لـكل حجر شـطرنجٍ أرض معركةٍ يتحـرَّك عليهـا، وأظـن أنَّنـي تصرَّفتُ بحماقـةٍ بالغـةٍ أيضاً، كانـت نتاجاً لعشـقٍ لم أعـد أعـرف فيه شـيئاً، عندما سـمحت لحيـاتي أن تكون أرض معركتكِ مع القدر..

أثنـاء الخـبر.. اشـتدَّ البـكاء في داخـلي، كنت مثل مـن اقتحمـوا عليه خلوتـه ليخـبروه أنَّ إقامتـه في بطـن أمـهِ قـد انتهـت، منقذيـن إيَّـاه مـن المـوت، وهـو يجهـش في البـكاء بـين أيديهـم متألماً لفـراق حفـرةٍ صغيرةٍ تكوّن بها، وتبلور بداخلها..

مـؤلمٌ جـدَّاً ذلـك الفـراق يا قمـري، مـؤلمٌ جـداً ألا نمـوت حيثـما عرفنا الحياة..

والآن، يمـوت العمـر عـلى ضفـاف عينيـك، ويبـدأ النسـيان يـأكل فتاتنـا بعـد سـقوط آخـر عظـمٍ مـن فكّـي الهـوى، نامـي في حفـظ الله ورعايته، فقد جرَّدَتني عيناكِ من كلِ شيءٍ..

غـداً، يُفاجئـك حجـم خسـاراتكِ.. تتوسّـدك الذِّكريـات حين عسرٍ يأمـره قـدرٌ جديدٌ.. يرشـفك الحنين برقّـةٍ.. تطحنك رحى الشَّـوق، وفي معدة الحياة تتفكَّكين..

ولأنَّنـا في الـشَّرق، نسـعى إلى بـدرٍ سـنفقده في اللَّيـالي الظَّلـماء، لأنَّنا نسـعى إلى افتقـاد بـدرٍ لا يحـب أن نفتقـده في الليـالي الظلـماء.. نحصـل

على خدمات الحزن مجاناً من مصدرٍ متطوعٍ خبيرٍ في هذا الخصوص..

لهذا جئت أحصل على رماد قلبي الملتهب بكِ، لأحتفظ به دليلاً قاطعاً في العشق.. جئت أحصل على رماد قلبك الذي أحرقته يد القدر، لأحتفظ به دليلاً قاطعاً أيضاً، لكن على ظلم شرقنا العظيم بعاداته، وتقاليده، وأفكاره، وجرائمه، ووحشيَّته..

لست أدري يا حبيبتي، كيف قتل ذلك الذي علمونا إيَّاه في كتبنا المدرسيَّة؟.. لست أدري لماذا كتبوه لنا، إذا كان من المُثبت حقاً انعدام إمكانية تطبيقه؟.. لست أدري لماذا، أخبرونا أنَّ سعاد تحب أبويها، وأخيها، وأقرباءها، وأصدقاءها.. لذلك تعيش حياةً رائعةً، ولم يخبرونا أنَّه ربما يأتي أحدٌ يكون لسعاد أباً، وأماً، وأخاً، وقريباً، وصديقاً وغريباً أيضاً، وفي رحيله تموت الحياة..

لا أعرف لماذا قالوا لنا، إنَّنا ما لم نقطع الشَّارع من ممر المشاة ربما نواجهُ خطرَ الموت؟.. لا أعرف لماذا لم يخبرنا أحد بالحقيقة؟.. فنحن لو كنَّا خارج الشَّارع أصلاً، سنواجه خطر الموت أيضاً، لأنَّ هناك متهوِّراً اتَّخذَ قراراً قاتلاً بلمح البصر.. لا أعرف لماذا لم يخبرنا أحدٌ أنَّنا ربما لن نجد ممراً للمشاة نسير عليه..

فليطهركِ الشتاء الشاهد، وليغسلكِ الليل والدَّمع من جريمةٍ اقترفها عقلكِ، حين أُقنع بذاك العرس، وساعد فيها من حولكِ، حين أقنعوه بذلك، وشارك بها فؤادكِ حين وقف صامتاً متفرِّجاً على ذلك..

فلتحملكِ الحياة صليباً على مفترق صدرها.. فلتحملكِ كمئذنةٍ تصب الشَّمس على جبهتها النّور والنّار.. فلتحملكِ ككتاب أنوثةٍ مقدَّسٍ فيه ثلاث قواعدٍ رئيسةٍ، هي أنتِ، وعيناكِ، ونهداكِ.. وعلى كل النساء إتباعها والاقتداء بها..

ولتسامحكِ الأرض، ولتسامحكِ السماء، اقتداءً بنهر غفرانٍ ينبع من مكانٍ ما في جسدي.. مكانٌ يُشكِّله الدَّوران بين الدِّماغ والفؤاد.. نهرٌ يحتويك كسفينةٍ أبحرت يوم لقاءنا الأول.. ولازال إبحارها مستمراً وسيبقى..

شغف.. أيتها الفتاة التي أحببتها حدَّ العبودية.. إنكِ الآن، تُزفين لرجلٍ أخر.. وإنَّني الآن، أُزفُ إلى كلِ النِّساء في غسق احتضار الحب.. وتتحرك شفاه قلبي بالدُّعاء.. وللمرة الأولى، يكون دعاؤها عليكِ.. فأمسكتها أُخمِد صوتها، وأعصرها كي لا تكمل حديثها مع الرَّب، لكنّي عجزتُ عن إيقاف هيجان قلبي وضرباتِهِ الثَّائرة آنذاك.

الآن.. يفقُد الحب عذريَّته.. وينتقل من حياة إلى حياة عابراً اللاحياة. وأنا وأنتِ عاجزين عن فعل أي شيءٍ..

سيذكرك كل ما في داخلي.. سيذكُركِ كل ما في خارجي.. وكل ما ومن أنا بتماسٍ معه، حتَّى الحفرة الظَّلماء التي ستطويني.. سيذكُركِ كل شيءٍ كآيةٍ من آيات السَّماء، ولها منّا حتى نهاية هذا الكون وفاء لن يكرَّر لغيرها..

اليوم، تنتهي فؤادي.. وتَعْصِرُكَ الحياة ألماً.. وترميكَ لأنيابِ الحُزنِ تَنْهَشُ بقايا الروحِ.. كأنَّ القَهْرَ يدورُ بكَ في فَتَحاتِ هائه آكلاً

لحم الضلوع.. وبين أعمدةِ الظَّلام تشيبُ كما القمر.. وتتساقطُ وريقاتُ وردكَ بدون خريف..

واليوم، تتبخَّرُ دِماكَ يا فؤادي العزيز.. ونموتُ معاً على شُرُفاتِ الحياة.. ونَحيى معاً في شُرُفاتِ الموت.. ويوقِدُكَ خليلُكَ في الحب عن غير قصدٍ.. ويُغَنيكَ الوداعُ موَّالاً جميلاً.. ويَعْزِفُكَ الوجعُ على وترهِ لحناً ملكيَّاً ليس يُنسى..

ولا يعرفُ الفاعلُ فِعْلَهُ.. ولا يعرفُ المفعولُ بهِ بأيّ حقٍ يُصْلَبُ؟.. إنَّما غداً، يَشِعُّ طيفُكِ في الوجدان يا حبيبتي.. ولا يَسُدُّ مكانَكِ بَشَرٌ.. ولا يَمْلَأُ مكانَتكِ قَلْبٌ.. إنَّما غداً، يعرفُ خليلُكِ ماذا فَقَدَ؟.. لكنَّه لن يعرف يوماً، كيفَ فَقَدَ، أو لماذا فَقَدَ، ولا يَعودُ بفقدهِ زمانٌ أو رجاءٌ..

اليومَ، أنتهي من تسطيرِ ملحمةٍ في العشقِ لأجلكِ.. اليوم أنفضُ الحُبَّ عن حشوتي.. وأدخلُ سجنَ الأدب مُجرماً، لأنّي بدأت أكتُبُكِ لأُخَلِّدُكِ، وأنهيتُ كتابَتي قاتلاً لكِ.. اليومَ، أرسمُ بالكلمات صورةَ اللَّيلة الأخيرة.. وأهديكِ أياماً من العمر لا تحظى بحضورِكِ.. ولن تحظى بحضرةِ أنثى في رتبتكِ من مراتب الحبِ.. أيَّاماً لا أعرف مداها!.. لأنَّكِ تستحقين العمر يا عمري..

واليوم، أتمدَّد وحدي كما كنتُ أفعل كلَّ يومٍ، لكن مع نزيف حبٍ، وأفتح كل أجزائي آمراً الحراس بفتح بوابات الدَّم، كي لا يشعر حبي النّازف بالوحدة.

أعدكِ شغفي، أن أكون طبيباً كما ستكونين، لأحمل في ما بقي لي من الحزن لقباً تحملينه أنتِ.. أعدكِ أن أقف بجانب كل امرأةٍ تعيش في حزن رجلٍ، وأواسي قَلبها.. لكن من يواسي قلبي يا شغفي بعدكِ.. من يُطبطب على أكتافي.. من يمسح دمعي المترقرق على وجنتي.. أأبكيكِ شغفي، وكل دمعي لن يُطفئ نيراننا.. أأبكيكِ وحبكِ نقطة الضَّعف، ونقطة الفَخر، ونقطة النِّهاية والبداية.. أأبكيكِ وليس البكاء ضماد قلبٍ.. أأبكيك وفي وطننا الدَّمعة في عين رجلٍ كالعار!!..

اليوم، أتمدّد وحدي، وأظن أنَّ لديّ متَّسعٌ من العمر لأتمدَّد وحدي، وتستلقين أنتِ ها هنا بجانبي، وأبقى وحدي وأراكِ في وجه كل امرأةٍ فلا أشتاقكِ، ولا أشعر بغيابكِ، ولكنّي أبقى وحدي، ولست آبهاً بذلك، فبعض الحرمان يا حبيبتي كالإعدام..

اليوم، أدرك تماماً أنَّ ما حصل.. حصل بقراري أنا، ولا ذنب لكِ في كل هذه المأساة.. فأنا أعرف من قتلني، وأعدكِ أن يحصل على فرصة قتلي متى شاء.. أنا الشّاهد، والمتَّهم، والضَّحية.. فإذا كان هذا جنوناً، فأنا وبكل شموخٍ، أحد مجانين هذا العالم، بل وأسعى لأكون أكثرهم جنوناً..

أتيتكِ وأنا أعرف أنَّني سأخرج من الباب الخلفي للحب، أو سأترك في بَهوهِ وحيداً.. ولكن هذا لم يثنِ قلبي على تقديم نفسه لكِ، وفتح قنوات القلب حتى يصل الحب إلى أعمق الأعماق، ولم يكن ليمنع عطائي، بل سأحتفل بكِ يا حبيبتي كثيراً، وأخبر العالم كله

عنكِ.. عن حلاوة وجهكِ، وعينك الغجرية المجرمة.. كنت واعياً فيما فعلت، وحين شعرتُ بأنَّ حبكِ سيكون رصاصة قتلي، ملكتُ الإرادة أكثر، ومضيت إلى الموت حباً، فأنتِ يا شغفي، هديةٌ قدريّةٌ ثمينةٌ، وموتٌ عظيمٌ يُشتهى، وأنا رجلٌ أهوى هذه الهدايا، وأهوى الموت فيها هكذا..

شغف.. لا تلومي نفسَكِ أرجوكِ، إنّي أحببتكِ قبل أن تخبرك أفعالي بالحب، أو يخبرك الحب بي.. وما فعلته لأجلكِ، فعلته بإرادة قلبي، ورضى عقلي، وما كنتُ لأتراجع عنه مهما دفعتُ من الأثمان.. ولو أُعيد القرار لي، لكنتُ كرَّرت حبكِ مراتٍ ومراتٍ، ومددت لكِ أَبهَري سجادةً حمراء تدوسين عليه بقدميكِ.. وزرعتُكِ في شغاف قلبي، لتكوني هناك مرضي المستعصي، وموتيَ المُشتهى، فأنسى بكِ مَرَضي الحقيقي، ولا أقوم من سرير الحب بعد هذا.. سيري بي، وعينُ الإله ترعاكِ..

أأعبدكِ شغف؟ لا؛ فأنتِ كل الأجزاء التي تقوم بالعبادة، والرَّب على ذلك يشهد.. أحملكِ في كل شبرٍ مني، وتسكنين الآن، كما تمنيت في مطابخ دمي، وليس هذا المسكن الفاخر فيما بعدك يُسكنُ!!..

شغف، ولدتني أمي لأكونَ ولدها المدلّل، وتُقدِّم للحياة شاباً تفتخرُ به، وتُعلِّق عليه آمالها، وأعادَ حبكِ ولادتي، لأكون سيداً للكلمات بعد أن أدخَلَتني وَلَه إليها.. ولن أنسى هذا.. ولن أنسى أيضاً، كيف قامت شفتاكِ بشنقي بحبل ابتسامتها...

لكنَّني..

سـأكمل الحيـاة في جنـوني شـغف.. فأقوم لأتـزوج رِوايـةً.. وأُحضّر العشـاءَ لِمقطـعٍ موسـيقي.. وأترك كأس الماء يشـعر بالعطـش.. ثمَّ أحلم في أن نلتقـي، أنـا وجـدار غُرفتـي في منـزلٍ آخـرٍ.. وأظـن النَّبيـذ مـاءً.. فأشرب الكثير الكثير.. وأذهب لأكتب رسالة تهديدٍ إلى القمر..

ثـم أُقبّـل وجهـاً من خيالات الشَّـمس.. وأضـع على نافـذتي حُلمي، وأصـبّ عليـه مياهـيَ الغازيَّـة، وأنفجـر ضاحـكاً.. وأكتـبُ شـعراً في عينيـكِ بحـبرٍ على الهواء.. وأرسـمكِ بالدُخـان.. وأفترق أنـا والفراق.. وأنفجر باكياً حين يَسألني السؤال من أنا؟..

وأذهـبُ إلى الصَّحـراء أفتـشُ عـن المـاء، وأروي قصـة ما قبـل النَّوم للصَّبـار، وأطمـح أن أكـون نبيـاً، فأجلـس أنتظـر الوحي.. ثم أكتشـف أني أنتظركِ.. وأنفجر باكياً، حين يسألني السؤال من أنا؟..

وأقرأ جغرافية التَّاريخ مُحاولاً استنباط آثارك، وأسأل الرَّب كم عمراً أحتاج لأنسى فمك الضَّاحك.. وتشهد عليّ زواياي.. وحسرة طعامي المتروك هناك.. وأنفي الحزن بالدَّمع.. وتنقل الخبر عني ما أتركه من أشياءٍ، وأشلاءٍ، وأنفجر باكياً، حين يسألني السؤال من أنا؟..

وأشرب اللَّبـن مُرفقـاً بحمض الجنـون وأضحك.. وأسـكب فنجان قسـوتي فوق اللَّيمـون وأضحك.. وأبحث عن رسـائل حبـي في خنادق الزيتـون وأضحـك.. وأبحـثُ عـن أختـين للـزَّواج مُقـرَّراً أن أكـون وأضحـك.. ثـم يلمّنـي الذُّعـر فأعـود أقـرر ألا أكـون وأضحـك..

وأنفجر باكياً، حين يسألني السؤال من أنا؟..

وأخرج أبحث عن الألم المخنوق في الملاهي.. وتلك الحسرة المرسومة على وجه الإطارات.. وأفكّرُ كيف يستطيع النّسيانُ نسيانَ أحدٍ ولا ينساه! وأنفجر باكياً، حين يسألني السُّؤال من أنا؟...

أنا يا سيدي، قصةُ وفاءٍ قيد الولادة الآن.. أنا يا سيدي، قصةُ حبٍ قيد الاحتضار الآن.. أنا يا سيدي، حالةُ جنونٍ لا اعتيادية.. أنا يا سيدي، وباختصارٍ شديدٍ، متيّمُ شغفٍ ويَتِيمُها.